مقتنيات وسط البلد

وجوه وحكايات من وسط القاهرة

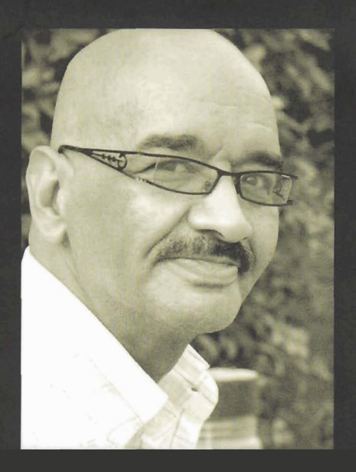
مكاوي سعيد



الطبعة الثانية

رسوم عمرو الكفراوي

دار الشروق



مكاوي سعيد كاتب للقصة والرواية والسيناريو وأدب الأطفال، صدرت له روايتان هما: السفينة» ١٩٩١، و«تغريدة البجعة» ٢٠٠٧، وأربع مجموعات قصصية هي: «الركض وراء الضوء» ١٩٨١، «حالة رومانسية» ١٩٩٢، «راكبة المقعد الخلفي» ٢٠٠١، «سري الصغير» ٢٠٠٨.

حصل على عدة جوائز مصرية وعربية من أهمها جائزة الدولة التشجيعية عام ٢٠٠٨. جائزة افضل مجموعة قصصية من إتحاد كتاب مصر ٢٠٠٩، روايته «تغريدة البجعة» والتي حققت صدى واسعًا ضمن القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر العربية) عام ٢٠٠٧. كما ترجمت بعض أعماله إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والسلوفينية.

يكتب مكاوي سعيد أيضًا السيناريو الوثائقي والروائي، وقد حصل على أربع جوائز ذهبية من مهرجان الإذاعة والتليفزيون العربي وجوائز وبرونزية من عدة مهرجانات دولية.



مقتنيات وسط البلد

الطبعة الأولى إبريـل ٢٠١٠
الطبعة الثانيـة يونيـو ٢٠١٠

الرسوم الداخلية والتصميم عمرو الكفراوي

رقم الإيداع ١٧٥٩/ ٢٠١٠
ISBN 978-977-09-2753-8

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

مكاوي سعيد

مقتنيات وسط البلد

وجوه وحكايات من وسط القاهرة



رسوم عمرو الكفراوي

دار الشروق



المحتويات

كتاب البشر

السمراء ١٢
مناضل الكابتشينو ٢٠
الكاتب الظاهرة ٢٨
تليفون من الضفة ٣٨
رجال من قش ٤٦
كائنات من عالم آخر ٥٦
الدكتور جلال ٦٨
أول مخبر هاو في التاريخ ٧٦
غريب الأطوار ٨٤
نرجس ٩٢
قتلة بالفطرة ١٠٠
فن إهداء المحفظة ١٠٨
عندما قال له الزملاء في الخلية: «الله يخرب بيتك!» ١١٦
الحالمون ١٢٤
العصفور ١٣٢
الشغل يجيب الفقر ١٣٨
كلمة السر.. أبو شقرة ١٤٦
كشف بالمجان ١٥٤
رجل اللاءات الثلاث ١٦٤

غير قابل للتعلم في القارات الخمس........ ١٧٦
مخ ع الزيرو........ ١٨٤
علا ريختر........ ١٩٤
العاشق........ ٢٠٤
ابن الـوز........ ٢١٠
طواويس العفن........ ٢١٨
كائنات أسترا........ ٢٢٦
جر الشكل........ ٢٣٦
اليعسوب........ ٢٤٩
«يا تبر سايل بين شطين.. يا حلو يا اسمر»........ ٢٦٠
سيدة الممر........ ٢٧٠
كوكب الطرشي........ ٢٧٨
أوركيس مسكيولا........ ٢٨٦
آخر النبلاء........ ٢٩٤
الفُسْكُول زين........ ٣٠٢
السينمائي........ ٣١٤
رجل الشجر........ ٣٢٦
الرومانسي........ ٣٣٤
عاشق الحياة........ ٣٤٢
البرنس........ ٣٤٨
سيزينيا........ ٣٥٤
اختبار البلاطة........ ٣٦٢

كتاب المكان

الشوارع والميادين والأسـواق........ ٣٨٣
الميادين........ ٣٨٥
الشوارع........ ٣٨٨
سوق باب اللوق........ ٤٠١

المقاهي.. ٤٠٣
المقاهي الشهيرة.. ٤٠٧
المقاهي والكافتريات السياحية.. ٤٢٩
الفنادق.. ٤٤٣
المطاعم.. ٤٤٧
البارات والكباريهات.. ٤٥٥
الأماكن الثقافية... ٤٦٣
المراجع والمصادر... ٤٦٩
عن المؤلف ٤٧١

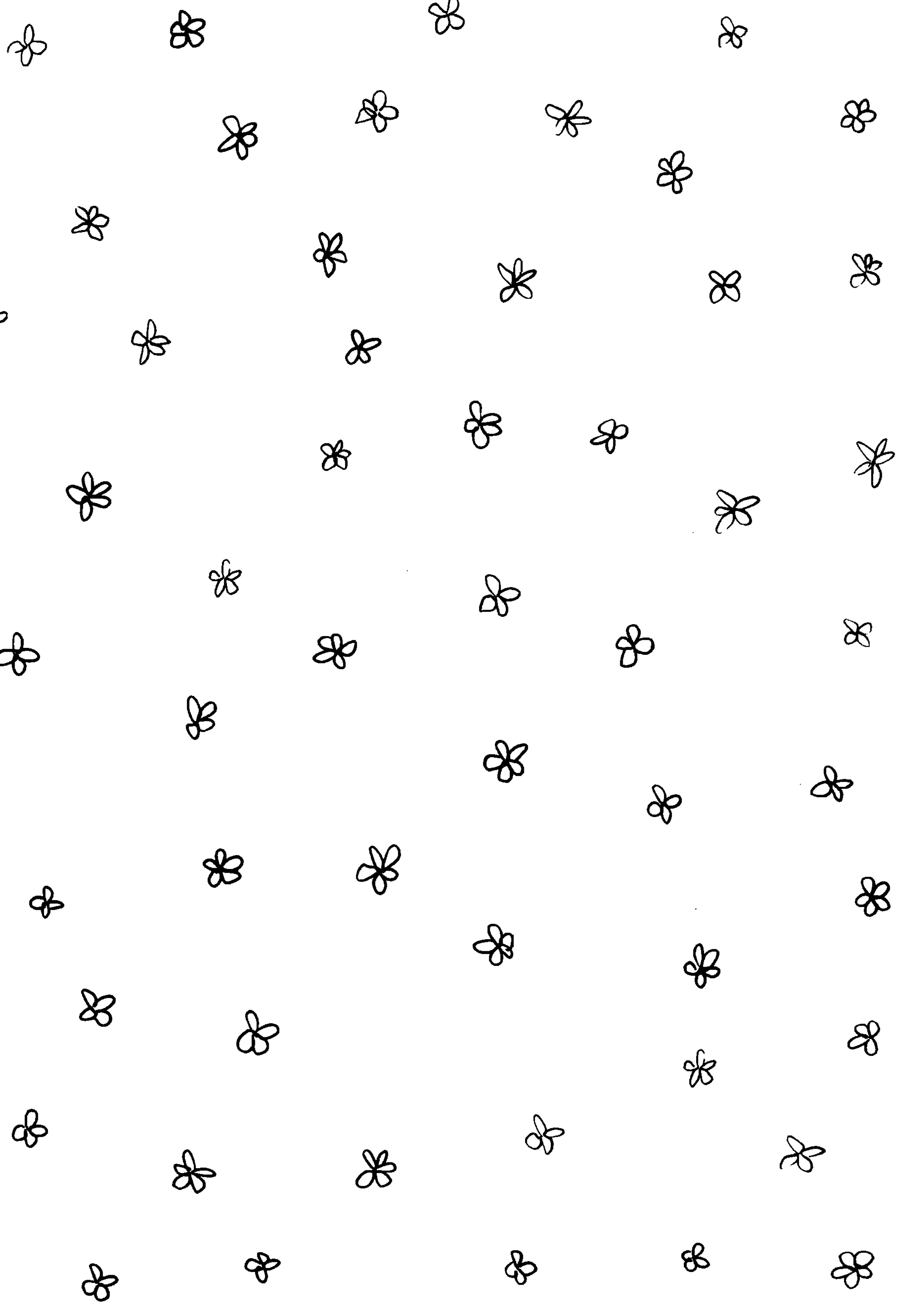


إهـــداء

إلى القراء الذين ســاندوني دائمــا ولم يخذلوني مطلقا.
وإلى أساتذتي الذين راقتهم هذه الحكايات عندما نشر بعضها بجريدة البديل:
علاء الديب، نصار عبد الله، جابرعصفور، نبيل عبد الفتاح، سيد البحراوي، محمد أبو الغار، جمال الغيطاني، محمد البسـاطي، علـي أبـو شـادي، والراحـل د. محمـد السـيد سـعيد.

وإلى أصدقائي المحبين:
سيد محمود، جيهان عمر، عبد المنعم رمضان، بلال فضل.
وإلى المفتـون بالقاهـرة ووسـطها: الساحر غالب هلسا.
وإلى روح الصديقة الغالية: أمل رمسيس مرزوق.

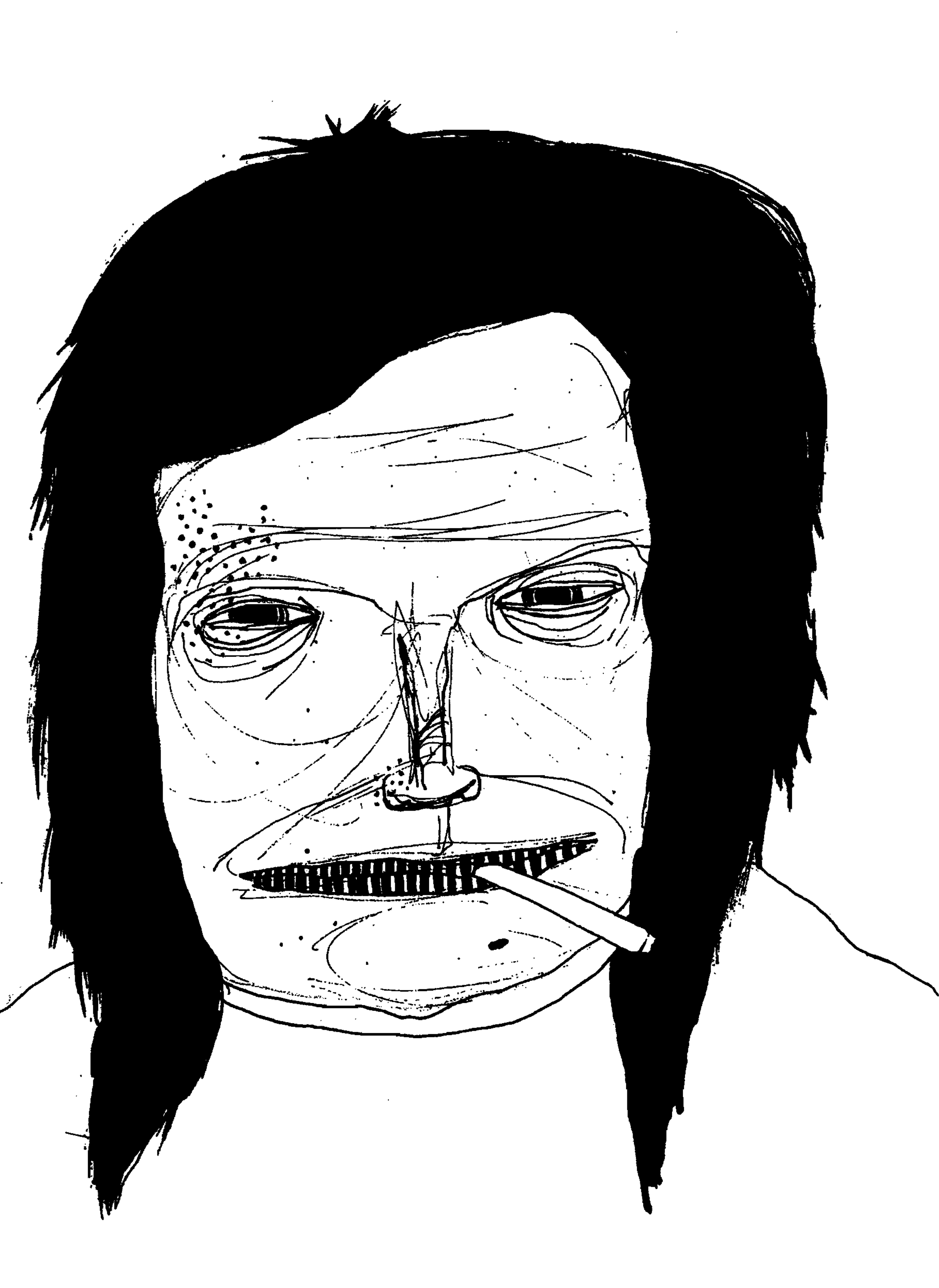
مكاوي سعيد





كتاب البشر

السمراء





مائة متر هو مشوارها اليومي الآن.. من ميدان التحرير حتى مقهى الحرية بباب اللوق.. إذا سرت ليلًا أو مساءً في تلك المسافة فإنك حتمًا ستراها.. سائرة ببطء، متسخة وقذرة ومثيرة للقلق..صيفا ستقابلها بأسمالها الخفيفة هائمة ما بين نهر الطريق والأرصفة، وعيناها جاحظتان وفمها يطلق أدخنة سيجارتها من جانبيه بينما السيجارة لاصقة فيه. وشتاء ستجدها لابدة أسفل مظلة دورة المياه العمومية بباب اللوق أو أسفل دورة محطة انتظار الأوتوبيسات المقابلة لمقهى الحرية، حيث تكون أقرب ما تكون إلى مقهاها المفضل الممنوع وجودها به.. تبدل الحال بها كثيرا هذه الآونة.. في فترة السبعينيات كانت حركتها أوسع وأشمل، وكانت جذوة نشاط في منطقة وسط البلد بكاملها في كل النشاطات والفعاليات.. وبالرغم من أنها كانت لا تتحدث كثيرًا في الندوات والملتقيات الثقافية، فإنها إن تكلمت فكلامها كحد السيف قاطع محدد وفاصل وواع وحكيم.

سمراء خمرية، تنتسب من بعيد لأسرة يسارية كان لها دور كبير في ثورة يوليو.. ليست جميلة وإن كانت جاذبة للنظر بابتسامتها الكبيرة وعينيها السوداوين الواسعتين.. المدينة أيامها كانت غير الآن..في الشتاء كان الناس يكنون في بيوتهم يحبسهم البرد القاسي وتحاصرهم سحب وغيوم وضباب، تحجب عنهم المستقبل.. وبعض الشباب من فنانين وكتاب وممثلين ومغنين

كانوا يتخذون من ميدان التحرير ومقاهيه ومحلاته مراكز إيواء لهم.. يتناقشون ويتحاورون ويتجولون ليلا ونهارًا حتى ينتهي بهم اليوم مجهدين متعبين في انتظار المبيت عند صديق، غالبًا لا يجيء.

في ظني أن شلتنا كلها أحست بلفحة الحب وهي تكاد تمسها بعد بضعة أيام فقط من انضمام الشاب الفلسطيني لجلستنا وتعرفه علينا.. وقد نكون راقبنا دمعاتها الرقيقة وهي تجاهد كي توقفها في أثناء أحاديثه المتتالية عما يفعله ببشاعة جنود الاحتلال في بلده.. ثلاثة أشهر بالكاد مرت وتغير حالها.. فبعد أن كانا يجلسان متباعدين وينصرفان سويًا.. أصبحا يجلسان معًا وينصرفان معًا..

وتبدلت ملامحها وومضت عيناها وتورد وجهها ونظفت ملابسها، وكان هذا حدثًا أيامها.. فمن سمات النضال ملابسنا المتسخة التي تشي بأننا لا نجد مبيتا أو مكانا مستقرا من عنف المطاردة.. ثم دبلتان فضيتان ربطتاهما، وزواج بعد فترة قصيرة.. ومن الجائز أننا حضرنا عرسها الصغير فوق سطح إحدى عمارات حي معروف.

سنة مرت أو سنتان وتغير حال البلد قليلًا أو جذريًا ما عدت أدري!... سافر الرئيس السادات في زيارته التاريخية إلى القدس رافعًا غصن الزيتون.. وتحمس زوجها جدا لهذه الزيارة ووقف أمام عواصف غضبنا وانفعالنا بثبات، ولم يكف عن محاولة إفهامنا بأهمية هذه الزيارة وخيرها الذي سيعم على بلاده أولا ثم سائر وطننا العربي.. وللحق فقد وقفت الفتاة حائرة تماما بيننا كالعصفور الذي سقط بين أرجل الذاكرين في حفلة ذكر عارمة..كفت نهائيا عن النقاش في هذا الأمر..لم تشأ أن تفقده أو تخسرنا، لكنها أيضا لم تتوقف عن التمسح به والتعلق بثيابه والتطلع إليه كقديس..

ثم حصل زوجها ـ المناضل السابق ـ على ترخيص مجلة باسم «السلام» استكتب فيها البعض.. وتغير حال زوجها تمامًا، وظهرت عليه النعمة وهي أيضًا نالها نصيب.. وتحملا بجلد وشجاعة سخافتنا وسذاجتنا أيامها، ولم يرتعدا أمام تهورنا واندفاعنا. وكنا نعتقد أنهما سينسحبان ولن يجرؤا على مواجهتنا، ولكنهما صمدا..

وظهرت لزوجها أنشطة تجارية أخرى منها أنه ساهم ببعض ماله في سوق الكاسيت الذي كان موضة تلك الأيام وتبنى مطربًا شابًّا من رواد المقهى صوته مقبول إلى حد ما وأنتج له شريطًا.. واصطحبنا ذات ليلة إلى الميدان لمشاهدة اللافتة العملاقة المزينة بصورة المطرب والتي تبشر بصدور الشريط.. ولا أدري ما الذي دفعني في تلك اللحظة لاختلاس النظر إليها، وفاجأني أن عينيها براقتان لامعتان وفوق فمها بسمة محيرة.. حيرتنى دموعها.. هل هي دموع فرح وانتصار أم خيبة أمل؟! بالطبع فشل الشريط، وخرج المطرب تمامًا من خريطة الغناء..

وكان هذا الفشل ضمن سلسلة فشل طويلة يجرها زوجها المذكور خلفه في كل مكان.. فشل في النضال والاستسلام والمشروعات ووسائل التحايل على الحياة. اختفيا عن منطقة وسط البلد لسنوات طوال.. ونسيناها ونسيناه إلى أن أخبرتني صديقة قديمة بأنها رأتهما مشتبكين في خناقة عارمة في ميدان الجيزة وأنها كانت تضربه على صدره بجنون وتصرخ فيه بهستيريا.. ولم يفلح الناس في فض الخناقة أو حتى مجرد زحزحة يدها عن ملابسه.. ولما تدخلت الصديقة ونادتها باسمها لتكف عن الشجار تجاهلتها تمامًا وادعت أنها لا تعرفها.. ولما أصرت الصديقة على تذكيرها بنفسها كادت تشتبك معها بالأيدي، وصرخت في وجهها محرضة الناس عليها بأنها هي

الأخرى من عشاق زوجها.. بعد هذه الحادثة لم نسمع عنها شيئًا.. لكن سمعنا عن زوجها الكثير..إنه عاد مرة أخرى إلى وسط البلد وإن أصحاب مقاهٍ كثيرة يطاردونه بسبب عجزه عن دفع ثمن المشروبات أو لنصبه على الزبائن بتأشيرات وهمية لأمريكا وكندا..

لكن ككل شيء في دنيانا ينتهي بمثل ما بدأ.. عادت مرة أخرى إلى وسط البلد في الفترة الأخيرة خلفه كالفريسة التي تطارد صيادها بعد أن أدمنت لعقه لدمائها.. عادت مجنونة تمامًا.. لا ترتدي غير بعض قطع الخيش الذي قذارته أخف قليلا من قذارة جسدها.. تنام أسفل الكباري وأمام المحال.. تسير ببطء وهدوء وهي تأكل السيجارة بفمها وتحدث نفسها في مونولوج داخلي طويل غير مفهوم.. يطاردها أولاد الشوارع وشمامو الكلة ويفزع من رؤيتها العابرون..

أقابلها كثيرا عابرًا الشوارع أو في داخل المقهى وتقابلني بعين زجاجية معتمة لا تعكس أي ذكريات. أكثر ما يدهشني حركتها الدائبة جيئة وذهابًا أمام مقهى الحرية أو الندوة الثقافية..

رأيتها مرة لحظة اقتحامها المقهى فجأة وهي تختطف علبة كبريت تشعل به سيجارتها ثم تلقي بالعود المشتعل تجاه المنضدة التي يلتف حولها فتيات وشباب صغار يتحدثون عن هموم المسرح أو أزمة السينما أو تردي الواقع المعيش.. ارتعدت الفتيات وسكن الشباب عن الحركة بينما خرجت هي غير عابئة بشيء! ترى ماذا يدور بذهنها بعد تلك الفعلة؟.. وهل كلهم ـ في ظنها ـ يستحقون الحرق؟ هل تتمنى إبادتهم أو إنذارهم؟ أو أن هذه الأوراق التي بين أيديهم ما عادت تمثل لها شيئا؟

حاذر إذا قابلتها مصادفة أن تقدم لها نقودًا أو طعامًا أو تحدق إلى وجهها فهي غير مأمونة العواقب.. افعل مثلي تماما.. تجنبها وتأمل هذه الدنيا الباطشة!

مناضل الكابتشينو





كنا نتعجب من قدرته على تحمل خرف وقلة عقل السيدة السويسرية العجوز المزعجة مالكة البنسيون الذي يقيم فيه بوسط البلد، والتي كانت تشتهر بيننا بهوسها بالنظافة وبصوتها العالي وعصبيتها الشديدة وبفوبيا الخوف التي تتملكها وتجعلها تحكم غلق باب «بنسيونها» عند الساعة الثانية عشرة ليلًا رعبًا من قاتل متسلل مهووس يترصدها، ولا تفتح الباب لأحد ـ مهما كان ـ بعد تلك الساعة.. وكم جعله هذا الإغلاق يجول حتى الصباح في شوارع وسط البلد أو يبيت على المقاهي من تعنت تلك السيدة.لم يكن «بنسيونا» في واقع الأمر بقدر ما كان شقة صغيرة مكونة من خمس غرف احتل صاحبنا غرفة منها لسنوات طويلة، حتى انفض الناس عن هذا المكان وظل هو نزيله الأخير يتحمل بصبر وأناة تقلب حال العجوز..

ثم فوجئنا عقب وفاتها مباشرة باستيلائه عليه وتحويله إلى شقة خاصة به، وتصدى بقوة وجرأة لشركة التأمين مالكة المبنى.. ولم تنجح أي من الطرق الودية والقانونية والوساطات في إجلائه منها، وبخاصة بعد أن كان قد أعد عدته لهذه الحرب من مدة طويلة: أرسل لنفسه خطابات على البنسيون وراسلناه كثيرا على العنوان ذاته، جاهلين بنيته وافتعل خناقات ودخل في مشكلات تكون نتيجتها الحتمية الوصول إلى قسم الشرطة وعمل محاضر يدون فيها عنوانه الذي هو عنوان البنسيون.. كما غير عداد النور باسمه في

أثناء حياة السيدة، وجعلها توقع له على عقد إيجار طويل المدى يعلم الله كيف نجح في ذلك بالإيجاب والقبول أو بالتزوير.. ثم رشا محامي الشركة فتغيبوا عن حضور الجلسات وسقط حقهم القانوني في المكان..

كان هذا هو إحدى ثمار جهده النضالي في نظري.. والذي كان يمارسه دائما وهو جالس على طاولة اشتهرت باسمه في كافتيريا «لاباس»، يبدأ فيها أولا بتجرع الكابتشينو في صمت المفكر، ويستغل حنجرته الجهورية في التنظير لما أسماه بضرورة الدفاع عن أرضنا ومعتقداتنا ومقدساتنا العربية ضد العدو الصهيوني الغاشم حتى الموت.

وبصفته مناضلًا حقيقيًا وأصيلا كان من الطبيعي أن يكون من طليعة المسافرين إلى بيروت في فترة حصارها في الثمانينيات حيث تعرف هناك على سيدة فلسطينية فاضلة كانت تعمل سكرتيرة لمسئول فلسطيني كبير.. وعلى الرغم من خبرتها الكبيرة بالنفوس البشرية من كثرة ما احتكت بهم في أثناء زيارتهم للمسئول المهم، فإنها سقطت بسهولة شديدة تحت براثنه من أول إطلالة لحنجرته، ولم تدر بنفسها إلا وهي زوجة له.. كان يعود إلينا مرة كل شهرين ليجالسنا على طاولته الشهيرة يبث علينا وقائع ويوميات نضاله ببيروت، بوجهه الذي يطفح بسمات الجاد الواثق القوي، وبرشفات الكابتشينو التي تقطع تسلسل ذكرياته، وبشعره الكثيف الذي جعله «السشوار» يبدو كلبدة الأسد.

وبانتقال منظمة التحرير الفلسطينية إلى تونس وهو بصحبتها نجح صاحبنا في الحصول على امتياز نشر الكتب التي تؤيد القضية الفلسطينية وأشعار الثوار، واعتمد ناشرا..و بإغلاق كافيتريا «لاباس» تغيرت أشياء كثيرة بوسط البلد، ومالت رمانة الميزان في اتجاهات أخرى ومال معها صاحبنا في اتجاه

النقيض التام لما كان يدعو له ويهدينا إليه ويدلنا عليه.. وبدأ بنشر بعض الروايات والكتب السياسية العبرية تحت شعار «اعرف عدوك».. ثم تغير هذا الشعار تماما وأصبح بعده المتحدث الرسمي والوكيل المعتمد لشعار «الصلح مع الآخر». في لقاءاته المتعددة عبر الفضائيات العربية ظل ينصحنا (أدام الله مجده) بأهمية السلام في تقدم البشرية وبعدم جدوى الحرب وإراقة الدماء وبالعفو عند المقدرة، وبكلام كثير من هذا القبيل.. ولا توجد مناسبة قومية أو اعتداء من إسرائيل على إخواننا الفلسطينيين أو اللبنانيين إلا وظهر صاحبنا في مجال الفضائيات العربية كافة، يفتي ويحلل أبعاد الصراع لصالح الطرف الآخر.

رغما عني دائما عندما أشاهده تحضرني حادثة صغيرة تعود لأيام صخبه ونضاله العنيف في «لاباس».. كنا بمعيته هناك، وكان يشرح لنا أبعاد الصراع العربي الإسرائيلي وأهمية مساندة إخواننا الفلسطينيين وضرورته، ويعدد لنا طرق هذه المساندة.. وكان معنا طفل صغير سنه لا تتجاوز ست السنوات.. والغريب أن الطفل كان غير مشغول بنا جميعا باستثناء صاحبنا.. كان الطفل يراقبه بدهشة ويبدو أن نَبْرة صوت صاحبنا أزعج الطفل بشدة لأنه استغل فترة توقف الصوت لانشغال صاحبنا بشرب الكابتشينو، واقترب الطفل منه بحذر وتجرأ ولطمه بالقلم على قفاه دونما سبب معلوم.. اندلق الكابتشينو وتكهرب الجو تماما، وذعرت أم الطفل وارتبك أبوه.. لكنه امتص الموقف تماما بابتسامة صفراء، وظل يحتضن الطفل ويربت ظهره حتى لا يعنفه والداه.. ثم أكمل شرح نظرياته وتصوراته عن الحل المثالي للقضية، والطفل ما زال في حضنه يجاهد أن يفلت نفسه منه لكن لا مفر؛ فيده الفولاذية كانت قابضة تماما على ساعد الطفل حتى نام الطفل المسكين في حجره..

وعندما طال الوقت بنا أصر على إكمال الحديث في الموضوع نفسه في مساء الغد التالي وعزمنا بشقته الجديدة بالزمالك على وجبة عشاء فاخرة سيقدمها لنا من حات شهير، وأكد على والد الطفل وأمه أن يحضرا معهما الطفل ليثبت سماحته ورضاه عن الطفل! بالفعل كان العشاء فاخرًا وشهيا لم تزعجنا إلا الموسيقى الخلفية التي كان هو واضعها من خلال سرده الرتيب لأبعاد الصراع الإستراتيجي بيننا وبين العدو.. وكعادته ظل ممسكا ميكرفون الكلام غير سامح لأحد منا بالتدخل ولا التعقيب.. وكنا تحت أسره تماما إلى أن لاحظ ـ وهو في أوج تنظيره ـ بأن الطفل يهمس في أذن أمه بشيء، وتنبأ بحكم القدرة التي وهبها له الله (استشراف المستقبل) بأن الطفل في حاجة إلى دخول الحمام.. وقطع حديثه وتطوع بإنسانية وبكرم المضيف بأن يذهب بالطفل إلى الحمام غير مبال بلهفتنا جميعا على سماع رؤيته العميقة وتنظيره المحكم للأحداث..

ذهب بالطفل إلى الحمام الذي كان في نهاية البهو الطويل البعيد عن مدى رؤيتنا.. انشغلنا بالحوارات الثنائية إلى أن سمعنا صرخات عالية ملتاعة من الطفل.. قفزنا كلنا من أماكننا واتجهنا باتجاه البهو تنتابنا المخاوف والظنون.. لكننا فوجئنا تماما بسيادته مرتديًا ملاءة بيضاء بها ثقبان فقط مكان العينين وأسفلهما أنف طويل ملتصق كأنف «بينوكيو»، وكان الأنف فسفوريًّا يضيء في الظلام الدامس بعد أن أطفأ سيادته كل أنوار البهو.. كان الطفل منكمشًا خارج الحمام يرتعد في جنون وهو على الجانب المقابل يفتعل حركات المهرجين ويتمادى في إغاظة الطفل.. ثم بدأ يضحك بهيستريا بعد أن أدرك ثأره من الطفل!

وهو يطل علينا من الفضائيات يحدثنا عن الصلح مع الآخر تحضرني دائما

هذه الحكاية وأنا أسمع صوته الذي لم تتغير نبرته لكن فقط تغيرت الكلمات... وإن الصراع بيننا وبينهم يجب أن ينتهي في أقرب وقت من أجل سلامة العالم وبأننا أولاد عم ولكل منا حقوق تاريخية لدى الآخر!

.. وأظل أسأل نفسي: لماذا يطلب منا أن نترك ثأرنا مع عدو بينما لم يتركه هو مع طفل؟!

الكاتب الظاهرة


هذا الكتاب صرخة
شاب فعل لها
تلاحظون الشبه الكبير
بيني وبين الزعيم الراحل
جمال عبد الناصر



في نهاية السبعينيات حتى منتصف الثمانينيات ملأ مصر صخبًا وضجيجًا، وأصبح الشغل الشاغل للمثقفين ومنظري ومحترفي السياسة وحتى رجل الشارع العادي.. في منحدرات المترو وحوائط الخرابات وعلى الجدران بطول وامتداد شوارع وحواري وأزقة القاهرة لوّن المساحات البيضاء «باسبراي» أحمر داكن «أديب الشباب فلان الفلاني.. يحظر على بنات المعادي ومصر الجديدة قراءة مؤلفاتي.. من يريد أن يعرفني يكفي أن أقول له إن عيني عسليتان.. لأقسمن لأجعلن أدباء مصر يمتهنون عملا آخر!»..

عندما أصدر كتابه «أحكام علائق التزاوج» كتب على كل الحوائط: هذا الكتاب صرخة شاب فهل لها من دوي؟! وعندما أصدر كتابه «من يسبح ضد التيار معي؟!» كتب في إعلاناته: هذا الكتاب زعقة مبحوحة على الصرخة المكتومة فهل لها من نصير؟!

ومن الطريف أن إعلانات أديب الشباب استفزت كاتبا شابا أيامها (صار كاتبا متميزا الآن) مما دفعه لتناول هذه الظاهرة بحدة على أنها مؤامرة على الكتابة، وتمكن منه الغضب فتركنا بالمقهى ليلا وذهب إلى سوق باب اللوق، واشترى نصف كيلو فحم، وظل طول الليل يكتب بالفحم بجوار اسم الأديب الشاب كلمات بذيئة.

ومن طرائف حملات هذا الأديب الإعلانية أنه في أحد شهور رمضان

سجل على شريط كاسيت كلمة منه يرجو فيها لأهل المعادي إفطارا شهيا وصوما مقبولا، واستأجر دراجة وضع عليها جهاز التسجيل وسار بشوارع المعادي يسحر أهلها.

مجهود خرافي رهيب، فعله هذا الأديب وجعله بين ليلة وضحاها من أشهر الناس بمصر، مما استفزنا لقراءة مؤلفاته واحدا تلو الواحد بداية من أحكام علائق التزاوج، ومن يسبح ضد التيار معي، وكلام على ورق بفرة، والألوهية والجنس وسيدي المسيح عفوًا.. إلخ. وبعد أن قرأنا معظم ما كتب خلصنا إلى أن من المستحيل أن يكون كاتب هذه الكتب شخصًا واحدًا له مثل هذا الخيال الفذ.. لا بد أنهم مجموعة كتاب من المشاغبين تخفوا تحت اسم أديب الشباب لتحريك المياه الراكدة.. ودعم اعتقادنا هذا، كل هذا الانتشار المرعب والغريب لاسم هذا الكاتب على كل جزء ثابت ومتحرك بالمدينة.

اتصلنا برقم الهاتف المدون بأحد كتبه، ورد علينا الأديب بأدب جم، ووافق بترحيب على حضور الندوة التي ستناقش أعماله.. أعدت قراءة كتبه تمهيدًا لمناقشته فهالني ما قرأت هذه المرة.. كلام مرسل مكتوب بسلاسة غير عادية من دون أي قيود أو محظورات، وكأنك تقود دراجة مقرفصًا على كرسيها الصغير وفاتحا ذراعيك في استعراض مخيف..

وأعترف الآن أني لم أقرأ في حياتي ما يجعلني أضحك دونما توقف غير كتبه وكتاباته، وأنها أدخلت على حياتي البهجة لسنوات تالية.. وظللت لفترة طويلة حينما أكتئب لسبب ما، أجذب أحد كتبه من مكتبتي أقرؤه فيغادرني الاكتئاب على الفور.

بمجرد أن تفتح الصفحة الأولى لأي من كتبه ستجد عنوانه بمقابر الإمام الشافعي وعنوان جاره بالسكن الترزي الذي يفصل البذلة بثلاثة جنيهات وبالقسط.. بعد ذلك ستجد صورة باهتة رديئة للمؤلف بالبذلة الكاملة واقفًا أمام قفص القرود بحديقة الحيوان معطيًا ظهره للقارئ، ومكتوبًا أسفل

الصورة: «تلاحظون الشبه الكبير بيني وبين الزعيم الخالد جمال عبد الناصر»! وسيحكي لك في بداية الكتاب كيف حصل على ليسانس الحقوق.. وكيف امتنعت دور النشر عن نشر مؤلفاته فقرر طبعها على حسابه بمطبعة نظرا لخبرته السابقة في طباعة ملازم أساتذة كليته على «الإستنسل» والتي فصل بسببها عاما من الكلية... (وسيذكر عنوان المطبعة واسم صاحبها بالتفصيل). وسيدخلك في مغامرات معه وأنت تتابعه وهو يغامر بحياته حاملًا بوياته ولافتاته داخل القطارات أو على سطحها مطاردًا الفرق الرياضية الكبرى التي ستلعب في المحافظات.. كيف يناور حتى يدخل «الإستادات الرياضية» دون أن يفقد حوائجه.. كيف يختار مكانه بعناية في المدرجات بمحاذاة مرمى الفريق الضعيف الذي ستنهمر الأهداف في شباكه.. كيف يثبت لافتته في مجال عين كاميرا التليفزيون حتى يراه كل مشجع بمصر.. كيف كان يحمل سلما زنته حوالي ثلاثين كيلو ويطوف به الشوارع.. كيف كاد يصعق من الكهرباء أكثر من مرة وهو يخلع الخشب من على الأعمدة ليستعملها.. وكيف يسبب له شهر أمشير الكوابيس لأنه يقتلع لوحاته من الشوارع!

عندما تدخل في صلب الكتاب ستسحرك أعاجيبه ـ في رأيي المتواضع لم يستطع كاتب في العالم أن يكتب أحلام اليقظة بقدر هذا الأديب!!: أصر وألح التليفزيون على عمل مقابلة معه، فوافق بعد أن لوعهم.. اشترط عليهم أن يفردوا له السجادة الحمراء من الدور الرابع (مقر التسجيل) حتى الدور الأرضي.. في المدخل سجل بتواضع اسمه في دفتر كبار الزوار.. استقبله كبار المسئولين ورؤساء القنوات والشيخ متولي الشعراوي الذي كان في إستديو مجاور (وعندما سمع بحضور الأديب هرع للترحيب به..). وكان الصحافيون والمراسلون الأجانب يمتشقون آلات التصوير على أظهرهم، (وكان ضوء الفلاش يغشي بصره)...

ثم يسجل في كتابه الممتع «كلام على ورق بفرة» لقاءه مع الأستاذ فاروق

شوشة في برنامج أمسية ثقافية، وكيف وافق على التسجيل بعد ممانعة شديدة ورجاء ملحف مقابل عشرة آلاف جنيه تبرع بنصفها لحصد الكلاب الضالة والقطط التي تهرع في أروقة ماسبيرو! وسيبدأ البرنامج بذكر وقائع ميلاده:

«كان يوم مولدي في الصباح، وكانت أمي تنشر الغسيل، وقالت لي: إنني انزلقت منها وكأنني لفافة سقطت عفوا.. وعندما أبلغت بذلك حمدت الله أن أمي كانت ترتدي ما أقال عثرتي، وإلا شجت رأسي وأصبحت نسيا منسيا، وكنت وفرت عناء كلمات شاب كتبها على إعلاني «من يسبح ضد التيار معي؟»: يا أخي اسبح مع التيار وريحنا منك»!

وسيدلي بدلوه في كل القضايا الثقافية والإنسانية التي يطرحها عليه الأستاذ فاروق شوشة، وسيقدم نصائح مسلية لربات البيوت أيضا: «على فكرة بالنسبة لتقشير البصل أنا دائما أقشره في البلكونة لأن تيار الهواء يبعد الرذاذ عن عيني.. وإذا كانت ست البيت ليس لديها بلكونة بها تيار هواء، يمكن أن تقشر البصل أمام مروحة »!

وعندما سأله المحاور فاروق شوشة عن منظر يحب ألا يراه؟ أجابه مؤلفنا العبقري: «بصراحة حاجة تكسف إنك تلاقي راجل طويل عريض يتبول في طريق عام.. وبصراحة بدأت أعرف من هذه الفعلة الكريهة الفرق بين الدول المتخلفة والدول المتحضرة.. إنهم أناس حرموا من الحياء.. وعموما اتصلت بالمسئولين واتفقوا مع هيئة الكهرباء على كهربة الأرض والحوائط التي عادة ما يتبول عليها قليلو الحياء، فإذا ما فعل فعلته القبيحة فهو يصعق من التيار.. وهو لا يودي بحياته ولكن يقطع الخلف بس! وبذلك بذلت مجهودا بجانب مجهود: انظر حولك».

سؤال أخير وجهه له المحاور قبل انتهاء الحلقة: كيف تقضي وقت فراغك؟ أجابه الأديب بسرعة: عموما أنا ليس عندي وقت فراغ، ولكن إن وجد فلا بد

أن أقوم بعمل مفيد، أولع فرن البوتجاز على الفاضي وأستعد بشبشب لأقتل الصراصير الحرانة...

بعد انتهاء اللقاء تم إغلاق المنطقة التي أمام التليفزيون من كثرة الحشود التي أتت للسلام على أديب الشباب...

ستجد أيضًا داخل صفحات كتبه قصة حب المطربة منى عبدالغني له.. حب من طرف واحد، وكيف كان يعاملها بجفاء مما يجعلها تبكي فيرق قلبه ويرد عليها.. وكيف وسطت الفنانين لكي يقنعوه بمبادلتها الحب لكنه رفض بإباء وشمم، وهو يقول: إيه التلاقيح اللي عمالة تتحدف عليَّ دي؟! أهمل المطربة المعروفة وركز على قصة حبه لفتاة عادية بسيطة... كتب كل شيء عنها بلا خجل ولا حياء! ذهبت فتاته للمصيف بالإسكندرية مع عائلتها، فتتبعها صاحبنا إلى هناك واصطحبها إلى أحد شواطئ الإسكندرية في جو رومانسي، لكن البنت سرعان ما تمردت على هذا الجو وقالت بضيق: إن رائحة مياه البحر زفرة! وطلبت منه مغادرة هذا المكان.. أوصلها صاحبنا إلى أهلها.. ثم عاد بسرعة إلى نفس المكان بعد أن اشترى كمية ضخمة من الصابون النابلسي وجلس ساعات طويلة يغسل مياه البحر حتى لا تفوح منه الرائحة الزفرة عندما يعود بفتاته في اليوم التالي!!

كنا بمقهى «علي بابا» قبل ساعات من الندوة نخطط للإيقاع به والسخرية منه والتنكيل به.. وكنا مدفوعين بنزق الشباب أيامها.. قررنا البدء بكلام جاد ومتزن حتى لا نضطره للمغادرة سريعا فيفسد اللقاء.. كنا نتكلم بصوت عال وبطريقة هوجاء من دون أن ننتبه لجلوسه بالقرب منا يسمعنا ويراقبنا وتصله تفاصيل مؤامرتنا.. قبيل مولد الندوة بربع ساعة خرج ولم يعد، وتركنا ننتظر طويلًا حضوره.. عندما كلمه أحدنا في اليوم التالي سبه ولعنه وهو يخبره بوجوده بجوارنا وبتفاصيل خدعتنا.

آخر عهدي بكتاباته على الحيطان في أثناء أزمة الرئيس الأمريكي كلينتون مع متدربة البيت الأبيض «مونيكا».. لقد ملأ أيامها جدران القاهرة بهذه العبارة: «البقعة التي على فستان مونيكا تخصني، ومستعد أشيل القضية»!

وذات يوم بعد تدبير محكم أمر رئيس حي مدينة نصر بطلاء سور عريض لحديقة كبرى باللون الأبيض، وكمن له رجال الشرطة في كل مكان.. فوق الأشجار التي في مقابل السور وعلى هيئة كناسين بالشوارع القريبة، وعلى شاكلة بستانية حدائق خلف السور... فوجئ الأديب بالحائط الأبيض فاتحا له فخذيه وداعيا له بالولوج.. مر الأديب مرتين أمام السور.. وعندما اطمأن قلبه أخرج عدته وعلب دهانه وبدأ في الكتابة.. وقعت عليه الشرطة من السماء ومن الأرض ومن خلف السور.. حبسوه بضعة أيام، ثم غرموه وأرغموه على إزالة كتاباته وتوقيع إقرارات بعدم تلويث المدينة مرة أخرى.

في السنوات الأخيرة لم أعد أسمع عنه شيئا، وأتمنى من الله أن يكون بخير.. وعندما سألت عنه كثيرا منحني زميل صحفي هدية لا تقدر بمال. شريط تسجيل به حوار أجراه هذا الزميل مع أديب الشباب منذ سنوات بعيدة ولم ينشر.. سمعته ووجدت أنه تحفة فنية تفوق كل ما كتبه أدباء أمريكا اللاتينية من واقعية سحرية.. سأختار لكم من هذا الشريط سؤالين فقط لنرى كيف أجاب عنهما هذا الأديب الفذ:

سأله الزميل سؤالًا تقريريًا عن أسباب تخلف الشرق عن الغرب؟.. فرد الأديب مستنكرًا أن الغرب متفوق على الشرق أصلا.. وقال: إن العكس هو الأصح، فالشرق متقدم لكن لا أحد يريد الاعتراف بذلك. وضرب مثلا.. ظاهرة التخاطر أو توارد الخواطر أو ما يطلق عليه الغرب «تليبثي».. أول تعريف لها في الغرب كان على يد الطبيب «مايرز» بالجمعية البريطانية للأبحاث الباراسيكولوجية عام ١٨٨٣، بينما نعرفه نحن كعرب منذ عهد أمير

المؤمنين عمر بن الخطاب عندما كان يخطب الجمعة ثم توقف عن الخطبة وجعل ينادي: يا سارية الجبل!.. يا سارية الجبل!: ثلاثًا، وكان سيدنا عمر قد وجه جيشًا ورأس عليهم رجلًا يقال له سارية.. ثم حدث أن قدم رسول الجيش فسأله الخليفة عمر عن أخبار القتال فقال: يا أمير المؤمنين هزمنا فبينما نحن كذلك إذ سمعنا مناديًا ينادي: يا سارية الجبل، فأسندنا ظهورنا بالجبل فانتصرنا على الأعداء. هذا تعريف للظاهرة قبل الغرب بقرون. أيضا نحن سبقنا الغرب في تقنيات السينما (الكلام مازال لأديب الشباب).. وعندما سأله الزميل الصحفي بدهشة كيف ذلك، والسينما اختراع غربي مائة في المائة؟.. قال أديبنا ـ لا فض فوه ـ إن فكرة الدوبلير التي استخدمها الغرب في السينما سبقناهم نحن باستخدامها، عندما نام على بن أبي طالب (رضي الله عنه) في سرير النبي (صلى الله عليه وسلم) ليلة الهجرة حتى لا يؤذيه الكفار! هل هناك خيال بعد هذا؟!

تليفون من الضفة



قابلته لأول مرة بمعهد السينما في أوائل الثمانينيات.. قصير وضئيل الجسم جدًّا، سمح الوجه كوجه طفل بريء وعينان لامعتان ونافذتان جدًّا لا تكادان تواريان بريق النباهة والذكاء، يرتدي بنطلون جينز مهترئًا وقميص داكرون أجرب اللون لم يغيرهما منذ سنوات.. وكان محاطا بفتيات المعهد الجميلات والثريات منهن على الأخص.. بمجرد إقباله علينا وولوجه فناء المعهد يندفعن إليه وهن يسألنه عن أحواله ويثرثرن ويضحكن معه في وقت واحد كأن كل واحدة منهن لاقت حبيبها الأول.. وينفضهن من حوله بابتسامة عذبة وهو يخلي طريقا لنفسه حتى يقابلنا نحن الصعاليك المبهورين بما أحدثه فيهن ويحدث له من هؤلاء الفتيات الجميلات..

دقائق معدودات يجالسنا فيها وهو يحدثنا عن مشروعات الليلة وكيف سنقضيها، والمحاضرات التي يلزم حضورها والأساتذة الذين يجب الاستماع إليهم والآخرين الذين يجب تجاهلهم.. ثم يعود لينفرد بشلة الفتيات يكلمهن عن كارل ماركس، وهيجل وبريخت، وبازوليني وفليني وسينما الواقعية الجديدة.. ثم ينقل دفة الحديث بسرعة ليحدثهن بشجن عن تعبه وإرهاقه وعظامه المكسرة جراء نومه على الأرض وعن مسحه للمقهى في البرد وعمله المضني خلف النصبة طوال النهار أمام بيت النار وخروجه في البرد القارس بالمشاريب للزبائن.. والبنات سعيدات مبهورات فاغرات الأفواه كمن ينتظرن أن يخرج تنينا من فمه..

وكنا نحسده جميعا على سرب الفتيات الجميلات اللاتي اعتدن الذهاب إليه في مقر عمله بالمقهى، ويجلسن على مقاعد خشبية مرصعة بالمسامير، في بوفيه صغير قذر أطلق عليه تجاوزًا كلمة مقهى داخل ثنايا حارة من حارات بولاق الدكرور.. كان يخدم علينا بسرعة ونشاط وبابتسامة خلابة ويهرج مع البنات، وصاحب البوفيه مذهول وقلق من هذه الوجوه الغريبة التي بدأت تتوافد على المكان..

وكان صاحبنا أحيانا يتعمد إثارة صاحب البوفيه بأن يتجاهل نداءه أو ينخرط في الحديث مع الصديقات غير مهتم بعيون صاحب البوفيه التي تنغرس في ظهره.. حتى يتوتر صاحب البوفيه تمامًا فينادي عليه بصرخات متتالية حتى يلتفت إليه، ثم يزجره بقسوة وغباوة ليعود إلى مكانه خلف النصبة، وهنا كان وجه صاحبنا يتحول إلى وجه حزين يغالب البكاء، وينزع مريلته ويخر منهارًا على الدكة، ويلعن بهمس أكل العيش الذي يضطره لتحمل الإهانة.. وفجأة نجد أنفسنا نحن الذكور وسط دراما فيلم هندي كبير.. البنات يطبطبن عليه، ونحن نشد من أزره، وصاحب البوفيه ينهار أمام رقة الفتيات الجميلات ويضطر لتقبيل رأسه معتذرًا له عن إهانته وسط أصحابه.. كل هذا كان يجري أمام زبائن البوفيه من العمال الغلابة الذين ينظرون بغيظ تجاه صاحب البوفيه ويلسنون على جليطته وقلة ذوقه!

كانت جرأته في فضح فقر عائلته بالبحيرة حيث يعمل والده أجيرًا ويربي خمسة أولاد أكبرهم صديقنا وصراعه النفسي مع والده الذي يرغب في أن يكمل تعليمه لكنه غير قادر على الصرف عليه، وجهده وكده كي يعمل ويصرف على نفسه ويرسل الفتات إلى هناك، ثم وصفه بإسهاب لنومته أسفل سلالم عمارة بالمهندسين.. ولكي يتغاضى البواب عن مطالبته بالأجرة كان يمسح سلالم العمارة مرتين في الأسبوع وينظف سيارة صاحب العمارة كل يوم خميس، كانت هذه الحكايات التي تنهمر من فمه مع قدرته على التحكم في نبرات صوته وقسمات وجهه تفعل فعل السحر في البنات الزميلات..

كانت الهدايا والنقود تنهال عليه.. وبفضل ثقافته الجيدة الموسوعية واهتمامه بشرح ما لم يفهمه الطلاب لكل من يطلب منه ذلك بلا توان ولا استياء صار محبوبا منهم ومن الأساتذة على السواء..

أما نحن الذين كنا في عداد أصدقائه فقد كان يصرف علينا من حصيلة ما يجمعه يوميا بعزومات فاخرة داخل فنادق على النيل أو كافتيريات وسط البلد ومقاهيه.. يتجرع البيرة في صمت العالم المفكر.. يحلم بالسينما الجديدة منخفضة التكاليف.. والوجوه الشابة التي ستمد السينما بدمها الجديد.وكانت له أفكار لامعة تنهال عليه في كل وقت يقدمها لجمعية النقاد السينمائين ولنوادي السينما ولقصور الثقافة أيضا، لكنها تموت أمام البيروقراطية أو نقص الاعتمادات.. وأذكر أنه قدم مرة حلقة دراسية في أتيلييه القاهرة عن التمثيل الإيمائى بالجسد، وللأسف لم تستمر طويلا لعدم استيعاب إدارة الأتيلييه آنذاك لهذا الاتجاه.

ثم اعتاد هذه الحياة المعتمدة على الآخرين في الموارد المادية، وأصبحت حكاياته لا تخيل على الطلبة حتى الجدد منهم، فنضبت موارده وعاش كثيرا على قروض صغيرة لا ترد.. ثم حدث أمر مؤسف قبل تخرجه بشهور عندما رهن كاميرا المعهد التي كان ينفذ بها مشروع تخرجه لأحد محال تأجير الكاميرات وعجز عن استردادها.. وبعد أن ثار عليه الجميع (أساتذة وطلبة)، فإنه بابتسامته الخلابة وضعفه المريع تم حل الأزمة، وتعاون الجميع في دفع قيمة الرهن وإعادة الكاميرا إلى المعهد، واستكمل مشروعه، لكنهم احتياطيًّا عينوا حارسا للكاميرا حتى ينتهي من تنفيذ المشروع.

أدمن بعد التخرج حياة التصعلك وجعله منهاج حياته.. يكتشف نجومًا مغمورين إلى أن تنفد نقودهم، وراقصات موهومات بالمجد إلى أن يكتشفن حقيقته ويطردنه ويجرسنه.. أذكر مرة أنه دخل علينا بمقهى «أسترا» ليلا وفي يده شاب طويل وسيم.. عيناه ملونتان.. أجلسه بيننا وهو يقدمه لنا بوقار: فلان

الفلاني.. نجم السينما القادم.. وطوال الجلسة ظل يعدد في مناقب الفتى ومواهبه الفذة حتى نفدت البيرة.. (من المذهل حقًّا أن هذا الفتى أصبح فيما بعد فعلًا من نجوم السينما المصرية المعدودين، لكن دون فضل لصديقنا في ذلك).

كطبيعة الأيام تدهور به الحال وانكشفت كل ألاعيبه، واكتأب قليلا لكنه لم يفقد ابتسامته وتفاؤله، وفي يوم ما وهو يتحايل على أحدنا ليعزمه على فنجان قهوة، لمح عملاقة زنجية أمريكية تخترق ميدان التحرير وتبدو كالتائهة.. قرر أن تكون هي مغامرته الأخيرة.. واتجه نحوها فعلا وببضع كلمات إنجليزية مكسورة تشبه لغة عمال الأورنص كما يقدمونها في الأفلام القديمة، عاد بها وعرفها علينا كأنهما صديقان حميمان.. ثم اصطحبها في جولة وجولات.. وخلال بضعة أشهر كان قد تزوجها ثم سافر معها إلى أمريكا.

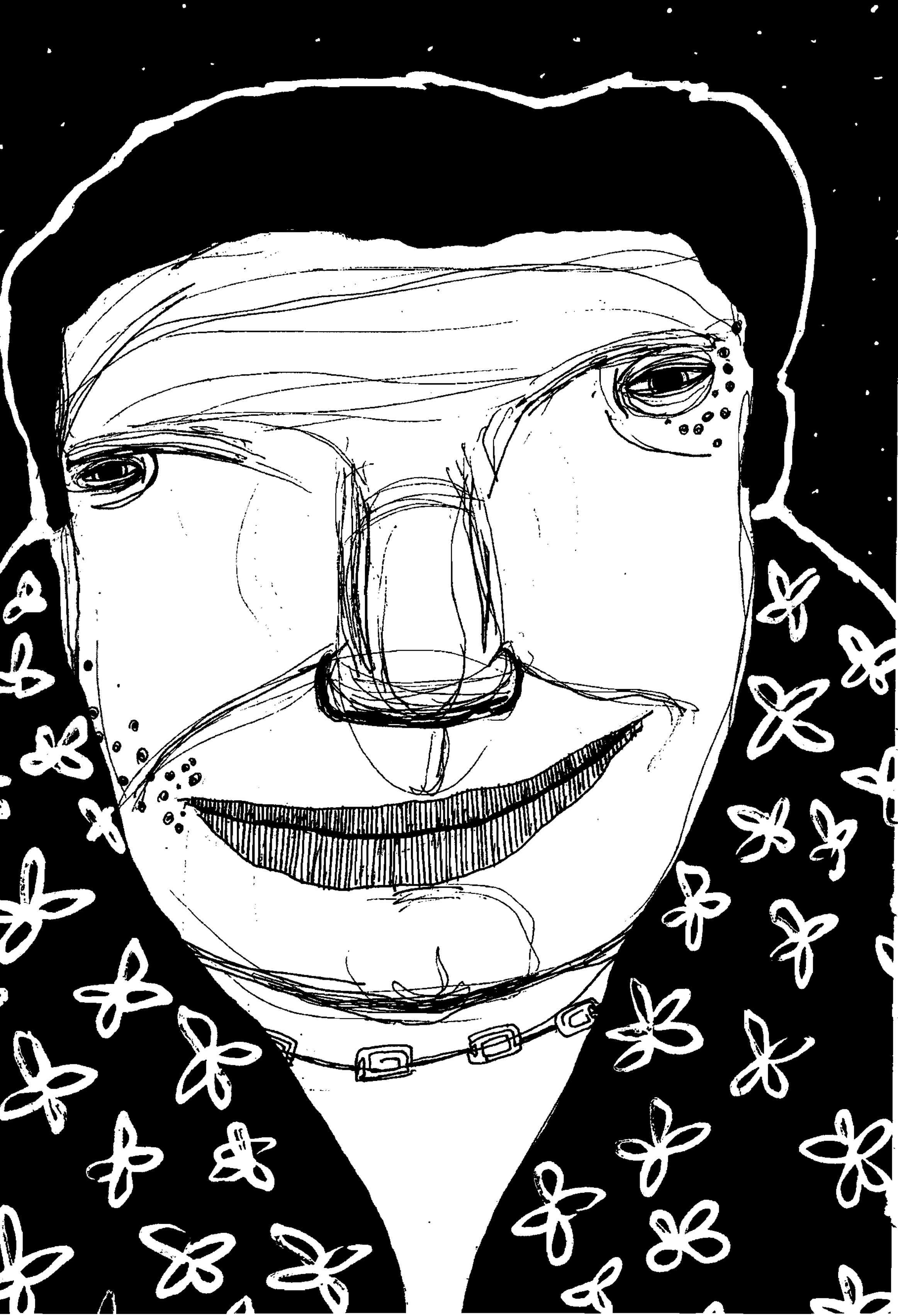
بعد سنة واحدة من سفره، وصل إلى كل مهتم بالسينما في مصر «برشور» جميل عليه «بادج» مذهب فخم خاص بإحدى الجمعيات السينمائية في هوليوود.. وخطاب مذيل بتوقيع لأحد صناع السينما الأمريكية، كان البرشور يدعو المهتمين المصريين للاشتراك في أنشطة الجمعية من خلال إرسال السيرة الذاتية لكل سينمائي مصري مهتم بالسينما العالمية لنشر سيرته في المطبوعة السنوية للجمعية التي تطبع بكمية لا تقل عن خمسين ألف نسخة وتوزع في ١٣٥ بلدًا (لا أعرف لماذا ١٣٥ بلدا بالذات، وبالتالي لا أعرف ما أسماء هذه البلاد؟)، وبذلك يتاح لكل عضو في الجمعية شرف التعريف به كسينمائي في كل دول العالم مما يضمن له إمكانات أكبر للعمل في الأفلام ذات الميزانيات المشتركة.. فقط أرسل سيرتك الذاتية وصورتك وعشرة دولارات قيمة الاشتراك لعام واحد.. وتسابق الجميع على إرسال المطلوب من أوراق ونقود...

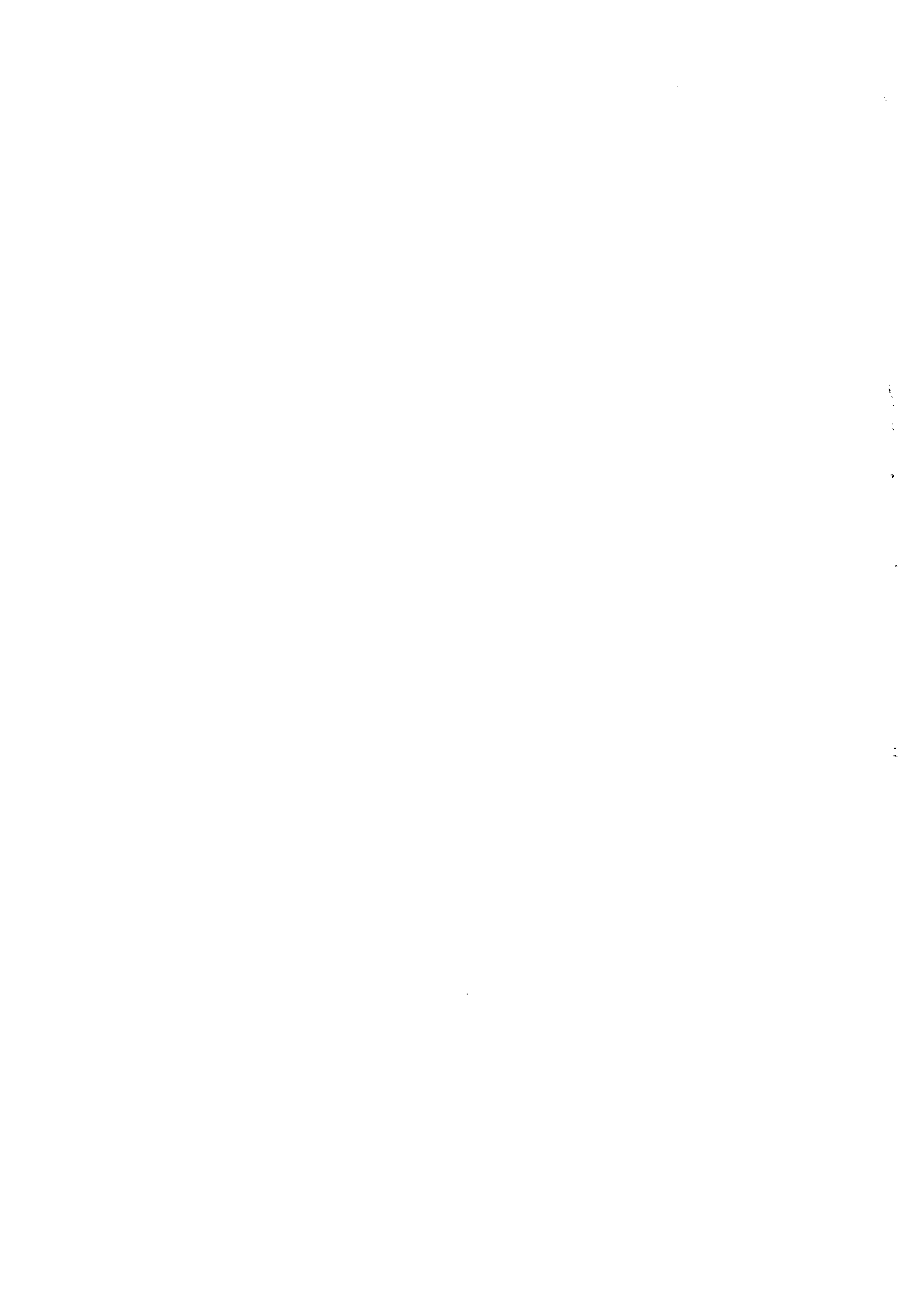
ومرت سنوات ولم ترد الجمعية حتى برسالة واحدة تقول بأنها تسلمت

النقود. ثم صادفته منذ عام بأحد فنادق وسط البلد تحيطه زجاجات من الويسكي وأطباق تطفح بالمزات.. انتحى بي بعيدا عن مجموعة رجال الأعمال التي تجالسه.. وهمس لي بمسكنته المعتادة بأنه في مصر من أمس فقط (مجرد ترانزيت). وبضرورة أن نتقابل مرة أخرى وأنه يحب هذا الفندق، ومن الممكن أن أسألهم عن مواعيد حضوره حتى نتقابل مرة أخرى.. أمسكت بيده ولم أفلتها وهمست له: «تعرف الجمعية السينمائية الأمريكية؟».. ابتسم وأسكتني بسرعة ورد لي العشرة الدولارات وهو يقول: الله كريم!

لكنه عاد منذ أشهر قليلة مستشارًا لشركة متعددة الجنسيات ومقرها الرئيسي واشنطن.. هذه الشركة مهتمة بتمويل الخلطة السحرية المتداولة حاليا في وسط البلد (إنتاج أفلام تسجيلية وروائية قصيرة ـ فنون تشكيلية ـ عروض مسرحية تجريبية ـ موسيقى بيئية وخلافه).. فيما يخص السينما هم يقدمون مبلغ ٥٠٠٠ دولار وكاميرا «ميني كام» لمدة ٦ شهور.. على أن يكون موضوع الفيلم قابلًا للاتفاق بين الطرفين.. بالإضافة إلى أن جميع خدمات ما بعد الإنتاج من مونتاج ومكساج وجرافيك سيتولون تنفيذها أو دفع تكلفتها بالكامل.. لو رفضت عرضهم وحاولت التساؤل عن جنسياتهم.. فسيأتيك تليفون من أحد مراكز الشركة بلندن.. يبلغونك فيه أنهم مهتمون بالتعامل معك بصفتك سينمائيًا فذًا وأننا في عصر الكوزموبوليتان والعولمة.. لو طنشت.. سيأتيك تليفون آخر من الضفة ـ لماذا الضفة؟! ـ الله أعلم.

رجال من قش





كنا لا نجرؤ على الاقتراب منهم رغم الفارق العمري البسيط بيننا، فقد كنا حديثي التخرج أو في سنواتنا الجامعية النهائية، وكانوا متحفظين بعض الشيء وأسماؤهم تطل علينا بين ثنايا الصحف بوصفهم فنانين صاعدين، أو نقاد سينما شبابا، أو مخرجين حققت أعمالهم الأولى نجاحًا متميزًا، أو كتاب قصة وشعراء نشرت لهم الدوريات اللبنانية والعراقية بعض أعمالهم.. قادتنا الندوات والأمسيات والنميمة الثقافية إلى أماكنهم..

وكانت كافتيريا «لاباس» ملتقى أثيرًا لبعضهم خصوصا العاملين بالمجال الفني. الكافتيريا رحبة جدًّا تطل على ثلاث نواصٍ بسرة البلد.. وكانت مكونة من دورين.. الدور العلوي ملتقى للحبيبة والعشاق، ينسلون صاعدين السلم الداخلي بهدوء، ملقين علينا نظرات عابرة.. ثم بعد استقرارهم ببضع دقائق، تعلو أصواتهم شيئًا فشيئًا حتى تصل إلى حد الإزعاج وتتخللها ضحكات أنثوية رقيعة ومثيرة، فيتوقف الناقد الشاب سامي السلاموني عن حواره وينظر إلى مستمعيه بضيق، فينبري أحدهم للزعيق بصوت عال آمرهم بالسكوت، بعدها تسمع لرمي الإبرة صدى، حتى تستقر الأمور قليلًا ويعودون لصخبهم، ثم تسكتهم صيحة وهكذا دواليك.

الدور الأرضي عبارة عن مناضد متناثرة تتصدرها منضدة كبيرة يجلس على رأسها سامي السلاموني وعلي سالم وسمير فريد وأحمد مرعي وأنس أبو سيف وكوكبة من الفنانين الشباب، وبعض الكتاب المهتمين بالمسرح والسينما.. والمناضد الأخرى عليها بعض الشعراء والقصاصين وطلبة الدبلومات العليا في الأدب أو طلبة معهد السينما ومعهد الفنون المسرحية ومعهد التذوق الفني.. أو بعض العابرين والموظفين الذين اعتادوا قضاء فترة الراحة بالكافتيريا بصحبة زميلاتهم الموظفات أو مندوبات شركات التأمين.

على طاولتنا كنا نقترب بحذر من الحركة الثقافية ونتابع بصمت، ونخجل من تقديم أنفسنا إلى بعض رموزها الجالسين من حولنا.. كنا نتحاور حول الدوريات (الفوتي كوبي) التي يصدرها بمجهود فردي رائع وبإمكانات محدودة كل من محمود بقشيش وعبدالعزيز جمال الدين وأنور كامل، أو قد نناقش قصة «العري» لجمال الغيطاني على مدى ليلتين كاملتين في النشرة التي كان ينشرها فؤاد حجازي، أو «أنا وهي وزهور العالم» ليحيي الطاهر عبدالله أو فسايل أنور كامل، وكلها إما مطبوعة بالإستنسيل الرديء أو بالفوتي كوبي.

وبعدما يخلو المكان قليلًا، أحيانًا ـ وكان هذ يوم سعدنا ـ تدعونا المنضدة الأم للانضمام إليها.. كنا نتحرك بسرعة بكراسينا وعمال الكافتيريا يلاحقوننا بالمنضدة حتى يضموها إلى المنضدة الأم.. كنا نسكت تمامًا في حضرة الأساتذة.. نستمع بإمعان ونضحك بالعدوى ولا نتدخل إلا حينما يطلب منا إبداء الرأي..

كان أداء بعض الفنانين الشبان أكثر ما يستلفت نظري في هذه الجلسة..

فعندما يتحاورون يتكلمون بصوت مستعار ويحركون قسمات وجوههم بشكل مبالغ فيه، ولا تكف أيديهم عن التحرك في كل الاتجاهات.. كأنهم يؤدون دورًا على خشبة المسرح التقليدي زمن يوسف وهبي.. وكانوا على علم بموعد خروج بنات الثانوي من المدارس وكذلك موعد خروج الموظفات.. ويتركون الحديث مهما كان مهما أو شائقًا أو كانوا هم المتحدثين.. ليقفوا أمام باب «لاباس» الذي على شارع قصر النيل حتى تراهم البنات ويشرن إليهم ويناديهم بأسماء شخصياتهم في المسلسلات أو يقتربن ويسلمن عليهم.. وكان هؤلاء الأبطال الثانويون يرجعون إلينا بكثير من الضيق والتذمر وبشكوى دائمة من أن الناس لا يتركونهم في حالهم.

في هذا الجو الفاتن جاءت «شخصيتنا» إلى المكان لأول مرة، دخل بصخب غير عادي وبصحبة إنجليزية فاتنة، وكان الذي يقوده إلى المكان محرر شاب لأحد أبواب الفن.. أجلسه بيننا على رغم امتعاض الكبار.. كان جسده ضخمًا ووجهه مستديرًا وشعر رأسه أسود فاحمًا وهيكله أقرب إلى أشكال العمالقة.. كنا في الخريف والطقس كان مائلا للبرودة.. وهو بقميصه المشجر (النص كم) وبفتحة أزراره التي تظهر شعرات صدره وبرائحته الغالية النفاذة المثيرة التي تكاد تدفع الجميع إلى طرده.. لولا أنه من بلد عربي شقيق وفي معيته فاتنة من الفرنجة، كما أن الذي أتى به صحفي له دلال على الجالسين..

تكلم هذا الشخص كثيرًا.. عن حبه للسينما وعن إمكانياته المادية وعن دراسته للإنتاج السينمائي بأمريكا.. ثم أشار إلى مساعدته الإنجليزية التي

ناولت كلا منا «كتالوجا» يحتوي على صور ملونة بتقنية عالية وكتابة باللغة الإنجليزية عن الأستوديو والبلاتوه السينمائي ومركز المونتاج الرقمي التي أقامها ببلده.. وكان هو يشرح لنا ونحن نقلب صفحات الكتالوج الإمكانات الهائلة التي وفرها لكل منها، والتي جعلت المتخصصين من الجالسين فاغري الأفواه من الدهشة.. ثم أردف بابتسامة بلا حسرة بأن كل هذه المصروفات التي أنفقها ذهبت هدرًا لأن المسئولين ببلده لم يتحمسوا للإنتاج السينمائي أو إقامة دور العرض التي تستوعب الأفلام التي يزمع إنتاجها..

لم يسأله أحد عن دراسات الجدوى التي بناء عليها أنفق هذه النفقات أو محاولاته الجدية للدفاع عن مشروعه.. وكنت أنا مشغولًا بسلسلته الذهبية التي تروح وتجيء مع رقبته عند الحركة والجنزير الذهبي الذي حول معصمه وخواتمه الكثيرة ذات الفصوص الكريمة.. كانت أضواء النيون تنعكس على كل المعادن التي على جسده فيبدو كأنه يضيء، بينما جسد مساعدته الأبيض الوردي هو الذي يبعث الأضواء بأكثر مما يستقبلها..

ثم حدث ما أدهشنا جميعا عندما قال إنه زاول مهنة المنتج السينمائي بهوليوود لعدة سنوات، وأنتج عددًا من المسلسلات التليفزيونية الغربية، وأنتج حلقات كثيرة لتعليم اللغة الإنجليزية للعرب، وعددًا من المواد الوثائقية.. وأخيرًا أنتج فيلما شهيرًا من أفلام الخيال العلمي.. كانت المعلومة صحيحة، ورأينا البوسترات المرصع عليها اسمه التي أخرجتها المساعدة من الحقيبة مع بعض أشرطة الفيديو «البيتامكس» لبعض إنتاجه.. وكنا نعرف أن إنتاج أفلام الخيال العلمي تكلفته باهظة جدًّا لدرجة أن الشركات الأمريكية نفسها لا تنتجها بمفردها.. بل تتكاتف عدة شركات لإنتاجها..

ومن هنا تحولت النظرة الساخرة إليه إلى نظرة منبهرة به وبحواديته وبكل ما ينطق به فمه..

وتحمس هو أكثر، وأصر على دعوتنا جميعًا إلى سهرة بفندق «وندسور».. تلكأت أقدامنا نحن المجهولين في الحياة الثقافية ودب فينا الحرج.. فنحن أصلًا مدعوون للجلوس من قبل الأساتذة.. لكنه أصر على أن يأتي الجميع.. ووقف على باب «لاباس» ينتقي سيارات الأجرة بنفسه ويدفع لسائقيها مبالغ مجزية حتى ركب الجميع، وركب هو بدوره خلف مساعدته التي كانت تقود سيارته الفارهة..

دخلنا إلى الفندق في شبه مظاهرة.. تناولنا العشاء الفاخر.. ثم من يشرب المشروبات العادية شربها أكثر من مرة، ومن يشرب البيرة احتساها، ومن يريد نوعًا معينًا من الويسكي ذاقه.. أما هو فبإيماءة إلى مساعدته، خرجت وعادت بعد قليل بزجاجة من «البلو ليبل» لتعذر وجودها بالأوتيل.. ظل يشرب منها ويكاد يغرد وهو يحدثنا عما سيفعله بالإنتاج السينمائي في مصر.. سيبني إستوديوهات سينمائية جديدة.. وبلاتوهات على أحدث الطرز.. وسيشتري دور عرض قديمة يجددها.. وسينتج أفلامًا بتكاليف كبيرة مذهلة وهو واثق بأن العائد سيكون مجزيا فالسوق المصرية سوق واعدة.. سيكتشف وجوهًا جديدة ويدرب الممثلين الموجودين حاليا على أحدث أساليب فن إعداد الممثل.. وسوف يغير طرق الإعلان السينمائي العقيمة مستعينا بخبرات أجنبية.

وعندما لعب السكر بأحدنا ـ ولا أذكر من ـ وقال له: ألا تخاف من نفاد نقودك على الإنتاج السينمائي؟!.. أجاب ساخرًا وبلهجة جهورية بأنه غامر

بأمواله في أمريكا وأنتج بالاشتراك مع وكالة ناسا للعلوم الفضائية ولم يخسر بل ربح ربحًا كبيرًا. هذه الثقة الزائدة المتعالية جرت واحدا آخر لتخويفه من نصابي الوسط الفني الذين قد يورطونه في مشروعات سينمائية فاشلة تؤدي إلى إفلاسه.. هنا قام المنتج السينمائي العربي ووقف موجهًا كلامه للجميع ـ نحن والنزلاء ـ كأنه في خطبة برلمانية، وقال بابتسامة المنتصر نصرًا قاصمًا: على فكرة أنا عندي فلوس لو مسكت فيها النار ١٠ سنين متوالية يفضلي منها اللي يسترني..!

سكتنا جميعًا ولم ننطق، ومرت الليلة بسلام. دخل صاحبنا بوابة الفن بدانات مدفعية ثقيلة انهالت علينا من كل المجلات الفنية اللبنانية والمصرية محملة بأخبار عنه وعن مشروعاته وطموحاته وصوره وهو يشتري ويبيع دور العرض أو يتفق ويوقع عقودًا.. ثم بأخبار عن زواجه من ممثلة شهيرة ثم راقصة أكثر شهرة، وبعدها عدد لا بأس به من زيجات قصيرة مع فنانات شابات في أولى عتبات الفن..

والتف حوله كم مناسب من مديري الإنتاج «النص لبة».. وأنتج فيلمًا أو اثنين متوسطي القيمة الفنية وبعض أفلام المقاولات.. وفي غضون ٥ سنوات فقط أفلس تمامًا.. الفلوس التي لا تقدر النار على أكلها في ظرف ١٠ سنوات.. استطاع هؤلاء الأفاكون محوها في نصف المدة.

عرفنا بعد ذلك أنه خدها من قصيرها وعاد إلى بلده، ثم سافر لبعض الوقت إلى أمريكا.. حتى توسط له أحد موظفيه السابقين للعمل بقناة فضائية موظفًا، وسمعنا أنه نسي حكاية الإنتاج نهائيًا.. لكنني رأيته بفندق وندسور بعد خمس عشرة سنة من الواقعة.. جالسًا بمفرده في زاوية قاصية من المطعم.. (يشرب

مشروبه الأثير بصمت).. رأيته خاليًا من معاونته.. جسده ما زال متماسكًا والشعرات البيض غزت جوانبه.. كان يأكل ويشرب بأرستقراطية.. ثم منح الجرسون إكرامية مجزية.. وغادر المكان بصمت.

كائنات من عالم آخر





يحدث أحيانا مرة في العمر أن تجد كائنا من عالم آخر، تتعرف عليه ويعرفك، يعايشك لأشهر أو سنوات ثم يعود إلى عالمه مرة أخرى.. وقد حدث هذا معي بالضبط.

في منتصف الثمانينيات لو شئت الدقة، لمحتها تجلس بمقهى زهرة البستان مرات كثيرة بمفردها، ومرات أقل محاطة بشلة مثقفين يصوبون كلامهم تجاه أذنها، وهي تهز رأسها مبتسمة.. لم أضبطها قط متكلمة، فقط منصتة باهتمام.. كانت بيضاء نحيلة لكن وجهها يجذب النظر بالشامة الأسمهانية التي بجوار فمها، وبالحلق الفضي المرشوق في جانب أنفها (وكان هذا غريبا جدا ومنتقدا أيامها)، وبالسلسلة البلاتينية الرفيعة التي ترتديها حول ساقها كالخلخال.

كان عم أحمد «جرسون» المقهى العجوز يتهلل وجهه بمجرد رؤيتها ويسرع على الفور لتنظيف أقرب طاولة معدنية إليها، ويجاهد كي يجلسها على كرسي خشبي خال من المسامير المدببة التي كانت تخترق ملابسنا، ثم يحضر لها كوبا نظيفا وزجاجة كولا، يصب بعضها في كوبها وهو شديد الترحاب بها، وبين الحين والآخر يترك زبائنه ويذهب إلى نهاية الممر حيث أجلسها بعيدا عن الفضوليين، يجالسها قليلا ويخبرها بنكات تضحك لها كثيرا من القلب.. وكنت أعتقد أنها تغافله حين تضع بضع قطرات من زجاجة الويسكي الصغيرة

التي تخبئها داخل حقيبتها في كوب الكولا بعد أن تنظر نظرة عابرة تجاه رواد المقهى.. لكني اكتشفت أنه يعرف ذلك ويقاسمها مشروبها خلسة.. وكانت تنصرف بسرعة كأنها تضع لكل شيء ميقاتا..

ثم بدأت تشاركنا سهراتنا الليلية بـ«روف» فندق الأوديون بوسط البلد.. كانت تجلس عن بعد تستمع إلى أغانينا وموسيقانا وقصائدنا ونقاشنا الفني والسياسي.. ولم أجرؤ حتى تلك اللحظة على التقرب منها، أو محاولة التعرف عليها، على رغم أنها أحيانا كانت تجلس بين نقاد في الأدب أصدقاء، وزملاء قصاصين وشعراء وفنانين تشكيليين، وقد اتفقوا جميعا على أنها جميلة ومثقفة، واختلفوا في تعريف هويتها.. منهم من أكد أنها شاعرة كانت تقيم بأوروبا وعادت إلى مصر كي تفجر موهبتها الشعرية، ومنهم من قال إنها تستعد لاجتياز اختبارات القبول بالتليفزيون للعمل مذيعة، ومنهم من قال إنها مصممة أزياء أو تاجرة تحف، وبعضهم ادعى أنها درست السينما بالخارج وعادت لكي تطبق ما درسته هناك..

اشتدت رغبتي في معرفتها.. واستبعدت التودد إليها مباشرة فأنال توبيخا مرًّا.. وبدأت أتجنب رؤيتها حتى لا أتذكرها وتزيد الرغبة. ثم حدثت معجزتي الشخصية (بفرض أن لكل شخص معجزة صغيرة تحدث له كل بضع سنوات). كان الشتاء قد هبط فجأة ونحن بـ«روف» الأوديون، ولم أكن مرتديا غير قميص خفيف فقررت المغادرة على الفور قبل أن تحل الساعة العاشرة مساء. أوصلني المصعد إلى بهو الفندق حيث فوجئت بها جالسة تبكي بتشنج وحولها موظف الاستقبال يواسيها ويطيب خاطرها.. لم أترك الفرصة تفلت من يدي وتقدمت نحوها أسألها عما حدث.. نظرت إلي بعين دامعة ولم تجب.. تدخل موظف الاستقبال وفسر لي الأمر بسرعة:

كانت بصدد إيقاف تاكسي بشارع طلعت حرب أمام كافيتريا «ريش».. لفتت إليها نظر بعض الخرتية (الذين يعرضون على السائحين خدماتهم نظير أجر مادي أو معنوي).. بدءوا يحاولون التحدث إليها وهي تهملهم.. استفزهم موقفها فتحرشوا بها بغلاسة تحت تصور أنها سائحة إسبانية ترفض صداقتهم، ولم يتدخل أحد لنهرهم بحكم أنه أمر عادي.. توقف لها تاكسي فدخلت به بسرعة وتصورت أنها آمنة فسبتهم.. استفزوا وتحركوا بسرعة وأسرع أحدهم بالوقوف أمام التاكسي ليوقفه، وأخرجها آخر من التاكسي ولطمها بعنف على وجهها، وتجرأ ثالث ونزع سلسلتها البلاتينية من ساقها، ثم ألقوها داخل التاكسي وجروا وانشقت الأرض وبلعتهم. كانت لم تكف بعد عن البكاء عندما حكى لي الموظف الواقعة..

سألتها: ألم تبلغي الشرطة؟.. لم ترد وأجاب عنها الموظف بأنها عملت محضرًا بقسم عابدين وأخبروها بأنهم في غضون أيام قلائل سيأتون بمن هاجموها ويستدعونها للتعرف عليهم.. كنت أعرف ضابط شرطة كبيرًا أيامها له ميول أدبية ويحب كتابة الشعر ومجالسة المثقفين والتعرف عليهم، وكان قد طلب مني مرارًا مساعدته في نشر قصائده بالصحف والمجلات الأدبية.

سحبتها من يدها وهي مذهولة وذهبت بها إلى مديرية أمن الجيزة، حيث يعمل صديقي الذي أدخلنا مكتبه وسط ترحيب مبالغ به، ونالها من الترحيب جانب حين عرف أنها مثقفة زميلة.. ظل يستمع إلى قصتها بهدوء.. وبمجرد أن انتهت رفع سماعة التليفون محدثا مأمور قسم عابدين بمشكلتنا وأوصاه علينا.. ثم أمر سائقه الخاص بإيصالنا إلى قسم عابدين، وهناك عاملونا بأهمية شديدة بطريقة مبالغ فيها.. وفي غضون نصف ساعة فقط

كان الأولاد الذين هاجموها مشرفين أمامنا يتلقون الصفعات والركلات من كل جانب ويتوسلون إليها كي تعفو عنهم!

بعد أن استردت سلسلتها وردت إليها كرامتها ظلت تنظر إليَّ طويلا كالمخلص. تعشينا عشاء فاخرًا بمطعم كبير وكانت تتوقف عن الأكل كثيرا لتتأملني وتعاملني على أنني «سوبر مان» الذي أنقذ كوكب الأرض من الفناء! وكنت مرتبكا جدا ومتعبا، ولا أصدق أنها تجالسني وتأكل معي ولا تتوقف عن الاستماع إلي.. وبطريق الخطأ أسندت كوعي وذراعي على طاولة الطعام لأريحهما.. ويبدو أن ذلك وترها لسبب لا أعلمه، لأنها سألتني مفتعلة الخوف: «إنت بتعرف في السحر؟!».. نفيت بالقطع، لكنها أكدت لي أني ساحر وأن معنى وضع يدي هكذا على المائدة أن تكون تحت سيطرتي، وأنها طيلة جلستنا لم تكف عن التفكير في..

يبدو أن هناك مسارًا تريدني أن أسير فيه، وقالت لغوا كثيرا حول السحر، والطاقة الإيجابية والسلبية، وأكدت أن طاقتينا تلاقتا ولم تتنافرا. ابتسمت ولم أستطع أن أجاريها في الغيبيات.. فاستطردت تحكي حكايات طويلة عن السحر والسحرة، وكيف أن ساحرة إسبانية عملت لها عملًا لم يفكه إلا شيخ مغربي معمم.. وأخرجت من محفظتها الجلدية صورة له أرتني إياها وهي حريصة على ألا أبقيها في يدي طويلا.. ثم عرضت علي أن نكمل السهرة ببيتها، فدهشت جدا ورحبت طبعًا وأنا لا أدري أنه بآخر بلاد المسلمين حينذاك (منطقة الحي العاشر بمدينة نصر وكانت منطقة خالية من السكان تقريبا)..

بالطريق قالت أشياء مشجعة مثل أنها تعيش بمفردها منذ عودتها من إسبانيا، وأنها اشترت هذه الشقة حديثا لأن المستقبل لهذا المنطقة.. كانت شقة صغيرة عبارة عن صالة ملحق بها بلكونة صغيرة وغرفة للنوم ومطبخ

صغير وحمام أصغر.. وكانت الصالة في غاية الفوضى بعلب البيرة الفارغة الملقاة في كل مكان والتي اتخذت من بعضها طفايات للسجائر، وخداديات النوم المبعثرة في كل مكان، والكتب التي تضعها أسفل المروحة.. أفسحت لي مكانًا لأجلس، ثم أشارت إلى باب الشقة الخشبي وقالت إنها كل يوم عقب صلاة المغرب تسمع خبطًا على الباب وتجد قطًّا ضخمًا يرتدي حذاءً جلديًّا ينظر إليها بإعجاب ثم يختفي.. ابتسمت، فاضطرت للابتسامة وهي تقول: «طبعا مش خايف عشان إحنا دي الوقت بعد المغرب!»...

ثم أدخلتني بلكونة الصالة فوجدت قفصا للعصافير لكن لا يوجد بداخله عصفور واحد، كان الموجود بالقفص شيء مذهل.. غراب لونه أسود غطيس بمجرد أن رآها انتفض من نومته ورفرف بجناحيه، رمت إليه من ثغرة بأعلى القفص سائل بيضة نية مباشرة داخل طبقه، وبمجرد أن غرس منقاره في الطبق تركته وأغلقت البلكونة.. قالت لي إنها اشترته وعمره أسبوعان وربته في قفصه الذي كانت تضعه داخل غرفة نومها، لكنها فوجئت بأنه بعد أن كبر، كان يتأمل جسدها يشبق وهي تخلع ملابسها، وكان ينعق كلما انكشف شيء مثير من جسدها، وأنها أرادت يوما أن تختبره وتتأكد من ظنونها.. كانت تنظر إليه عبر المرآة وهي تخلع ملابسها وترى جحوظ عينيه يزيد كلما اقتربت من العري، مما جعلها تقرر خلع ملابسها كلها وتصبح عارية كما ولدتها أمها.. وبمجرد أن أصبحت عارية تماما، انتابه الجنون فظل ينعق ويصرخ ويطير داخل القفص مصطدما بأركانه ضاربا بجناحيه أسلاك القفص المعدنية في جنون حتى أدمى ريشه!.. وهذا هو الذي اضطرها إلى عقابه وتركه يعيش ليلا ونهارا في البلكونة وحرمانه من جنة غرفة نومها.

دخلت بي غرفة النوم وهي تهمس لي بأن هذه الغرفة كانت غرفة بنات حتى

الليلة الماضية، وأنه لم يدخلها رجل سواي إلا في هذه اللحظة.. أجلستني على طرف السرير.. ثم سألتني ماذا أحب أن أسمع.. وعندما قلت فيروز ابتسمت ووضعت شريطا بالمسجل. وظلت تسامرني فترة.. ثم انتبهت لشيء غير موجود، ظلت تبحث عنه بعينيها في كل أركان الغرفة.. ثم نهضت وانحنت وظلت تنظر أسفل السرير وتنادي بهمس: صفاء.. صفاء.. ويبدو أن لا أحد أجابها، لأنها نهضت وجلست بجواري، وهي تقول بتنهيدة: «عليها حركات صفاء دي.. مبتقعدش في حتة!»، سألتها بدهشة: «مين صفاء دي؟!»..

ضحكت وتحركت باتجاه دولاب غرفة النوم، وفتحته على مصراعيه وأشارت بيدها إلى مجموعة من قمصان النوم، وهي تسألني: بتحب أي لون؟ وجدت نفسي أجيب بتلقائية: «الوردي»!، ضحكت بصخب وهي تقول: «والله كنت عارفة أنك حتنقي اللون ده»!، كانت تخلع ملابسها أمامي بلا حرج كأننا متزوجان من ربع قرن.. وكنت غير مشغول بمفاتنها بقدر انشغالي بمن هي صفاء؟! أعدت عليها السؤال.. كانت قد خلعت بلوزتها وبانت مفاتن صدرها.. مدت يدها تجاه الرف العلوي من الدولاب، وأزاحت بأناملها صفحة جورنال كانت تضعه أسفل قمصانها المكوية، وجذبت بعض الصور.. ظلت تقلبها بين يديها بسرعة، حتى استقرت على صورة، أخرجتها من بين الصور، وناولتني إياها.. وأنا أتأمل الصورة زاحمتني في السرير وظلت تنظر إلى ما أنظر إليه.. كانت الصورة لها وهي جالسة بالصالة تضع قدما فوق قدم وعلى راحة كفها اليسرى ترقد حرباء كبيرة طولها أطول من راحتها.. كانت الحرباء مستكينة هادئة تنظر إلى من يصورها باهتمام.. ضحكت وقالت: «هي دي صفاء.. اشتريتها من سوق الحمام بتاع القلعة من سنة.. دي حبيبتي ومباستغناش عنها!»..

لم أستطع النطق.. وأهملتني هي تماما وخلعت بنطالها ولبست قميصها الوردي.. وعندما نظرت إلي ووجدتني شاردا، بان على وجهها الكدر وقالت: «إوعى تكون بتقرف من الكائنات الرقيقة دي!».. قلت لها: «أنا مندهش فقط»!، ربتت على ظهري وقالت: «كويس أنا من أول ما شفتك قلت إنك إنسان حساس».. ثم غيرت شريط فيروز بشريط رقص بلدي ورقصت لي طويلا، وهي تتعمد الاحتكاك بي وإثارتي!

كنت مشغولا بها وغير قادر على تحليلها، لكني أقنعت نفسي بأنها تريد إخافتي قليلا حتى لا أتصور أنها سهلة وحصلت عليها من أول لقاء.. بعد الرقص وتناول بعض المقبلات والمشروبات أصبحت هادئة تماما وهي تحكي لي عن الكوابيس الكثيرة التي تطاردها في النوم وتجعلها تهجر بيتها بالأيام وتبيت في الفنادق.. ثم رفعت المخدة وأرتني مصحفًا صغيرا عليه سكين كبير قالت إن شيخًا أخبرها بأن هذا هو ما سيمنع الكوابيس من مطاردتها.. ثم تحركت بسرعة وغيرت الشريط بشريط «سلو» وجذبت يدي لمراقصتها..

كنت في حلم طويل لا أصدقه.. كانت تخلع قطعًا من ملابسها ونحن نرقص وتلامسني بعريها، ثم جذبتني إلى سريرها..

عندما احتضنتها بشدة، همست في أذني: «على فكرة يمكن صفاء تيجي في أي لحظة!».. كنت قد نسيت موضوع صفاء فسألتها بدهشة: «صفاء مين؟!».. أجابتني باستنكار: «صاحبتي إنت لحقت تنساها؟.. اللي كانت معايا في الصورة». ابتسمت وضممتها أكثر وقلت: «أهلا وسهلا بها».. هدأتني قليلا وهي تتكلم بهدوء مثل الأم وهي تنبه ابنها: «على فكرة هي بتتلون زي المحيط اللي هي عليه.. يعني لو نطت على السرير حتبقى لون الملاية، ولو نطت على

الخدادية حتبقى مشجرة زيها».. ضحكت، وقلت لها بحسم: «أنا خدت أحياء في الثانوية العامة، متقلقيش مش حاخاف».. استطردت وهي تقرب منها قبضة يدي وتقبلها: «بس صفاء مختلفة لو نطت على جسمي.. حتبقى زيي بالظبط.. يعني يمكن تيجي تبوس خدي تلاقي نفسك بتبوس صفاء.. أو تمسك صدري تلاقيه طلع في إيدك ويكون هو صفاء...»! ضحكت كثيرا وبصخب من هذه الفكرة، فانكفيت عليها وأنا أقول: «ماشي مانا بحبك وباحب صاحبتك صفاء»..، قالت باستسلام: «أديني قلتلك»!

ظللت فترة مأخوذًا ومنتشيًا بجسدها وحركاتها المثيرة.. وفي اللحظة التي تتم فيها مناورات الطيار الحربي ويجد هدفه ويقرر ضربه.. في هذه اللحظة بالذات وجدت شيئًا باردًا وصلبًا خلف رقبتي! التفت وتجمد الدم في عروقي..! كان حد السكين اللامع يكاد يجز الرقبة وكان وجهها شمعيًا جدًا وكانت تصرخ في: «أنت فاكرني سهلة عشان خدمتني خدمة.. عايز تمنها؟!»..

وتوقف الكلام تمامًا بحلقي.. وشل جسدي كله! وفجأة وجدتها تضحك وتسحب سكينها لتضعه أسفل الوسادة وهي تقول بهدوء: «أنت خفت؟!».. لم أرد بالقطع.. فقالت بشفقة: «تلاقي دمك نشف.. استريح شوية وقوم غير شريط الكاسيت».. نهضت بفعل حلاوة الروح.. وأوهمتها بأني أغير الشريط وأنا أدس الحذاء بقدمي، ثم سحبت باقي ملابسي وجريت بسرعة تصاحبني ضحكاتها الهيستيرية في مدخل الشقة وعلى سلالمها وطوال الطريق..

اختفيت عن المنطقة لمدة عدة أشهر أو أكثر.. وعندما عدت علمت أنها اختفت ولم تعد تظهر مرة أخرى بوسط البلد.. عندما تذكرتها أخيرًا وسألت عنها أصدقائي وزملائي الذين كانوا يجالسونها لم يتذكرها أحد.. وعندما

ألححت في السؤال عنها نظروا إلي بتشكك كأنني أتكلم عن شيء خرافي لم يحدث قط بمنطقة وسط البلد، مما جعلني أظن أنها عادت إلى عالمها بعد أن تجسدت لي وحدي.

الدكتور جلال





تحس أن وجهه وجسده من منحوتات المثال العظيم «هنري مور».. بلون وجهه البرونزي الكالح إلا من بعض البقع التي تقترب من السواد أسفل عينيه وعند حدود ذقنه.. وسكوته الدائم مع ثبات بؤبو العينين يقربه أكثر إلى حالة الجماد.. لكن يديه وقدميه في حركة دائمة.. قبضته اليمنى المرتعشة يمسك بها فنجال القهوة الصيني المخصص له وحده دون زبائن المقهى، ويده الأخرى كوعها يرتكز على مسند كرسيه البلاستيك وراحتها تمسك بطبق الفنجان، كلما ارتشف رشفة من القهوة وضع فنجاله على الطبق ويظلان يرتعشان بصوت خفيض مقلق..

أظافره صفراء من أثر السجائر الكثيرة التي يدخنها في اليوم.. سيجارة من سيجارة وفنجال من فنجال.. لم أر في حياتي أحدا يشرب كمية القهوة التي يشربها والتي تتجاوز عشرة فناجيل في الوردية (٨ ساعات).. وقد رأيته مرة يحاسب على سبعة عشر فنجانًا في وردية.. فمه دائمًا صامت ومنفث للدخان ولك أن تتخيل كمية ما يدخنه هذا الشخص.. وأحيانًا كثيرة يلقي في جوفه ببعض الأقراص الدوائية ويبلها بشفطة مياه.. لم يضبط قط متضايقًا أو مبتسمًا إنما يُلفَى شاردًا على الدوام..

عرفت فيما بعد أنه طبيب أسنان.. يدعي جلال.. وأثنى كثير من أصدقائنا على مهارته في مهنته بعد أن تطفلوا عليه في المستشفى الحكومي الذي يعمل به.. وخدمهم في أسنانهم أنواع الخدمات كافة من حشو الضروس والخلع وأحيانًا التركيبات مجانًا...

جلسته دائمًا بداخل المقهى الضيق لأن النصبة تأكل ربع المكان ورصّات الكراسي والمناضد الإضافية تأكل الربع الآخر.. والمكان بالداخل خانق.. ولم يجلس الدكتور جلال مطلقا في الشارع أو في الممر المقابل حتى لو كان الوقت صيفًا حارًا فظيعًا يجبر عامل النصبة ذاته على عمل المشروب، ثم الخروج سريعًا ليقف بالخارج متقيًا حر جهنم بالداخل.

كان لايحتك بالمثقفين ولا يأبه لإنجازتهم.. إذا ما أراه أحدنا قصيدته المنشورة بالصحف أو قصته، اضطر مجاملة إلى التحديق فيها بعين عمياء باردة ثم لاتعليق.. لم يكن يتحرك قط إلا داخلًا أو خارجًا.. أو عند حضور خادمته النوبية البدينة التي كانت تأتيه يوميًا صباحا، في الأيام التي تكون فيها ورديته بالمستشفى ليلًا.. تقف السيدة أمام المقهى.. إن رآها هرع إليها سريعًا كالطفل الذي طال اشتياقه لأمه.. وإن كان في شروده السرمدي ونبهه عامل النصبة لحضورها.. اندفع إليها كالأهوج واصطدم في طريقه بالكراسي، أو حطم فوارغ الشيشات أو قلب المناضد المعدنية الصغيرة بما عليها من مشروبات.. كأنه يعاقب نفسه على تركه للعجوز تنتظر بالخارج..

كان كريمًا وسخيًّا على كل عمال المقهى فكانوا لايعبئون بما يخلفه من خسائر، فهو يعوضهم دائمًا عما لحقهم من أذية مادية.. يقبل على خادمته العجوز وبكل حنان يتناول منها التفاحة أو الموزة أو أي نوعية فاكهة تحضرها له معها بالإضافة إلى لفة السندوتشات.. تظل تلح عليه وتحلفه أن يأكلها وهو يعدها بابتسامة، ويظل ينظر إلى ظهرها حتى تختفي من أمامه كأنه حارسها الأمين.. أحيانا يأكل ساندويتش أو قضمة منه وغالبًا ما يهدي اللفة كلها لعامل النصبة أو عامل الأرضية الذي يخدم عليه..

علمت فيما بعد أنه وحيد والديه.. توفي والده عقب امتحانات الثانوية العامة ولحقت به أمه في سنته الأولى في كلية الطب.. وتركاه في الشقة، الكبيرة الباردة مع خادمته النوبية التي ربته صغيرًا.. هذه السيدة العظيمة ظلت

معه ولم تتخل عنه، وساندته ضد طمع أقاربه في الشقة وأفسدت مؤامراتهم في الإقامة معه بدعوة متابعة تعليمه، بينما هم يجهزون العدة للاستيلاء على أمواله وإرثه.. لحسن حظه أنهم كانوا أقارب بعيدي الصلة، واستعانت السيدة بجار محام وقف معهما ودحر الغزاة.. واجتاز الدكتور جلال سنواته الدراسية وأصبح طبيبًا.. لكن يبدو أنه لم يعبر أزمته الكبرى بوفاة والديه وهو في سن مبكرة.. كان يبدو كالطبيب الناسك.. الحالم.. غالبًا في كون آخر اتخذه بديلًا عن كوننا الراهن...

لي موقف معه في بداية تعارفي عليه.. تعارفي عليه يعني أن ألقي إليه بالسلام ويرده أو لا يرده ليس مهمًّا.. شكوت من ضرس ينقح علي، فاقترح صديق أن أريه للدكتور جلال عله يكتب لي مضادا حيويًّا أو مسكنا.. استبعدت الفكرة لكن صديقي ظل يلح والألم يشتد علي، وأغراني بحكايته عن سحر يد الدكتور جلال عندما عالجه بسهولة ودون ألم وجعله لم يعد يشكو من أسنانه قط..

لم يهتم الدكتور جلال بفمي المفتوح أمامه داخل المقهى، فقط سلمني الطبق وفنجان القهوة.. حتى لاتندلق، وجذب قلما من جيب بدلته، وعلى ورقة صغيرة كتب اسم المستشفى الحكومي والطابق الذي يعمل به.. وطلب مني أن أذهب إليه في المساء لفحص أسناني كلها...

ذهبت إليه طبعًا لأكثر من سبب.. أولها ضيق ذات اليد أيامها ونحن خريجو جامعات لم نعمل بعد.. وفضولي الشديد الذي يلازمني منذ الطفولة والذي كاد يودي بي كثيرًا.. نسيت أن أذكر لكم أن الدكتور جلال كان من هواة ارتداء البدلة الكاملة ورابطة العنق حتى لو كنا في عز الولعة، وكان يومها العرق يبلل البدلة من إبطيه مكونًا خيوطًا من الملح تضيء في سواد البدلة الكالح..

تخلى عني صديقي ورفض الذهاب معي إلى المستشفى كأنه يعلم ماذا سيحدث.. وذهبت متصورًا أن الطابق الرابع في المستشفي الحكومي العريق يعني مركزًا متميزًا، واكتشفت أنه يعني السطح، وأن المصاعد تتوقف في الدور

الثالث، والسطح به غرف الأرشيف ومخازن المستشفى، وأن في نهاية السطح غرفة تبدو كغرف الغسيل المخصصة للمبنى كله كالمتبع في مباني وسط البلد قديمًا.. هذه الغرفة بالذات هي موقع الدكتور جلال بهذا المستشفى الحكومي العريق.. ولكي تصعد إلى السطح هناك باب خشبي صغير يجب أن تجتازه كي يقابلك درج معدني ضيق.. تصعد عليه وأنت تتفادى الشاش الملوث بالدماء وخيوط الجراحة الدقيقة وقطع القطن المبللة بالميكروكروم وصبغة اليود الملقاة في كل مكان..

بمجرد دخولي السطح هبت ممرضة كانت تجالس زميلتها وهي تقضم رغيف كشري.. سألتني وفمها يكاد يقذف بحبات الرز في وجهي:.. عايز إيه يا أستاذ؟.. سألتها عن عيادة الدكتور جلال، أشارت إلى نهاية السطح وهي تتفحصني بدهشة، وزميلتها تقلب شفتيها استهانة بي أو الدكتور ـ الله أعلم ـ قابلني الدكتور جلال بحياد، ولم يشغله أني أتفحص بدقة البالطو الأبيض الذي يرتديه والمبقع ببقع مربى وبيض وقهوة.. والمنفضة المملوءة بأعقاب السجائر التي تتوسد مكتبه..

كان المشهد بكامله عبثيًا.. جدران الغرفة مزينة بالشروخ.. وتتدلى من السقف لمبة كهربائية كبيرة على كرسي الخلع مباشرة.. وكرسي الخلع أسوأ من كرسي حلاق المناطق الشعبية.. وهناك آلة وحيدة لخلع الأسنان وبعض القواطع المعدنية الملقاة بإهمال.. وبجوار الكرسي حوض مياه صغير لزوم غسيل الفم بعد الخلع.. لم يكلف عامل المرمات نفسه بإضافة بعض الأسمنت الأبيض أو الجبس إليه ليجعله مقبول المنظر بعض الشيء..

باختصار لو كلفنا مدير إنتاج حرامي يسرق الكحل من العين، وكانت ميزانية الفيلم هي ميزانية أفلام المقاولات، بالبحث عن عيادة طبيب متواضعة بمنطقة شعبية لم يكن سيعرض علينا غرفة في مثل هذا السوء..

لم يكن أيامها قد انتشر هوس التعقيم وفوبيا النظافة.. وعلى رغم ذلك

جلست أبسمل وأحوقل طيلة جلستي على هذا الكرسي العجيب.. وللحقيقة والتاريخ كان دكتور جلال يرتدي قفازًا كاوتشوك في يده وهو يدق على كل ضروسي وأسناني بآلة غامضة لم أتبين ماهيتها لأني بالفعل كنت مغمضًا عيني.. صرخ في الممرضة فأتت بعد فترة وآثار الكشري ما زالت حول جوانب فمها.. طلب منها أن تحضر بسرعة Rabber dam.. نظرت إليه الممرضة طويلًا.. ثم قالت: «حاضر».. تفحص الدكتور جلال أسناني كلها باهتمام وأنا منشغل بوضع خطة للهرب.. همَّ بمناداة الممرضة فسألته عن السبب.. فقال لي: «أصلها تأخرت في إحضار «الربردام».. وكمان أصل أنا عايز آخد عينة من لعابك عشان أحللها وأكتبلك المضاد الحيوي المناسب»..

وكانت هذه هي الفرصة الذهبية للهرب متعللا بأن الألم هدأ وبأني سأحضر له عينة من لعابي في مساء الغد.

غادرته فارًّا بجلدي، وعندما سألت أحد أصدقائي من أطباء الأسنان بعدها بفترة طويلة عن الـ Rabber dam وأهميته.. ضحك طويلًا وقال إنه شيء لايستخدم إلا في عيادات لندن وباريس وعيادات السوبر ستار.. وأنه بالقطع لن يوجد في المستشفى الحكومي حتى لو كان يديرها وزير الصحة بنفسه..

كبر الدكتور جلال ولم تتغير عاداته ولم تتبدل أحواله.. دائمًا في صمته الأبدي والسمت الصوفي..

لكنه في الفترة الأخيرة لم يعد يظهر بالمقهى، وتصورت أن شيئًا ضايقه من المكان فاستبدله.. لكني رأيته أخيرا يدفع كرسيا بعجل تجلس عليه خادمته العجوز بعد أن أصابها الشلل ساعة العصاري، وكان يتوقف ليزيل قطع الحجارة من أمام الكرسي.. أو يطبطب على رأسها.. أو يميل عليها برأسه ليقول لها كلاماً في أذنها.. أو يناولها قسرًا شريحة من التفاح وهو يصر على أن تلتهمها أمامه..

أحب هذا الرجل الذي أهمله التاريخ فصنع تاريخه الخاص.


أول مخبر هاو في التاريخ





هي حكاية طريفة ودالة حدثت في عهد الملك نفر كا رع أو في عهد الملك بيبي الثاني (٢٢٤٦ ـ ٢١٥٢ق.م) ومذكورة في البرديات التي تناولت هذه الحكاية، وتقول إن رجلًا عاديًّا من ممفيس عاصمة الدولة القديمة... اشتم رائحة علاقة مثلية بين الملك وقائده، فتتبعهما ذات يوم وهما يسيران متجاوزين النصب الجنائزية وحدائق ممتلكات الملك بيبي، حتى دخلا منزل القائد ساسنت (الذي يخلو منزله من زوجة على حد تعبير البردية)... تلصص عليهما الرجل فوجد الملك يعتلي الجنرال ساسنت.. وعندما انتهى من متعته خرج من البيت تجاه قصره...

لم يكتف هذا الرجل بأن يكون أول مخبر هاو في التاريخ يتلصص على ملكه وقائد جيشه... إنما ذهب إلى مجلس ممفيس ليقدم شكواه ضد الملك وقائده... وفي حضور ياور الملك وياور المجلس والناسخ الملكي ومساعد ناسخ الوثائق الملكية والمشرف على الحقول وحاشية الملك... والمشرف على المحكمة... وأمام كل هؤلاء وقف الرجل يقول شكواه في حق الملك... لكن بطانة الملك أمرت المغنين بالغناء، والموسيقيين بعزف الموسيقى، والمهللين بالتهليل، والمصفرين بالتصفير حتى يغطوا على صوت الرجل فلا يسمع... وفعلا انصرف الشاكي من ممفيس من دون أن يستمعوا إليه... وهو يبكي بكاءً مرًّا وينزع شعره بيده...

لكن على رغم ذلك فعلت هذه الشكوى فعلها بعد حين... عندما ذهب النبيل جيتي ابن هنت خلف الملك الإله ليرى ما يفعله وتلصص عليهما أيضا، وأدرك أن شكوى الرجل حقيقية.. وأجبر الملك على إنهاء العلاقة وإلزامه بسلوك أكثر حشمة...

القراءة البسيطة لهذه الحكاية تدل على أن في مصر القديمة لم تكن هناك قدسية للملك الإله ولا تعاطف مع سلوكه، وأن المثلية الجنسية كانت تعتبر انحرافا عن المعايير المثلى للحياة العائلية، مثلها مثل الزنا... وأن بلاط الملك والحكام على مدى التاريخ محتشد بالمطبلين والمزمرين والمصفرين الذين يريدون طمس الحقائق.

كان لنا زميل إذا أقبل عليك فإنه لن يفلتك لحظة، وإذا أدبر عنك فإنه سيتجنبك في كل مكان... يختار أصدقاءه طبقا لمعادلات رياضية ومعايير ثابتة ويخضعهم دوما للاختبارات. فإذا دعاك إلى العشاء ببيته أقام لك مأدبة ضخمة وعرفك على زوجته وأولاده وصمم على تذوق كل طعام بمأدبته.. وعقب شرب الشاي والمشروبات سألك عن الموعد المناسب الذي تريد فيه دعوتهم إلى منزلك للعشاء... طبعًا ستحدد موعدًا قريبًا وستحضر عشاءً أفخر وستدخل معه في سباق لا متناه...

عزمني الأخ سمير على الغداء... ونسيت الموعد فوبخني في الهاتف وصمم على حضوري.. دخلت أقرب محل حلويات وانتقيت علبة دفعت ثمنها وأخذتها معي، كانت هذه أول غلطة.. تناولها مني بمدخل الشقة وهو يقول بابتسامة: ما كانش فيه داعي... المدام عامله حلويات بإيدها أتحدى لو يعمل زيها أكبر محل حلويات في مصر... ثم نادي على زوجته لتسلم عليّ وأعطاها العلبة وهو يقول: عايزك تحطي منها ومن الحلويات اللي أنت عاملاها عشان الأستاذ يدوق ويقارن...

ثم أمر لنا بالقهوة، وظللنا نتبادل الحديث حتى دق جرس الباب ودخل ابنه الصغير في حدود الثماني السنوات وأخته الكبرى في حدود العشر السنوات... اندفع الطفلان لتقبيله واحتضانه لكنه نهرهما وأمرهما بتحيتي أولًا... كانت الزوجة بعد أن فتحت لهما الباب واقفة تنتظر أن ينتهيا من التحية ويدخلا معها إلى الداخل، لكنه بإيماءة من رأسه أشار لها إلى الداخل وهو يقول: شوفي الفرن.. مش عايز المكرونة يطلع وشها ناشف زي المرة اللي فاتت.. هرولت الزوجة إلى الداخل، بينما جلس الطفلان أمامنا..

سأل الطفل الغارق في كرسي الفوتيه الضخم: «عملت إيه النهاردة في المدرسة»؟ نكس الطفل رأسه وعينيه وظل يسرد وقائع اليوم والحصص الدراسية غيبًا.. شخط فيه: «والأولاد زمايلك ما حدش ضايقك منهم.. أو غلس عليك.. أو اترازل..؟ ما حدش منهم لطش مقلمتك ولا شخبطلك على الكتب»؟! قال الطفل برعب: «ما حدش يا بابا».. قال الأب بصوت أجوف: «فين البلوك نوت اللي مدهولك»؟ أخرجه الطفل بسرعة وأعطاه للأب الذي تفحصه ووجد ورقه أبيض ناصعا لم يكتب عليه أي شيء.. فزاد غضبه وهو يقول: «أمال مديهولك ليه؟!... أنت فاكره أوتجراف... أنا مديهولك عشان تكتب فيه كل حاجة حصلت... افرض نسيت حاجة مهمة حاطمن عليك ازاي»؟! انكمش الطفل أكثر في كرسيه وجسده كله يهتز وهو يجاهد البكاء.

أخرجت الفتاة بسرعة كراستها وقالت بنصر: «أنا كاتبة كل حاجة يا بابا من ساعة ما خرجت من البيت».. ابتسم الأب وقال لها بزهو: «شاطرة يا أريج... قولي». انطلقت الفتاة تقرأ ما في كراستها... تفاصيل الدروس، ومشاغبات

الأولاد حتى النكت التي قالها المدرسون وسخرياتهم على أداء مدير المدرسة من خلف ظهره.. بعد أن أنهت الفتاة القراءة فتح يديه على مصراعيهما فجرت الفتاة لاحتضانه وسكنت بين صدره.. نهض الصبي باستسلام ووقف في نصف المسافة بين الكرسي الذي يجلس عليه والمكان الذي يشغله والده... لم يعبأ به الأب وقال الطفل والدموع تضيء عينيه: «أنا آسف يا بابي... بكرة حاكتب كل حاجة»...

قصة أول مخبر هاو في التاريخ ذكرتني بهذه الواقعة ولا أدري لماذا، المهم... كان الأكل شهيًّا وممتعًا.. وجاء دور الحلوى، أعطاني قطعتين متماثلتين من الحلوى إحداهما من علبتي، وطلب مني أن أقول رأيي بصدق، عرفت طبعًا أن القطعة التي كانت غير منتظمة الحواف هي القطعة التي صنعتها زوجته فأثنيت عليها.. انشرح قلب الزوجة وقلبه.. تحمست الزوجة ووضعت قدرا أكبر من الحلوى في طبقي وأنا أمانع ولا فائدة..

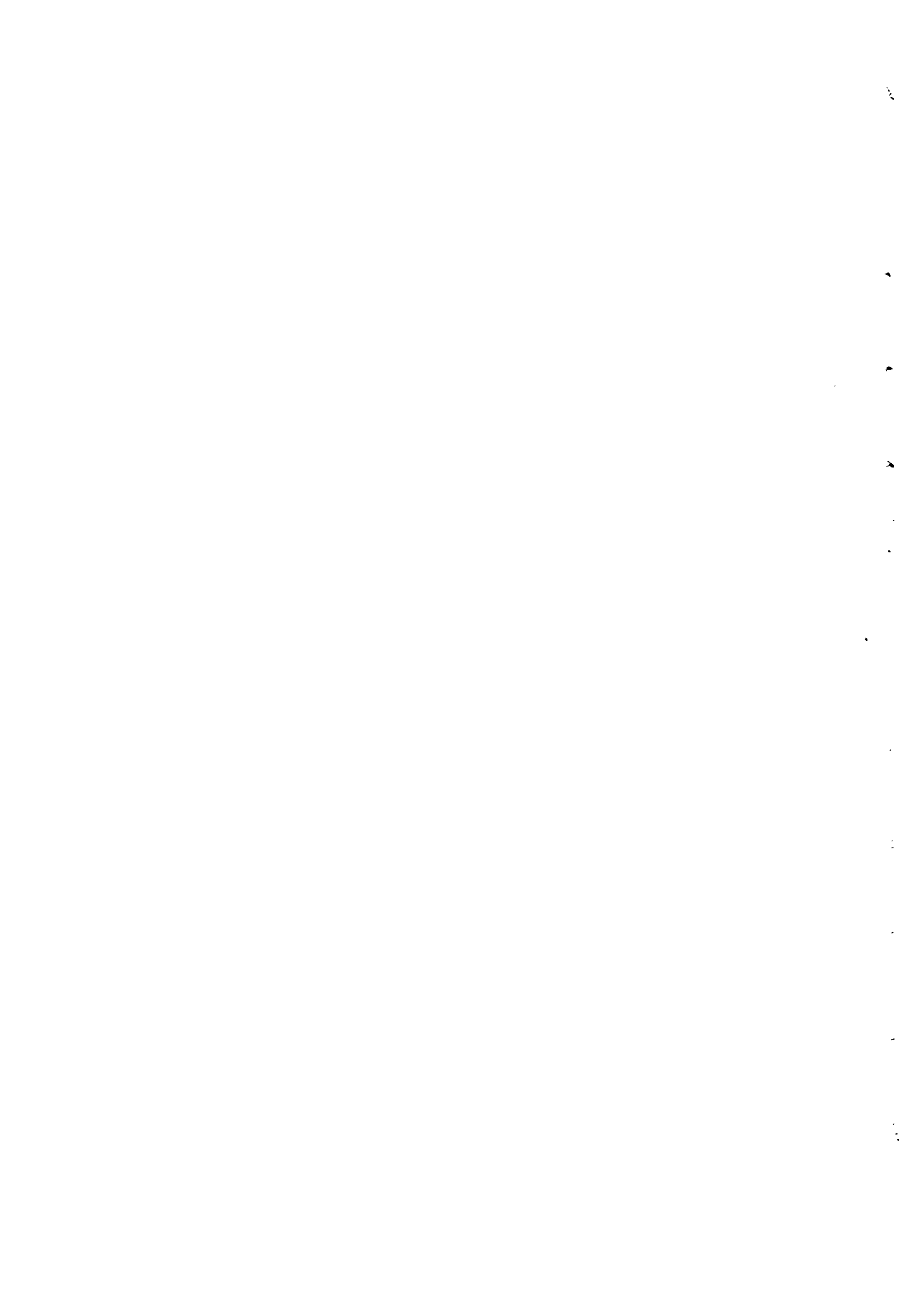
جاء الوقت المحدد لتكديري فتأهب للابتسام وقال بشفقة مبطنة بالسخرية: «ليه كلفت نفسك؟ ٤٠ جنيه كتير على العلبة دي».. اندهشت لأنه عرف الرقم بدقة، لكنه لم يمهلني وأراني باطن سبابته وكان ملصوقا عليه «إستيكر» السعر، وقال بتشف: «مش كنت طلبت من الراجل يشيل السعر، ولا أنت قاصد تعرفنا»؟ بهت وتضايقت ووجدت نفسي أدفع تهمة لم أرتكبها، وقلت بغيظ: «أنا كنت مستعجل والبايع المتخلف افتكر أني واخدها البيت وماكلفش نفسه يشيل الورقة».. قال مخففًا الأمر عني وبالابتسامة اللزجة نفسها: «أنا بهذر معاك... وبعدين الحلويات جميلة والمحل ده بالذات من أشهرها»...

لن أطيل في الكلام عن الجو المشحون الذي انتهت به الدعوة، المهم

أنني رددت له دعوته بدعوة في محل كبير بوسط البلد هو وزوجته وأولاده بحجة أنني إنسان غير مستقر وليس لي زوجة. وقبل الدعوة ولباها لكننا لم نعد نتهاتف بعدها قط.

غريب الأطوار





اقتحمت سيارة النقل الكبيرة فناء كلية الفنون الجميلة، وأفرغ العمال بسرعة حمولتها الضخمة من الأحجار الجيرية البيضاء المقطوعة من الجبل بعشوائية.. وحرص كل طالب على انتقاء حجر يناسبه للعمل عليه.. بينما جلس «مهند» بعيدًا يراقبهم بلا مبالاة.. وعندما انتهوا طلب من العمال أن يرصوا سبعة أحجار ضخمة بعضها فوق بعض بالشكل الذي أرشدهم إليه.. كان أقل حجر وقع عليه اختياره لا يقل وزنه عن ١٠٠ كيلو جرام، وكان الطلبة والأساتذة يتابعونه بدهشة لكنهم لم يعلقوا.. فمهند معروف في الكلية بأنه «غريب الأطوار»..

كان من المفترض أن الطلبة سيعكفون على أحجارهم لمدة ثلاثة أسابيع لكي يعيدوا تشكيلها، وفي نهاية الفترة ستقيِّم اللجنة المشكلة من كبار الأساتذة هذه الأعمال. كل يوم يبدأ الطلبة في العمل من الصباح الباكر، ومهند جالس على مسافة قريبة من أحجاره يتأملها بعمق، وهو يدخن سجائره لساعات، ثم يغادر المكان ولا يعود إلا صباح اليوم التالي..

مر ١٨ يومًا والطلبة يضعون لمساتهم الأخيرة على منحوتاتهم، ومهند ما زال يتأمل أحجاره كأنه سيعيد تشكيلها بإشعاع عينيه.. لكنه تحرك في اليوم الـ ١٩ وجذب حقيبة معداته تجاه أحجاره.. وبأزميله الصغير ظل يضع لمسة هنا ولمسة هناك، ثم توالت ضرباته... تتسارع... وتبطئ... ثم تتزايد سرعتها كأنها سيمفونية موسيقية لمؤلف عبقري، وكتل الأحجار البيضاء

يكاد ينفجر منها النور تحت ضربات أزميله المدبب الذي يضرب به برفق وتصميم...

لم ينم مطلقا طوال اليومين التاليين، وعندما انتهى وقفت اللجنة كلها متسمرة أمام عمله ومنحته درجة الامتياز بالإجماع. رفض أن يعين معيدًا بالكلية على رغم أنه أول دفعته بامتياز، وفضل أن يصبح فنانًا حرًّا. لا تقيده اللوائح والنظم، وغير قابل للاحتواء.

وجهه حاد القسمات وملامحه جامدة أقرب ما تكون إلى وجوه الثوار الجزائريين إبان الثورة الجزائرية... نادر الابتسام. يسير منتصبًا ويمشي مشية أقرب إلى المشية العسكرية.. ينتحي ركنًا قصيًّا بممر مقهى البستان، يخرج علبة الدخان المعدنية ويلف سيجارة صغيرة ينفث دخانها في وجه الريح.. ظننت في البداية أنه فنان عربي لهيئته واسمه الغريب على الآذان المصرية.. كان صمته مدهشًا ونظراته المتأملة مربكة، ويبدو عليه أنه لا يعبأ بأي كائن في هذا الكون بأسره.. يرتدي بنطلون «جينز» باستمرار وجاكت كاكي غريبا ملطعا بالجيوب والبادجات و«كاب» من نفس قماش الجاكت لم أر مثيله في أي محل من محلات وسط البلد.. يسند قدمه على جذع الشجرة التي بالممر بحذائه الجلدي طويل الرقبة في الصيف والشتاء.

هو أول شخص جرؤ على الظهور بذيل الحصان في وسط البلد متحملًا السخريات ونظرات الاستهزاء وسباب العامة والدهماء له والتلميح بميوعته ومثليته.. رغم التناقض المذهل بين ذيل حصانه وقسمات وجهه الرجولية الحادة. تعرفت به عبر أصدقاء مشتركين أعطوني فكرة مسبقة عنه وعن غرابة تصرفاته.. لذا لم أندهش وهو يخبرني بأن الجاكت والبنطلون والكاب التي يرتديها من صنعه، وأنه يفصل كل ملابسه بنفسه.. وأضاف بأنه قريبا سيشتري ماكينة لتفصيل الجلود حتى يستطع أن يفصل أحذيته ومعاطفه بها..

على الرغم من أنه أراني «ألبوم» صور به بعض لوحاته ومنحوتاته وأعجبني

جدا فإنني لم أنبهر، فقد كنت أسير مخيلته الرائعة وأحاديثه الأسطورية.. كنا عائدين من زيارة صديق أصابه مرض عضال فجأة، وكنت متأثرًا جدًّا بعد أن أخبرنا الطبيب بأن النهاية وشيكة.. لكن مهندا فاجأني بأن الصديق هو الغلطان لأنه ترك المرض يستفحل.. لم أفهم في أول الأمر.. لكنه استطرد: «تفتكر أنا ممكن يسيطر علي سرطان أو أي مرض.. طبعا لا.. لأني دربت قدراتي على أنها تدي إشارة لجسمي يقاوم، وبكده دفاع جسمي يستجيب ويطرد أي مرض»..

لم أعلق، ولكي أنسى طاوعته وذهبت معه إلى سوق الجمعة، ووقفت أرقبه وهو يفاصل ويساوم الباعة في شراء بعض المخلفات المعدنية.. كنت أظن أنه يشتري هذه المخلفات لعمل تمثال فني.. لكنه كالعادة فاجأني بأنه سيصنع منها «موتوسيكل» يلف به العالم كله...

لم يحدث أن اشتبك مع أحد في مشادة، أو ارتفع صوته، أو سخر من أحد، أو نقد أحدًا بشكل جارح.. كنت جالسا بجواره وأمامنا على ناصية المقهى جمع من المثقفين يتناقشون بصخب.. سألته متخابثا: «تفتكر بيتناقشوا في إيه؟».. تبسم وقال هامسًا إنه عندما رآهم جالسين هكذا ظن أنهم في انتظار دورهم في دخول الحمام.

فازت أعماله بجوائز أولى في أكثر من معرض دولي ومحلي وأكثر من «بينالي»، ولم يحدث أن وجه لي الدعوة لحضور أي من معارضه أو اهتم بأنى لم أحضر.. أو سألنى عن رأيي في شغله أو اهتم حتى بآراء زملائه الفنانين... ثقته في أعماله جعلته متعاليا على معرفة الرأى الآخر.. وبساطته ودماثته في التعامل مع المقربين حيرت كثيرين في أمره.. طلب منه صديق مدع شراء إحدى منحوتاته فطلب مبلغًا فلكيًّا.. وعندما سألته عن سبب طلبه هذا الرقم، قال ببساطة: «ده سمسار جاهل وميعرفش ألف باء الفن!».. بينما تغيَّر موقفه عندما تورط صديق لنا وادعى أنه يعمل وسيط بيع أعمال فنية واتفق مع رجل أعمال

«تقيل» على أن يورد له ٢٠٠ لوحة فنية يملأ بها جدران قريته الساحلية.. قبض الصديق عربونًا ضخمًا أعطاه لفنان كي يتولى المهمة.. وبدأ الفنان عمله، ثم طلب دفعة مالية أخرى أكبر من المتفق عليه: ثم تقاعس وكبر دماغه، ولم ينجز عمله وسافر إلى أبو ظبي.. وجد الصديق نفسه متورطا بشدة وأمامه أيام قليلة لكي ينفذ اتفاقه..وكان يعلم بأنه إن أخل بالاتفاق فسنواته القادمة سوداء!.. فرجل الأعمال هذا «نابه أزرق» ويقال إنه كون ثروته من بيع السلاح.. وطبعا ستكون كبيرة أن ينصب عليه في آخرة المطاف حتة مثقف تافه!.. قبل مهند أن يساعده إنقاذا له من هذه الورطة المخيفة، وفي خلال يومين فقط أنهى المهمة مقابل فتات النقود الباقية.

علمت أنه أخرج ابنه نهائيا من المدرسة، فعاتبته بقوة.. نظر إلي بهدوء وقال: «الواد كره المدرسة وقال كده أكثر من مرة ونفسه يشتغل عجلاتي.. أخذته من إيده وشغلته عند العجلاتي اللي في أول شارعنا.. شغلته في حاجة يحبها.. عشان يقدر يبدع فيها.. هو أنت مش فنان برضه.. ولا حتعمل زي مراتي وإخواتي اللي مش عاجبهم اللي عملته؟!»...

ذهب إلى صديقنا طبيب الأسنان لكي يخلع ضرسه، وطلب من الطبيب ألاَّ يعطيه البنج لأنه قادر على السيطرة على مناطق الإحساس بجسمه، وأنه يستطيع أن يزيد الألم بمنطقة ما من جسده أو يضعفها.. طبعا لم يهتم صديقنا الطبيب بما قاله وضاعف له كمية البنج، وبمجرد أن أدخل آلة الخلع في فمه.. انهار مهند واصفر وجهه وأغمي عليه وكاد يختنق!...

انشغل في الفترة الأخيرة بالموسيقى، وأصبح يجلس خلف الشجرة و«الهيدفون» في أذنه يستمع إلى الألحان المختلفة، وقال لي إن أعظم أمانيه أن يرسم الموسيقى.. ثم هبط عليه وحي التلحين وكلمني بالتليفون كي أقابله وأسمع أول ألحانه.. ذهبنا إلى مقهى الندوة الثقافية لكي نسمع لحنه في هدوء.. أخرج من حقيبته أحشاء راديو قديم وسماعتين صغيرتين وأوصلهما

بجهاز تسجيل صغير متهالك وارد سوق الجمعة متدل منه سلك عريان في أكثر من جزء، أدخله فيشة الكهرباء بتهور، وضغط على زر التسجيل وهو يضع السماعات بإحكام داخل أذني. كنت مرعوبًا من اختراعه ومتيقنا من أن هذه هي لحظة نهايتي وستقضي علي الكهرباء بالتأكيد، ولم أسمع شيئًا مميزا بالطبع، لكنني تخلصت من السماعات بسرعة وأنا أثني على لحنه وموهبته.

رأيته حزينا ينفث دخانه.. بمجرد أن سألته أجابني بسرعة وكأنه يتخلص من حزنه: «ابني مربي قط ما بيستظرفنيش.. دايمًا يغلس علي وأنا باشتغل.. كل ما أجي أنهي رسمة ولا لحن، ينط على حجري ويخليني أعيد من الأول.. طبعا مبيعملش ده إلا والواد قاعد.. إمبارح دخل علي وابني في الشغل.. بصلي.. بصيتله، قلت له بعينيَّ أنا مش عايزك في البيت هنا.. زام شوية.. كررت نظرتي وطلبي أنه يفارقنا.. طلع على الشباك وبصلي.. قلتله ما يهمنيش.. ومباخفش من التهديد.. رمى نفسه في الشارع، داسته عربية ومات!»...

كان مهند ينقلني إلى عوالم موازية جميلة وبعيدة عن عالمنا هذا.. وعندما حضرت معرضه الأخير بأتيلييه القاهرة تأكد لي هذا الإحساس.. وأنا أرى منحوتاته التي شكلها من الحديد لحيوانات وحشرات خرافية مذهلة في ضخامتها وفي تشكيلها، وكأنها حيوانات وحشرات ما قبل التاريخ.. شيء فذ يفوق تصورات المخرج العالمي «ستيفن سبيلبيرج» وإمكاناته الذهنية.. ولو رأى معرضه أحد صناع السينما بهوليوود لاحتكر فنه بأعلى قيمة ولأبعد مدى...

هذا الفنان الفذ تمكن منه المرض العضال في أسبوعين وقضى عليه.. هل عجزت دفاعاته عن حمايته، أم اختار أن ينسحب إلى عالم مواز آخر يقدر موهبته وإبداعه؟!

نرجس





الوقت نهايات الثمانينيات، وجامعة القاهرة يكاد يسودها فصيل سياسي واحد هو اليمين الأصولي.. لا نشاط طلابيا يذكر ولا حفلات ولا ترفيه ولا وسائل تعبير متاحة دون قلق.. هذا هو المناخ الذي صاحب «نرجس» طيلة سنوات دراستها بجامعة القاهرة. هي مثقفة بدرجة ملحوظة.. محبة للمسرح جدًّا وتاج أمانيها أن تجول وتصول على خشبته تتقمص كلاسيكياته العظيمة.. اختطفها التنسيق وأمنيات الأهل إلى كلية الآداب بعيدًا عن حلمها الأثير للالتحاق بمعهد الفنون المسرحية.

نرجس سكندرية شهمة وجميلة إلى درجة جذابة.. عيناها سوداوان مفتوحتان باتساع وشعرها ليل أسود طويل.. ضئيلة الجسم في تماثل مع أجساد فناناتنا الجميلات.. حديثها ساحر إن تكلمت واستماعها عبقري إن أنصتت.. لكنها أتت في الزمن الخاطئ تماما.. ولولا فروق التوقيت لكانت نجمة النجوم الآن.

سكنت بدار المغتربات بالجيزة، وفي غضون بضعة أشهر قليلة كانت زعيمة البنات بلا منازع.. من يفقنها سنا ووزنًا ودرجة دراسية كن يخشين سلاطة لسانها إذا ما احتدت، وثقافتها الواسعة إذا ما جادلت.. وجرأتها الوحشية إذا ما واجهت.. إذا ما أزعجتها جلبة وصياح البنات في «كلودور» المبنى.. تفتح باب حجرتها وتخرج إليهن.. تختفي بعض البنات بمجرد سماعهن صرير

فتح الباب والباقيات الأكثر شجاعة يولين ظهورهن ويمضين بتكاسل تجاه غرفهن، ووابل سبابها ولعناتها ينهمر داخل آذانهن لكنهن لا يجرؤن على أن يلتفتن.. دائما لا يلتفتن، ودائما تحسم هي الصراع.. لا تعبأ بعنف الإدارة ولا بكلام الزميلات الذي يدور من خلف ظهرها..

تقف أمام المبنى بكل جرأة تنتظر زميلها وحبيبها لتركب خلفه على دراجته النارية، والبنات يتلصصن خلف الشرفات يتابعنها بحسد أو بسخرية أو بامتعاض.. لم تكن تسمع لنصائح من قبيل «هي ضاقت عليك الدنيا لما تقابليه قدام الدار وكمان تركبي وراه على الموتوسيكل؟!». لم تكن تعتقد أنها تفعل ما يشين.. «الحب لا يحتاج إلى سترة، المعاصي فقط يستلزم مداراتها عن العيون.. وأنا لا أفعل معصية!».. كان هذا هو رأيها الذي تجاهر به الجميع.

لكن ككل شيء جميل في دنيانا لابد أن ينتهي سريعا.. لقي حبيبها حتفه في حادثة مريعة، وانتهت قصة الحب قبل أن تنضج فعليا.. وتبدل حال نرجس لبعض الوقت.. اكتأبت وانعزلت وتوحدت مع نفسها.. لم تعد تحضر المحاضرات أو تقرأ كلاسيكيات المسرح، ولم تكن تسمح لأحد بأن يخاطبها أو يواسيها باستثناء زميلة السكن التي كانت تحبها لأنها منكسرة وغلبانة وقد تعهدت نرجس بحمايتها من الفتيات القاسيات الزميلات، ومن غلاسة الصبيان الذين يرون في فتيات الأقاليم أهدافًا مشروعة.

وذات مساء من أمسيات شهر مارس العاصف والزميلة تستذكر دروسها في صمت، وبين الحين والآخر تختلس نظرة إلى نرجس المكومة في فراشها تتأمل سقف الغرفة.. فوجئت الزميلة بنهوض نرجس من سريرها متجهة نحو الحمام ثم العودة منه بسرعة.. سوت نرجس شعرها ووضعت بعض لمسات المكياج الخفيفة لأول مرة منذ الحادثة المفجعة.. ثم تحركت باتجاه الزميلة المضطربة بشدة من هذه التحولات السريعة.. جذبتها نرجس من يدها

وخرجت بها من الغرفة وصعدت بها الدرجات الحجرية القليلة تجاه سطح المبنى.. كانت الزميلة في قمة الرعب وقد اعتقدت أن نرجس جنت وقد تلقي بنفسها من السطح وتريدها شاهدا على الواقعة.. وكمم الخوف لسان الزميلة.. لاحظت نرجس الرعدة الشديدة بجسد زميلتها فشخططت فيها «اثبتي جبتيلي العصبي!».. ثم وقفت تتأمل الشوارع السفلية والميدان العريض.. وفجأة أمرت نرجس الزميلة بأن تتطلع معها إلى الشارع.. أطاعتها الزميلة والخوف يتملكها.. ولم تسترح نرجس إلا بعد أن أفرغت لعابها كله في الهواء، ولم تعبأ والريح تعيده إليها أضعافًا مضاعفة.. ثم تنهدت براحة كبيرة، ونزلت إلى الغرفة تجمع في هدوء خطابات حبيبها وصورهما وبعض ذكرياتهما المتناثرة في حقيبة جلدية صغيرة دفستها في أعماق الدولاب ثم نامت دون أن تبادل زميلتها الكلام...

كانت هذه هي ليلة فاصلة في حياة نرجس.. عادت بعدها إلى طبيعتها الأولى، ثم زادت مساحة جرأتها.يوما بعد يوم، كانت تدافع باستماتة عن صحف الحائط والمنشورات السرية وحرية التعبير حتى لو كانت لا تتبنى وجهة نظرها.. وتشارك في كل التظاهرات والمسيرات.. لا تبالي بالعنف المضاد ولا التحرشات البدنية.. تمسح وتلعق جراحها بلا ألم، وكأن هذا هو الوضع الطبيعي.. وانطلقت تمثل مع أغلب فرق الجامعة وتتحرك معهم في كل أماكن العرض المتاحة بما فيها الأماكن الملتهبة والمعبأة ضد الفن.. حتى تعرفت على مخرج مسرحي من خريجي الأكاديمية متخرج حديثا وكانت هي في سنتها الأخيرة قبل التخرج.. أصبحت مؤمنة إيمانا كبيرا بموهبته، وكان هو لا يمل من إطلاق تصريحاته بأن نرجس ستكون من أهم ممثلات المسرح قريبا.

بعد تخرجها تضاءلت أحلامها الفنية على صخور الواقع.. لم يتحمس منتج مسرحي أو مخرج لإمكاناتها الفنية خصوصا وهي تتعامل معهم بخيلاء

من فرط ثقافتها وفيض ثقتها بنفسها، ولأنها كانت لا تمل من فرض صديقها المخرج على المنتجين المسرحيين بدعوى أن لا أحد سيخرج إمكاناتها الفنية العالية خلافه. أصبحت منطقة وسط البلد محطتها الأخيرة..

بدأت في الوجود المكثف فيها هي وصديقها المخرج على مقاهيها ومنتدياتها كافة.. لم تفقد حماستها ولم يتمكن منها اليأس.. كانت على اقتناع بأن موهبتها ستفرض نفسها في النهاية.. كانت تجلس بيننا في فندق «الكوزموبوليتان» تحدثنا باستفاضة عن أحلامها وعن عشقها للمسرح، وصديقها المخرج يكمل حديثها كأنه دور مسرحي اتفقا على أدائه. وتحمست فجأة ونهضت من وسطنا وأزاحت بيدها الأكواب وطفايات السجائر من فوق المنضدة، ثم صعدت عليها لتمثل مشهدًا من رواية «عطيل» لوليام شكسبير.. كانت مليئة بالطاقة والحيوية، تمثل وكأنها قد تلبستها إحدى الأرواح المشاغبة لفنانة عريقة متميزة.. وانتهت الليلة بانبهارنا جميعا بأدائها.

للأسف الشديد ظلت فترة طويلة لا تقبل دورًا بخلاف دور البطولة أو مخرجًا بخلاف صديقها الذي أحبته بعنف، وحال اختلاف ديانتيهما دون الزواج الرسمي.. لذلك وقفت «محلك سر».

بعد سلسلة طويلة من الإخفاقات والمعارك الأسرية سافرت فجأة إلى سويسرا.. تزوجها صديقها المخرج هناك وأنجب منها طفلا.. ثم تركها وسافر إلى أمريكا يبحث عن فرصته هناك.. ولم يعد مرة أخرى.. اتصلت مرة من سويسرا بزميلتها في غرفة المدينة الجامعية.. قالت لها بمرارة: «أنا كنت فاكرة لما طلعنا فوق سطح المبنى إن أنا باتف على الدنيا.. أتاري الدنيا هي اللي تفت علي!»..

ثم انقطعت الاتصالات لسنوات.. لكن في الأشهر القليلة الماضية اتصلت نرجس من كندا بالزميلة نفسها، وقالت إنها بصحة جيدة هي وطفلها وإنها

تجاوزت محنتها، وعملت دبلومة في تقنيات المسرح، وتستعد حاليا لعمل رسالة دكتوراه.. قالت أيضا إنها ستعود.. سنفاجئها بما حدث بوسط البلد من تغييرات.. وقد تفاجئنا بشخصية مختلفة الآن.

قتلة بالفطرة


PEPSI

أيامها كانت كنكة القهوة التي تفور تعبيرًا عن ذروة الفعل الجنسي.. أو يدوي الرعد وتعصف الريح بأفرع الشجر ثم ينهمر المطر تنبيها للمشاهد بأن حادث الاغتصاب قد تم.. أيامها لم يجرؤ أحد أساتذة معهد السينما على أن يقول إن السينما حرام بينما هو يدرسها، أو أن يدعو عميد إحدى كليات الفنون الجميلة رجل دين إلى زيارة الكلية التي هو عميدها فيستر التماثيل العارية بقماش الدمور حتى لا يراها ضيفه الجليل.. كان هذا زمان السينما النظيفة كما يطلق عليه النقاد السينمائيون الآن.. في ذلك الزمان بدأت هذه الحكاية..

كان سيد العدوي شابًّا ضخم الجثة، طيب القلب يعمل مساعدًا ثالثًا للإنتاج، وهي مهنة بسيطة مسماها الحقيقي في الحياة الواقعية «مرمطون».. إذ عليه في المقام الأول إرضاء مدير الإنتاج وإنجاز كل الأعمال المتعلقة بتوافه الأمور التي تستلزمها المشاهد.. كأصيص زرع أو كلب بلدي أجرب أو إفريز خشبي بالصدف أو فونوغراف قديم وأشياء أخرى من هذا القبيل..

ثم حدث أن تغيب الريجيسير المكلف بإيصال نسخة من الإسكربت لبطلة الفيلم بعد أن أضاف السيناريست مشاهد أخرى لإرضاء البطلة.. كان يوم سيد العدوي مضنيًا بعد أن ساعد العمال في حمل وتحريك الأثاث، وإبلاغ المحل المكلف بطعام البريك بموعد التسليم، وتنفيذ كل رغبات المخرج المعقولة والمجنونة في إثراء المشهد.. ابتعد سيد عن مرمى نظر المخرج ومساعدي الإنتاج، وانتحى ركنا قصيًّا وهده التعب فنام.. لكن منظره وهو يغط في النوم استفز مدير الإنتاج فقرر أن يقلق مضجعه.. دفعه

بقدمه بعنف في قصبة ساقه وأمره بحدة بأن يذهب بالإسكربت بأقصى سرعة إلى بيت النجمة «...».

وصل سيد بالإسكربت قبيل الساعة العاشرة مساء.. كانت النجمة قد صرفت خادمتها، وبدأت تعايش فنها في صومعتها.. أمام إلحاح الجرس الرذل المستمر.. فتحت له النجمة الشهيرة وملكة الإغراء الباب وهي سكرانة طينة.. ارتبك سيد أمامها تمامًا، فقد كان من لوازم آداب مهنته ألا يحتك بالممثلين ولا يخاطبهم وجها لوجه.. سابت مفاصل سيد، ووقع الإسكربت من يده قبل أن يناوله إلى النجمة.. ضحكت النجمة بهستيرية.. وأعطته ظهرها وهي منشغلة بكأسها وأمرته بأن يدخل ويغلق الباب خلفه.. قدمت له كأسا لكنه رفضه بإصرار.. بدلت الكأس بعلبة بيبسي (كانز) وأصرت على أن يتناولها.. ثم راقها خجله وأدبه المفرط، فبدأت في التباسط معه، وطلبت منه أن يقرأ لها المشاهد المضافة، وهي تلعب بأصابعها في كأسها بعد أن تضع داخله إحدى حبات المقبلات..

كان سيد يقرأ ويقرأ وقميصها الداخلي المثير ينحسر وينحسر بفعل عدم الاتزان أو معايشتها للمشهد.. لكن السكر لم يتمكن منها تمامًا.. كانت ترقب اختلاسات نظره وآثار تدفق الدم في عروقه بمتعة.. هنا عندما قدمت له كأسا لم يرفضه بل بلعه على الفور.. سخن الموضوع أكثر بعد أن أعجبت النجمة بالمشاهد المضافة وقررت أن تمثلها أمامه باحتراف.. وزاد الطين بلة أنها أخذت رأيه في أدائها!.. سيد العدوي الذي لم يأخذ أحد رأيه أبدا في شيء يخصه أو لا يخصه، أرق نجمة في الشرق أخذت رأيه! الذي أزعجها منه فقط إصراره كل لحظة على قول كلمة حضرتك.. حضرتك.. فمدت إليه يدها ليقبلها ورجته بأن يناديها باسم الدلع.. ثم لعبت النشوة برأسها أكثر فأدخلته غرفة نومها وحققت له أمنية مستحيلة جدا..

اليوم التالي كان بمثابة الميلاد الجديد لسيد.. لبس أجمل ما لديه، وأسرع بإنجاز كل الأعمال التي كلف بها... صعبة وشاقة كانت أو بسيطة.. حتى يتفرغ لمشاهدة حبيبته تمثل مشاهدها التي أخذت رأيه فيها أمس.. دخلت

النجمة الإستديو فأشرقت الشمس في حياة سيد.. لكنه لم يستطع الاقتراب منها وهي في غرفة المكياج.. تمكن فقط من مراقبتها وهي تتمايل وتمثل أمام الكاميرا وتبدع فنًّا غير مسبوق.. كانت النجمة وهي منهمكة بالتمثيل تنظر إلى كل الموجودين بالإستديو ولا تراهم.. لكن عندما التقت عيناها بعيني سيد رجف هدباها رجفة لم يلحظها إلا سيد..

انتهى المشهد بتصفيق حاد وهرعت النجمة إلى غرفة ملابسها فلم يتمكن سيد من الحديث معها والانفراد بها، وانصاع لأوامر مدير الإنتاج الغبي بإعادة ترتيب وتنسيق أثاث الإستديو.. أنهى سيد عمله بعد الساعة الثانية عشرة ليلًا، ورأى أنه من غير اللائق زيارة حبيبته في مثل هذا الوقت.. لذا قرر زيارتها في الصباح. الصباح عند النجمات والنجوم ليس كصباحنا.. إنه يبدأ في الأغلب بعد الرابعة ظهرًا، وكان سيد يعرف ذلك.. رن الجرس في الخامسة ظهرًا ففتحت له الخادمة الباب ولم تكن تعرفه أو تدرك قيمته عند سيدتها بالطبع.. سأل سيد عن النجمة باسم الدلع.. أغلقت الخادمة الباب في وجهه.. ظل يدق على الباب بتهور.. نهرته الخادمة بعنف والنجمة خلفها تستطلع الأمر.. نطر سيد ذراع الخادمة ودخل باتجاه النجمة محاولا احتضانها وهو يناديها باسم الدلع.. انهالت عليه النجمة بقلمين على وجهه أعادا إليه اتزانه، ثم طردته شر طردة وهي تودعه مع خادمتها بالسباب الفاحش!

بدأت سلسلة طرد لا نهائية في حياة سيد.. أولا من عمله في المجال السينمائي.. أما وظيفته الإدارية كأرشيفجي بهيئة السينما والمسرح ففصلوه منها بحجة الغياب المستمر بدون مبرر قانوني.. تشرد سيد ما يقرب من عامين بجميع المهن، حتى عطف عليه أحد أولاد الحلال من إداريي مسرح الحرية بباب اللوق، وضمه إلى عمال البوفيه.. كان هذا العمل ظاهره الرحمة وباطنه العذاب.. فالمسرحية التي تعرض على خشبته إحدى أكثر المسرحيات شعبية وإيرادًا في تاريخ المسرح الحديث. الحجز يتم غالبًا قبلها بثلاثة شهور، وهي دائما «أرش كومبليه» ونجاحها جعل آثار النعمة بادية على الجميع ممثلين وعاملين.. ونال سيد حظه من الفتات، لكنه كان قانعا حامدا شاكرا للنعمة التي

هو فيها، إلى أن أفشى سره أحد زملائه بالبوفيه إلى أحد ممثلي الصف الثاني الذي أذاع حكايته لجميع أبطال المسرحية.. وهنا حولوا المأساة إلى عبث، وبدأت الحكاية تضحكهم وكل يوم يضيفون إليها أحداثا ومشاهد وسيد غير مدرك لما يدور حوله..

ثم تفتق ذهن بطلة المسرحية بالاتفاق مع بطل مشاغب من أبطال المسرحية على اللعب بسيد.. بدأت تناديه في أثناء راحتها وهي بغرفتها مرتدية ملابس شبه عارية. وتطلب منه أن يساعدها في إزالة المكياج أو فك سوستة الفستان أو تدليك قدمها التي تيبست من الوقوف على خشبة المسرح، وهي تثيره بالكلمات والحركات.. وبمجرد أن يبدأ لعاب سيد في السيل كان البطل المشاغب يدخل حتى لا تتطور الأحداث كما هو متفق عليه. يوميا يعود سيد خائب الرجاء وهو غير منتبه.. وكل يوم مساحة العري تزيد والتأوهات تكثر، لكن بمجرد أن يمد سيد يده كان الممثل يدخل ليحبطه تمامًا..

ثم زهقت النجمة والممثل من التكرار الرتيب فغيرا قليلا في مشهد النهاية.. بذلت النجمة جهدًا أكبر في إغراء سيد حتى تهور وهم بنزع قميصها.. دخل عليه الممثلون جميعا وهم يزفونه ويضحكون عليه ويسخرون منه.. ومرت لحظات عصيبة أدرك سيد بعدها أنه راح ضحية مؤامرة.

هذه المرة لم يطرد سيد من المسرح، فقد قرر أن ينجو بنفسه ولا يتعامل مع هؤلاء الشياطين مرة أخرى.. لكن المؤسف أن أشقاء زوجته طردوه من شقته بالأباجية وحرموه من رؤية طفليه بعد أن علموا بفضيحته.. وهددوه بإيداعه مصحة نفسية لو اقترب منهم مرة أخرى. أجر سيد غرفة صغيرة على سطح عمارة ضخمة بميدان التحرير.. عمارة يقع أسفلها مقهى وكافتيريا «علي بابا».. كان الحال قد تغير به تماما.. تهدل جسمه وظهر لظهره حدبة فجأة، وأصبح يرتدي جاكتا من التيل المصري صيفًا وشتاءً..

كان يأتي إلى المقهى قرب الظهيرة وعلى كتفه حقيبة ضخمة من القماش مملوءة بأعداد مهولة من المجلات القديمة مصرية وأجنبية ولبنانية، يجلس

في هدوء ثم بإشارة من يده يطلب بيبسي (كانز).. كنا في أوائل الثمانينيات والمقهى به الزجاجات العادية الرخيصة وعلب الكانز الغالية التي يصدرها عبدالله الجرسون للرواد العاديين من غير المثقفين.. لكن سيد ما كان يرضى بغير الكانز بديلا.. ويغادر المقهى إن لم تكن موجودة.. فأول علبة كانز ذاقها في حياته حينما كان يقرأ الإسكربت لنجمة السينما. يبدأ سيد في رشف محتويات الزجاجة بالشالموه.. وهو يضع ساقا فوق ساق مبينًا رقع بنطلونه وثقوب جوربه وحذائه..ثم يخرج مجلاته في هدوء، لا يعبأ بنا أو ينتبه لصخبنا.. يتأمل صور النجمات الوديعات اللواتي يمثلن أدوار البراءة، وبمقص صغير يقص صورهن بعناية ثم يضعها باهتمام داخل حقيبته.. إذا ما صادف صورة مبتذلة لنجمة إغراء كان يقلب الصفحة بسرعة وتوتر..

لم يكن يتحدث مع أحد مطلقا ولا حتى جرسون المقهى.. ولم يرد تحية أو سلامًا لأي منا أو حتى لسينمائي أو مسرحي زميل رآه مصادفة وتقرب إليه يسأله عن أحواله.. وعندما كانوا يتركون له مبالغ مالية كان يتركها كما هي ولا يمد لها يده كأنها فيروسات فتاكة.. كان يرانا كالهوام.. وعندما كانت أصواتنا ترتفع ونحتد في مناقشاتنا، كان يغادرنا في هدوء بعد أن يرفع حقيبته الممتلئة بكنزه على ظهره..

كان يعيش على حد الكفاف.. طعامه مجرد ساندوتش فول وعلبة بيبسي كانز، بينما قتلته يغرفن الأموال ويتحلين باللؤلؤ والماس ثم يتحجبن ويعتزلن أو يملأن الفضائيات هراء عن الفن الجميل..

خرج سيد العدوي ذات يوم من باب المقهى وهو يمشي متثاقلًا أكثر من المعتاد.. وفي نصف المسافة ما بين المقهى وبائع الصحف.. وقع على وجهه ميتًا وتناثر كنزه على الطريق.. غطاه المارة بالقصاصات ثم انشغلوا عنه بأمور حياتهم.

فن إهداء المحفظة



وأنت داخل في شارع كريم الدولة متجهًا إلى أتيلييه القاهرة... في مساء من مساءات أيام الآحاد... سيسحبك صوت دافئ جميل ويأسرك تماما... وكلما اقتربت خطوة ازداد الصوت قوة وجاذبية... ستجتاز البهو وقد تهمل تحية الأصدقاء وسترجئ مشاهدة المعارض، وستصعد بحماسة وشوق الدرج البازلتي إلى الدور الثالث حيث مقر جمعية أصدقاء سيد درويش.. وستجدها تتصدر الغرفة محتضنة عودها الخشبى تعزف على أوتاره أغنيتها الشهيرة «آمنت بالله.. نور جمالك آية.. آية من الله».. وهي من تلحينها وغنائها... ستجد الصوت مازال قويًا وشجيًا... تغنيه بإحساس فتاة في العشرينيات من عمرها...

لو كنت لم ترها من قبل وأغمضت عينك وأنت تستمع لصوتها لأول مرة ستشك كثيرًا في أن التي تغنيه الآن تجاوزت الـ ٧٥ سنة من عمرها. ثم تتوالى الأدوار الرائعة من بين شفتيها «منيتي عز اصطباري» من أروع وأصعب الموشحات التي لحنها سيد درويش ثم «ضيعت مستقبل حياتي» وانتهاءً بـ «أنا هويت وانتهيت وليه بقى لوم العزول»..

هي محبة للغناء جدًّا.. تقاطع التصفيق لتغني أدوارًا أخرى لكل ملحن على حدة.. يا حلاوة الدنيا، الورد جميل، وأعظم ألحان زكريا أحمد ومحمد

عثمان وداود حسني وكامل الخلعي... وإن وجدت وقتًا إضافيا ستغني بعض الأدوار الحلبية التي تنتمي لمسقط رأسها... ستخرج من هذه الليلة بغناء جميل وذكريات طريفة وممتعة مع أساطير الفن الجميل... إنها «لورد كاش».. واسمها الحقيقي لور من عائلة داكاش لكنها اشتهرت باسم لورد كاش...

ولدت بالشام وعندما لفتت الأنظار إلى موهبتها نصحوها بالذهاب إلى مصر باعتبارها مركز الشرق الفني... ومن لم يغن فيها كأنه لم يغن أبدًا.. وفعلًا ركبت مركبا إلى مصر في أوائل الأربعينيات من القرن الماضي. ويقال إن صباح أيضا كانت على متن هذا المركب، لكن من المؤكد أنها بمجرد دخولها مصر ذهبت مع صباح إلى أم كلثوم لكي تعطيهما مباركتها الفنية.

عملت كثيرًا في الملاهي والكازينوهات، وغنت بالإذاعة المصرية، واشتهرت أغنيتها «آمنت بالله» شهرة كبيرة ومدوية... هي أول امرأة بالشرق تحترف التلحين... أحبها رجل أعمال شهير في ذلك الوقت... ولم يعجبه عدم استقرارها بمكان، وقرر أن يشتري لها بيتًا... أخذها في سيارته إلى أطراف صحراء العباسية (المنطقة المسماة الآن مدينة نصر)... حيث كانت شركة مصر الجديدة تبيع أراضي مقسمة... نزلت لور من السيارة ومشت مع حبيبها على رمل الصحراء.. الشمس حارقة ولا نسمة هواء واحدة... لكنها صممت على التوغل أكثر... وفجأة هبت نسمات من الهواء أطارت تنورتها.. أسرعت لور بالإمساك بالتنورة من ذيلها، وجلست حتى لا تنكشف سيقانها.. هنا قال حبيبها بسعادة: سيكون بيتك هنا يا لور، إنها رسالة من السماء... هذا هو المكان الذي سيسترك يا لور. وفعلا عاشت بهذه الأرض التي بنت عليها فيلا صغيرة طيلة عمرها المديد...

لور مثقفة جدًّا تقرأ في الأدب والشعر... وكتبت أيضا بعض أغانيها، حتى عندما وصلت إلى سن الـ ٧٧ كان لها مشواران في الأسبوع، الأول يوم الجمعة إلى النادي حيث تلتقي صديقاتها.. والثاني إلى الأتيلييه حيت تلتقي محبيها... بمجرد دخولها في الـ٨٠ توقفت عن المجيء إلى الأتيلييه وخففت زيارتها إلى النادي، لكنها كانت بفيلتها تستقبل من تشاء... تأخذ موعدًا في البداية بالتليفون وستسألك أسئلة روتينية عن كيف توصلت إليها أو هل سمعت بعض أغانيها... ثم سترد على كل أسئلتك إن كنت صحفيا أو مهتما بحياة الفنانين... عندما ستتصل أكثر من مرة ستأنس إليك وتعرفك بمجرد نطقك أي حرف... وإن أصابك البرد مثلًا واختلط عليها الصوت... ستؤنب نفسها جدًّا لأنها لم تتعرف على صوتك وستظل تهمس «أول مرة ودني تخوني».

كان لها صالون ثقافي يوم الأربعاء من كل أسبوع تعقده ببيتها... تغني فيه وتتناقش حول الأعمال الفنية... وانتهى هذا الصالون بمجرد أن أقعدها المرض والسن...

لي صديق كان يذهب إليها باستمرار محبة في صوتها ونضالها الفني الذي لم تتبرأ منه قط. كان يحكي لي أساطير عن هذه السيدة العظيمة التي لم أرها أو أتعرف عليها إلا في الأتيلييه... يقول إن فيلتها الصغيرة حميمية وجميلة... بمجرد دخولك تستقبلك رائحة البخور والورد... وكانت حريصة على زينتها حتى في سنها المتقدمة ولا تهمل وضع الكحل... كما أن لها علاقة حميمة بالمفروشات والتطريز وألوان الستائر والمفروشات... والمكان كله مليء بالزهريات التي تتدلى منها الأزهار.. وكانت إذا ما رأت وردة ذبلت وقفت تنظر إليها بأسى وحزن... تستقبلك على كرسيها المتحرك وتضيفك كثيرًا

بمشروبات ومقبلات، وتصاحبك حتى باب الفيلا الخارجي ثم تلوح لك بحميمية... وإذا ما طلبت منها أن تغني ستلبي على الفور بعد أن تعتذر بعدم قدرتها على العزف على العود... وستطلق صوتها أخاذًا جميلا كأن الموسيقى لم تضف إليه كثيرًا.

هذه فنانة اتسقت مع نفسها حتى النهاية... لم تخرج علينا بمقولات سخيفة عن الفن والحياة... بينما في محيطها السكني نفسه، كانت هناك شاعرة ثرية ومتواضعة القيمة الفنية، تقيم صالونًا كل أسبوع تدعو إليه السفراء والدبلوماسيين والشعراء والأدباء... وتخرج إليهم بالأكتاف العارية والصدر المكشوف وتظل تتلوى في أثناء إلقائها ما تعتقد أنه شعر.. عندما كبرت وانسحب جمالها، أغلقت صالونها بحجة أن الشعر غير مستحب.. لكنها لا تمل الحديث ووصف ما كان يحدث في يوم ندوتها، من تكدس في المرور أمام بيتها يستلزم تدخل مدير الأمن شخصيًّا، وكيف كانت تطرد الصحافيين الذين كانوا يهتمون بالأكل أكثر من اهتمامهم بنشر أخبار عن صالونها...

وهناك صالون آخر طريف كان يقام كل يوم أربعاء وصاحبه كان مستشارا ورئيس محكمة استئناف، وكان محبّا للأدب، يستقبلك أمام باب الشقة بترحاب ويسألك عن هوايتك الفنية، ثم يستدير بحركة مسرحية تجاه صالة الشقة الفسيحة فتواجهك ستارة قطيفة فخمة تحجب رواد الصالون عن مدخل الشقة... يفتح الستارة على الجمع الغفير وينحني قليلا وهو يقدمك إليهم بصوت جهوري وأداء تمثيلي «حضر الآن الكاتب القصصي فلان.. أو جاء الآن المطرب الفنان ترتان»... ويدوي التصفيق في الصالون ترحيبا بك فتصاب بالبله والعته لو لم تكن تعلم بهذه المراسم.

نعود إلى لور ورقتها وحساسيتها... أحست وهي في مقابلة مع صديقي

بأنه قد يكون مفلسًا أو في حاجة إلى بعض النقود، بعد أن استدرجته وعلمت منه بأنه ترك الصحيفة التي يعمل بها بعد مشادات مع رئيس التحرير، واكتفى بعمله في التدريس... أعطته كشكولًا به بعض قصائدها وأغانيها وطلبت منه أن يراجعها لغويّا... لم تكن القصائد تعاني إلا من بعض العيوب البسيطة.. وأنهى الصديق المراجعة وناولها الكشكول فسألته عن ثمن التصحيح... غضب الصديق، فابتسمت ولم تعلق... وانتظرت زيارتين أخريين ثم أشارت إلى رف المكتبة وقالت له: «أنا جايبالك محفظة هدية... هو بصراحة أنا مش شارياها مخصوص... حد من أحفادي جبهالي وأنا مش لزماني وحبيت أديهالك».

ثم طلبت من الصديق أن يأخذ الهدية من على رف المكتبة.. وفعلا أخذها الصديق وشكرها... لكن عندما غادر الصديق بيتها، فض اللفافة وهو واقف ينتظر الأتوبيس، فوجدها محفظة جميلة، لكن عندما فتحها وجد بعض الأوراق المالية الكبيرة بداخلها... هرع إليها ورن جرس الباب وفوجئ بأنها فتحت الباب بسرعة كأنها كانت تنتظره: سألته بدهشة: «هو أنت نسيت حاجة»؟!

أخبرها الصديق بما وجده في المحفظة، فضحكت بصفاء وهي تقول: «يا عبيط ده فن إهداء المحفظة!.. إوعى تدي في أي يوم محفظة لحد وتكون فاضية... لأن ده يعتبر قلة ذوق... خصوصا لو كانت بنت بتحبها!»...

أخذ صديقي المحفظة بما فيها من نقود ولم يصرفها حتى اليوم...

عندما قال له الزملاء

في الخلية «الله يخرب بيتك!»





فلاش باك إلى ما بعد ثورة يوليو بقليل، حيث كان ما نطلق عليه «عم إبراهيم» الآن طالبا في نهائي ليسانس الحقوق.. شاب متميز دراسيا ومشهود له بالخلق الرفيع ومميز بثيابه الأنيقة ووداعته ووسامته وبعده عن النزوات الصبيانية والشبابية لأنه أتم نصف دينه بزواجه من قريبة ريفية.. هذه الأوصاف الجيدة كان جديرًا بها أن تلفت نظر جماعة الأخوان المسلمين إليه، خصوصا أن تلك السنوات كانت هي سنوات المد الكبرى في حياة هذا التنظيم... فات الجماعة هذا الأمر، بينما خلية شيوعية صغيرة جدا كانت مكونة حديثا هي التي انتبهت له، وبجهد يسير من منظمها استطاع تجنيده وكانت المعضلة، (على حد قول المنظم) «أن الخلية تعمل تحت الأرض منذ فترة وقد حان الأوان لتنتشر وتكبر ويعرفها كل شعب مصر»... لذلك تمت الدعوة لاجتماع عام لبحث هذا الأمر، وانتهى الاجتماع المهم برأي جماعي اتفق عليه جميع أعضاء التنظيم (كان عدده الفعلي عشرة بمن فيه من منظمين وأعضاء وعم إبراهيم والمرشدين المندسين داخله) هو ضرورة الخروج من النفق المظلم إلى النور، ليسمع الناس بالتنظيم وليحدث ما يحدث... ثم قال المنظم والزعيم:يجب أن نستغل أي تجمع يصادفنا وتسوقنا الأقدار إليه، ونعلن أهدافنا على الملأ..

سمع عم إبراهيم الكلام جيدا وحفظ الأهداف غيبا وبدأ في مراجعة

المنشورات التي سيسلمها للجماهير.. وكان هذا بداية حظه السيئ الذي سيلازمه طيلة حياته..إذ سرعان ما تم القبض عليه متلبسا بحيازة المنشورات.. واعتقل تمهيدا لمحاكمته... وهو بداخل المعتقل أرسل له زعيم التنظيم الهارب رسالة مع محام رفيق ملخصها أن ينفي كل شيء، ويصر على أن المنشورات مدسوسة عليه كما هو متفق عليه مع باقي زملائه المقبوض عليهم معه.

بعد عدة أشهر من التعذيب والإهانة تم عقد محاكمة عسكرية للتنظيم.. والتقى عم إبراهيم زملاءه في التنظيم لأول مرة منذ القبض عليه داخل القفص.. أعاد عليه الزملاء تعليمات الزعيم الهارب.. لكن عندما وقف عم إبراهيم خلف القفص، راح ينظر إلى هيئة المحكمة وانعكاس الضوء على نجومهم اللامعة، ومضى يقلب النظر فيما حوله من حضور كثيف بالقاعة من محامين وأهالي المتهمين وأفراد عاديين ولمعت في ذهنه فكرة جهنمية..

وعندما حان وقت دفاعه، طلب تنحي المحامي عن الكلام، فهو يعرف في القانون أكثر منه، وسمحت له هيئة المحكمة بالكلام في ريبة أول الأمر.. وانطلق عم إبراهيم في الكلام، معتقدا أن الفرصة سنحت له لإعلان أهداف الخلية أمام الجمع الغفير.. وتجاهل نصيحة الزعيم الهارب أمام هذه اللحظة القدرية التي وضعها التاريخ في طريقه، والتي لن يفلتها من يده، فلن تجيء مرة أخرى.. وانطلق في سرد منشور سياسي ضد الدكتاتورية العسكرية وحكم عبدالناصرالفاشي وانحراف الثورة عن أهدافها الإنسانية... ثم عدد مبادئ الخلية وأهدافها وضرورتها الحتمية.. وأعلن بفخر وسط القاعة انتقالها من مرحلة السرية إلى العلنية..

صمتت القاعة فجأة، ونظر أعضاء هيئة المحكمة بعضهم إلى بعض بدهشة.. ثم ابتسم رئيس المحكمة و«طس» عم إبراهيم وزملاءه حكما بعشر سنوات مع الأشغال الشاقة.. لم ينتبه عم إبراهيم لحظتها لما فعله، لكن

صاحبته لسنوات عديدة صيحة منكسرة لبعض زملائه «خربت بيتنا.. الله يخرب بيتك!»...

عندما خرج عم إبراهيم من سجنه كانت الأحوال قد تغيرت قليلا، وتم تعيينه محاميا في إحدى شركات القطاع العام، وعاش في عزلة إجبارية عن المجتمع القاسي يحاول تجنب الشرور والأذى وينتقي بحرص أصدقاءه وخلانه... وعاش في مثالية عجيبة يقف ضد الفساد والرشوة والمحسوبية بقدر بعده عن السياسة وبلاويها.. وعلم أولاده حتى وصلوا لأعلى مراتب التعليم وتفرقوا عنه متفرغين لأعمالهم الوظيفية المهمة في عواصم العالم..

وفي السنوات الأخيرة، فتكت به الوحدة تماما وفتحت باب ذكرياته الأليمة أيام سجنه الطويل في عنفوان شبابه دون امرأة تشاركه معاناته.. فارتد مراهقا أهوج لا يؤمن جانبه.. يتحرش ببنات الجيران وفتيات الحي وبائعات الخضار.. وأحدث كمًّا من الجلبة والمشاكل أعنف من الذي أحدثه لأهله عند القبض عليه في مستهل حياته.. وبالكاد استطاع عقلاء العائلة إقناعه باستئجار شقة في إحدى المدن الجديدة حيث لا يعرفه أحد وينفرد بنفسه... يبدأ يومه بزيارة للسوق القريب.. يوصي البائعات على سيدة منكسرة توضب له البيت وتنظف أغراضه... تبادله البائعات لؤمه بخبث أشد.. يرسلون له الواحدة تلو الواحدة، وكل واحدة منهن ملحمة في حد ذاتها.. وأغلبهن سارقات.. وعم إبراهيم لا يكف عن الشكوى.. بأن الشغالة التي أكرمها وآواها سرقت معاشه أو طمعت في مذياعه أو كتبه وأسطواناته، أو لطشت طقم الأسنان بتاعه.. حتى وفق أخيرا إلى واحدة بنت حلال ثلاثينية العمر، شابة، ولا بأس بها من ناحية الجمال... ظل يقول فيها أشعارًا من قبيل: «واخدة بالها مني، نظيفة، بتطبخ كويس، مش مزعجة ومبتسمعلهاش صوت»...

ثم زار صديق من أصدقائنا عم إبراهيم ليلا ووجد تلك السيدة تتأهب

للخروج ليلا، فتصور الصديق أنها ذاهبة إلى البقال لشراء بعض المستلزمات، غير أن عم إبراهيم قال له إنها بتشتغل شغلتين، عند عم إبراهيم من الصباح حتى الساعة العاشرة ليلا، ثم في مكتبة في الهرم من الساعة العاشرة حتى الصباح.. وأبدى عم إبراهيم استياءً لكون ورديتها دائما ليلا.. حاول صديقنا إقناع عم إبراهيم بأن المكتبات بالذات لا تفتح ليلا «هي صيدلية يعني؟!».. «هو الناس بتقرأ الصبح لما حتروحلها بالليل؟!» وعم إبراهيم مصر على أنها بنت حلال ومبتكدبش.. وحتى بعد أن سجنت السيدة ظل عم إبراهيم يقول: «ولاد الحرام غووها... إنما هي كانت بنت حلال»...

وصل إلى ما بعد السبعين الآن وما زال حريصا على أناقته وتناسق ألوان زيه.. يأتي إلينا مستقلا عربة تاكسي من المدينة الجديدة إلى المقهى، ويوقفه أمام باب المقهى بالضبط محدثا ربكة مرورية هائلة..لو أنت جالس داخل المقهى وتعطي ظهرك للشارع، فأنت في غير حاجة إلى معرفة مجيئه.. سيصلك سباب السائق وكلاكسات السيارات التي خلفه.. وصوت وقوع الأكواب وتخبط الصواني في أثناء جري صبي المقهى وبعض الرواد لفتح باب التاكسي لعم إبراهيم.. ثم سترى حركتهم ويصلك كلامهم الذي يدل على خوفهم عليه وحبهم له وهم يجلسونه بصدر المقهى.. عندما تهدأ الجلبة ستلاحظ عينيه الملونتين تتأملان رواد المقهى وابتسامته وهو يحييهم.. ثم ستستقر نظرته على شاعرة تتلو قصيدتها أو قاصة تقرأ قصصها أو فنانة تشكيلية تشرح لوحتها أو حتى فتاة عادية بانتظار من لا يجيء.. سيركز عم إبراهيم نظره قليلا على الفريسة، ثم ينهض بعافية غريبة تجاهها.. وسيتكلمان فورا حتى لو لم يكن يعرفها من قبل.. ويتضاحكان بصفاء، وقد تأكل ساندوتشا من الذي يحمله بشنطته أو تشاطره برتقالته حتى يأتي السائق أخيرا ويصطحبه وحيدا إلى منزله.

من نوادره الأليمة الأخيرة ومن جراء طيبة قلبه الخالص، أنه اصطحب

فتاة شبه معتوهة تعيش في الشارع، وصعد بها إلى شقته وتركها تستحم حتى ينتهي من تحضير وجبة صغيرة.. لحظه السيئ القرين به دائما، كان الجيران يترصدونه ويجهزون له كمينا.. وبعد وقت محسوب، أبلغوا الشرطة التي أتت سريعا على غير العادة، ولفت السيدة العارية في ملاءة وقبضت على عم إبراهيم وبيده طاسة البيض.. عند عرضه على وكيل النيابة رفض كعادته ـ التي أودت به قديما ـ أن يقوم المحامي الذي أوكله له بعض الأصدقاء بالدفاع عنه.. وقرر مواجهة النيابة والإعلان عن موقفه في عقر دارها.. وصرح بأن القانون لا يجرم الصداقة بين الرجل والمرأة، وأن الدستور يكفل حقوق المواطن.. واتهم الجيران بإزعاج السلطات، وحفظ حقه في الرجوع بالتعويض على من تسبب له في هذا الأذى.. كما هرتلت السيدة التي قبض عليها معه ببعض كلمات باللغة الإنجليزية (يعلم الله كيف وأين تعلمتها؟).

واضطر وكيل النيابة لحفظ القضية للاستحالة البيولوجية في وجود علاقة بين عم إبراهيم والسيدة... هل تصدقون.. أن هذه العبارة التي دونها وكيل النيابة في نهاية المحضر لتثبت براءة عم إبراهيم.. هي التي أكأبته وجعلته يبدو منهزما منكسرا في الأيام الأخيرة. ويتمتم كثيرا: «استحالة بيولوجية يا أولاد الكلب»؟!

الحالمون



ذات ليلة من ليالي الشتاء الصعبة، انسللنا واحدًا تلو الآخر خلال فترات زمنية متباعدة، صاعدين إلى الجزء العلوي من كافتريا ومقهى «علي بابا».. كانت الندوات والمسامرات تنفض مبكرًا في أيام الشتاء، ويرحل العشاق والرواد الكبار..

يظل عم عبدالله، الجرسون العجوز، يباغتنا بنظراته القاسية.. يسب ويلعن في الندوات التي تجعله لا ينتبه لهرب الزبائن دون دفع الحساب! وليتهم اكتفوا فقط بالهرب، بل أخذوا أيضا معهم الكوبايات والملاعق وأواني السكر.. كنا نظل أمامه بكمًا، لا نجرؤ حتى على الهمس؛ فالاعتراض معناه أن يفتح لك باب المقهى الزجاجي ويطردك فيشفطك الصقيع.. كنا نتحمل بصبر سخافاته وتلقيحاته.. وإذا ما قرصنا الجوع نقترع في صمت على من يخرج في هذا الجو الجهنمي ليأتي إلينا بسندوتشات الفول والطعمية.. وكان الذي يخرج منا غالبا هو أقلنا اكتئابًا.. كان لا يخرج إن صح التعبير، بل يتسلل مستغلًا انشغال عم عبدالله بأي شيء، محاذرًا أن يسمع عم عبدالله صرير الباب وهو يفتح، فيترازل ويغلقه من الداخل غير آبه بمن خرج.. واذا ما انتصف الليل وهاجمنا الصقيع في الجزء السفلي، صعدنا إلى الجزء العلوي بخطة محكمة ورتيبة، كان عم عبدالله غالبًا ما يطنش ويتغافل..

وعندما تخبو الحركة تمامًا ويبدو أنه لا أحد سيدخل المقهى في هذا التوقيت.. كان عم عبدالله يغلق الباب من الداخل بصخب ويصعد إلى حيث

نكون.. يلقي علينا بنظراته الساخرة وهو يجلس في مواجهتنا.. يستمع إلى كل ما نقوله ولا يبدو عليه التأثر سواء كان ما قلناه تراجيديًا أو كوميديًا أو خناقات صبية أو مشادات حول نظريات نقدية أو خلافات عبيطة حول الفتيات.. كان التعب يهدنا فننام في أماكننا ونحن جالسون، والنوم يغالبه فيقاومه بشدة حتى لا يتيح لنا الفرصة بمد أقدامنا على الكراسي المقابلة.. أو الاسترخاء للخلف.. وكان كثيرًا ما يهددنا بعدم السماح لنا بالمبيت مرة ثانية، ولم يفعلها أبدًا.. كان أبًا عطوفًا رغم قسوته الظاهرة..

وحين يؤذن مؤذن الجامع القريب لصلاة الفجر كان ينتفض من جلسته، وينهرنا بشدة حتى لا نتلكأ في النزول من الطابق العلوي.. وكان يوقظ عامل البوفيه ويتعاونان في تنظيف الدور العلوي ليصبح جاهزًا لاستقبال رواد المكان الصباحيين، وعلى رأسهم أستاذنا نجيب محفوظ.. وكانت بلاهتنا وطيشنا وقلة رباتنا على أشدها حينئذ، فلم نجالس الأستاذ إلا نادرا.. وكنا نتعامل مع كتاباتنا كأنها سر فيما بيننا غير مقبول عرضه على الكبار الذين قد يسفهونه حقدًا وغيرة..

في تلك الليلة الشتوية الصعبة بعد منتصف الليل بقليل والشوارع ساكنة سكون المقابر.. رأينا فتاة تسير بسرعة على أرضية كوبري المشاة المقابل للكافتريا.. كان منظرها غريبا.. بالبندة الحمراء التي تلف جبهتها ويتدلى منها في الخلف شعرها الأسود الطويل.. وبسيرها السريع ثم وقوفها البطيء تتأمل الشوارع الهادئة من أعلى ثم تكمل سيرها.. لفّت الفتاة الكوبري أكثر من مرة.. ونحن نرقبها من خلف زجاج شرفة الصالة العلوية.. قطعنا حواراتنا وانشغلنا بها.. ثم تحمس شوقي هاوي المسرح للحاق بها.. نهض شوقي وقال لعم عبدالله الذي كان يتابع المشهد مثلنا: «أجيبلك معايا سجاير ياعم عبدالله؟».. الغريب أن عم عبدالله لم يعترض على خروج شوقي في ذلك التوقيت.. بل مد إليه يده بالمفاتيح بسرعة.. وكانت هذه معجزة ثانية؛ فالمفاتيح بالنسبة لعم عبدالله كبندقية الجندي.. لا يتخلى عنها مطلقًا..

صعد شوقي الكوبري، وكلما اقترب منها كانت تتباعد بمسافة قليلة كالحمامة المنزلية.. لم تكن تلتفت إليه، فقط كانت تسمع صدى خطواته تقترب، فتمد هي خطواتها إلى الأمام.. ثم وقفت تنهره.. ثم عاتبته.. وبدأ هو يحادثها.. ثم أشار إلينا، كأنه يقول لها إن هناك مكانًا آمنًا قريبًا.. حدقت الفتاة بعض الوقت في اتجاه إشارته، لكنه لم يتركها تتملص منه وجذبها من يدها إلى أقرب نقطة بالكوبري يمكن أن تميزنا منها.. ثم هبط بها الكوبري وصعد بها إلينا..

لم يسأله عم عبدالله عن السجائر لكن ظل فترة يرقب الفتاة وهي تنتفض من البرد، وغافلنا ونزل إلى عامل البوفيه.. وعاد وبيده كوب من السحلب الساخن قدمه للفتاة التي ضمت كفيها عليه واحتسته رشفة رشفة بلذة واستمتاع وبدا عليها كأنها لم تذق طعم الزاد من أيام... قدمها شوقي إلينا باسمها الأول الذي عرفه في الطريق وقدمنا إليها..

حكت الفتاة حكايتها المألوفة عن زواج الأم بعد وفاة الأب من زوج متسلط جبار ظل يؤذيها ويضربها ويحاول التحرش بها، وعن وقوف الأم بجانب الزوج مكذبة الابنة في كل ما تدعيه عن الزوج.. وعن الجحيم الذي عاشت فيه.. حتى هروبها من بلدتها إلى القاهرة بعد موت الأم وعدم رغبة أحد من أهلها القريبين في استضافتها باستثناء زوج الأم الطامع في تذوقها..

كان عم عبدالله يستمع مثلنا وكنا نعرف أنه زوَّج كل أولاده ويعيش مع زوجته في مكان مناسب لإيواء الفتاة.. لكنه لم يتطوع لاستضافتها.. فقط جذب مجموعة فوط من التي تغطي المناضد وجعلها تتدثر بها.. وفي الصباح أحضر لها بعض سندوتشات الفول والطعمية وقدم لها الشاي بالحليب.. أما شوقي فبحكم أنه الذي جاء بها من الكوبري فقد نصب نفسه كفيلًا لها.. عندما ذهبنا إلى جامعتنا ومصالحنا وعدنا ليلًا، كان شوقي لصيقًا بها وذابت الرسميات فيما بينهما..

كنت قد عرفت شوقي في كافيتريا كلية التجارة.. جاء عضوًا بفرقة مسرحية جديدة اسمها «مجانين المسرح» كانت تجوب الجامعات بزي أحمر يسترعي النظر، عليه شعار الفرقة.. وكانوا يقدمون عروضًا على خشبات الكليات.. تعرف بنا شوقي وبالمهتمين بمسرح كلية التجارة وعمل مساعدًا للإخراج في أكثر من مسرحية بالكلية.. ولازمنا في مقاهي وسط البلد وكافيترياته.. ويبدو أن هوايته وحبه للمسرح جعلته غير ملتزم في العمل فاستقال منه، وأثار استياء الأهل فغضبوا عليه فمضى يتنقل بين البنسيونات وغرف السكن والتسكع على المقاهي والكافتريات حتى استقر بـ«علي بابا».

أيام قلائل مرت وتزوجها شوقي ولازمته رسميّا على الكافتريا.. لا يذهبان إلى مسكنها الصغير المؤجر حديثًا إلا بضع ساعات ثم يعودان، وهو غرفة وحيدة في الحقيقة (ساعدهم على استئجارها عم عبدالله).. شاركته أحلامه في المسرح كتابة وتمثيلا وفي إبداء الآراء الفنية أيضا.. لم نكن أيامها نرى في هذه الزيجة أي ميزة.. فالفتاة تعيش ظروفًا أصعب من حياتها بالبلدة.. كانت تنام وسط سهراتنا. وتنحف بسرعة الضوء.. وكان شوقي دائم الشكوى من الحالة المادية المنعدمة أصلًا والتي زادت بمسئوليته الجديدة.. وكان قرار الزواج بمثابة تأشيرة للجنون..

ما زلت أذكر شهر رمضان التالي لزواجهما وهما يجلسان يوميّا على المقهى وأمامهما كومة كبيرة من الصحف والمجلات التي تنشر فوازير رمضان في إذاعة البرنامج العام، والشرق الأوسط وصوت العرب والقناة الأولى والثانية والثالثة، غير فوازير الصحف نفسها.. كان شوقي يقضي يومه في حل هذه الفوازير وإذا استعصت عليه فزورة يسألنا.. واستطاع في هذا الشهر حل جميع الفوازير المرئية والمسموعة والمقروءة وجمع الإجابات وسهر على ترتيبها ووضعها في مظاريفها ليلة عيد الفطر ثم أرسلها.. لكن لم ينجح في أن يحصل على جائزة واحدة حتى لو كانت متواضعةموبدا كأن

الحظ السيئ متحالف معه.. مشاكل متتالية في الأعمال التي عمل بها، حتى في الوظائف التي لا تحتاج مجهودًا ذهنيًا.. واشتدت تعاستهما عندما أنجبت الفتاة طفلة ثم طفلًا وأصبح الهم مضاعفًا.

توسط لهما زميل للعمل يومًا واحدًا بفيلم سينمائي.. كان المخرج قد أعد «اللوكيشن» وهو عبارة عن كافيتريا يجلس بها البطل والبطلة يتجادلان ثم يتخانقان وخلفهما مجاميع من الممثلين الثانويين يأكلون أو يشربون حتى انتهاء المشهد.. أجلس مساعد المخرج شوقي وزوجته على مائدة عليها أطباق الأرز والدجاج والسلاطة وطلب منهما عدم الاقتراب منها حتى انتهاء المشهد.. قال المخرج «أكشن».. ثم أخطأ الممثل في نطق عبارة أو إشارة فقرر المخرج إعادة المشهد وفي أثناء دورانه حول مائدة شوقي هاله أنها أصبحت جرداء.. صرخ فيهما وطردهما. (أعتقد أن هذه الحركة تكررت كثيرا من المجاميع حتى انتبه المنتجون وقرروا حفاظا على «البريك» أن يرشوه بالبيروسول بكثافة حتى لا يجرؤ أحد من الكومبارس على الاقتراب منه، وقد حدثت بعض الحوادث المؤسفة بسبب أكل هذه الأطعمة من أناس في مثل ظروف شوقي تلك).

لم تتحمل الفتاة هذه المعيشة لأكثر من سنوات ثلاث.. ثم واصلت سلسلة هروبها، تاركة خلفها طفليها وتكفل شوقي بتربيتهما... قابلني مصادفة في العام الماضي، وقال لي إن ابنته تخرجت من إحدى كليات القمة وتزوجت، والولد في نهائي كلية الهندسة.. والأم لم يعد أحد يسمع عنها شيئًا..

عاد شوقي الآن بعد أن أكمل مهمته الحياتية لعشقه الأول، المسرح، كأنه لم ينقطع عنه يومًا واحدًا.. أعتقد أنه لم يضع وقته هدرًا، وعلى رغم أن نداهة الحياة جرته إلى واقعيتها القاسية لكنها نهاية أفضل قليلًا من الحياة الافتراضية السعيدة.

العصفور



شخصية ربما لن تجدها كثيرًا في الواقع بقدر ما ستقرأ عنها كثيرًا في الأدبيات الكلاسيكية العالمية.. مثقف فوضوي عبثي مثالي إلى درجة الطهارة ومدنس إلى ما قبل الحضيض.. خريج كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.. يعرف كثيرا عن المذاهب السياسية والأفكار الفلسفية وبعض الإنجليزية، ولديه معرفة وثيقة بقاع المجتمع والحدود الدنيا من كل شيء.. لكنه رغم ذلك ظاهرة شفاهية. لا يمل الكلام والحوار والمداخلة والجدال.. باختصار هو يعتبر الكلام وظيفة وعملًا..

أينما سرت في وسط البلد بشوارعها وأزقتها، بمقاهيها وباراتها، كنت حتمًا ستجده، على المقاهي وفي البارات وعلى منصات الندوات وفي الفنادق الفخمة وقاعات المؤتمرات والبنسيونات الرخيصة.. يتنقل في كل مكان بخفة العصفور... الحياة بالنسبة له ليل ممتد وكلام بلا انقطاع وعلبة سجائر «بلمونت» وزجاجة براندي ٨٤.. شطح يساريته جامح يصل إلى أقصى المثالية وتحليلاته الاقتصادية مليئة بكتل من العواطف والأخيلة وبها حس متفجر بالعدالة الاجتماعية (التي لن تتحقق طبعًا) ويمكن اعتبار خطابه المثالي اليساري هو الذي أدّى دورًا كبيرًا في التخفيف من حياته القاسية القاتمة.. فقد كان يعيش في ظل ظروف صعبة بمدينة القاهرة بعد أن آثر البقاء فيها على الرجوع إلى مدينته «بورسعيد»..

شخصيته تتميز بكل سمات البورسعيدي التقليدي.. من مبالغات وفهلوة ومعارضة وإقبال على الحياة.. كان قليل الاهتمام بالأكل والنساء.. وإذا

حدث وأعجب بفتاة كان يستخدم الرطانة الثورية كوسيلة للإغواء العاطفي.. فهو يفضل عدم استخدام مهارته الذكورية ويستخدم بدلًا منها الديماجوجية اليسارية باعتبارها مثيرًا جنسيًّا خصوصا مع كريمة الطبقات الوسطى من الفتيات خريجات اللغات الأجنبية.

عاش ظروفًا صعبة جدًا عقب تخرجه، وتعامل مع الآخرين على أنهم جيوب مملوكة له وميزانيات أصدقائه ومعارفه ملكية خاصة، من حقه أن يتصرف فيها كما يشاء في الوقت الذي يشاء.. إلى أن تحسنت حاله جدًا بعد أن بدأ يقبض بالدولار الأمريكي من أكثر من منظمة مصرية لحقوق الإنسان، ومن استشارات اقتصادية وسياسية لبعض أعضاء مجلس الشعب... ولكن لأن حياته تاريخ شخصي من اللا التزام المادي.. كان يبدأ أول يومين من الشهر بهجمة جدعنة حذرة (عزومة ينفق فيها أقل القليل على بعض الخمور الرديئة والجبنة بالطماطم والشيبسي وحبات الزيتون).. ثم يعيش طيلة أيام الشهر الأخرى كسابق عهده.

الأصدقاء أطلقوا عليه أكثر من اسم وأكثر من لقب: «الفراشة»، «العصفور»، «أبو التعاطي»، «غطاطي»، «البتانوني»... كان لا يغضب من هذه التسميات كلها.. يفرد ابتسامته على وجهه ويجلس حتى لو كان لا يعرف من الجالسين حول المنضدة غيرك.. ثم ينطلق في الكلام بادئًا على الأغلب من خلفيته اليسارية السفلية منتهيًا بعلاقاته برجال الأعمال الجدد واستشاراته الملهمة لهم كإقامة مشروعات جمبري في اليمن أو مصانع لعطر المسك في الصحراء الشرقية..

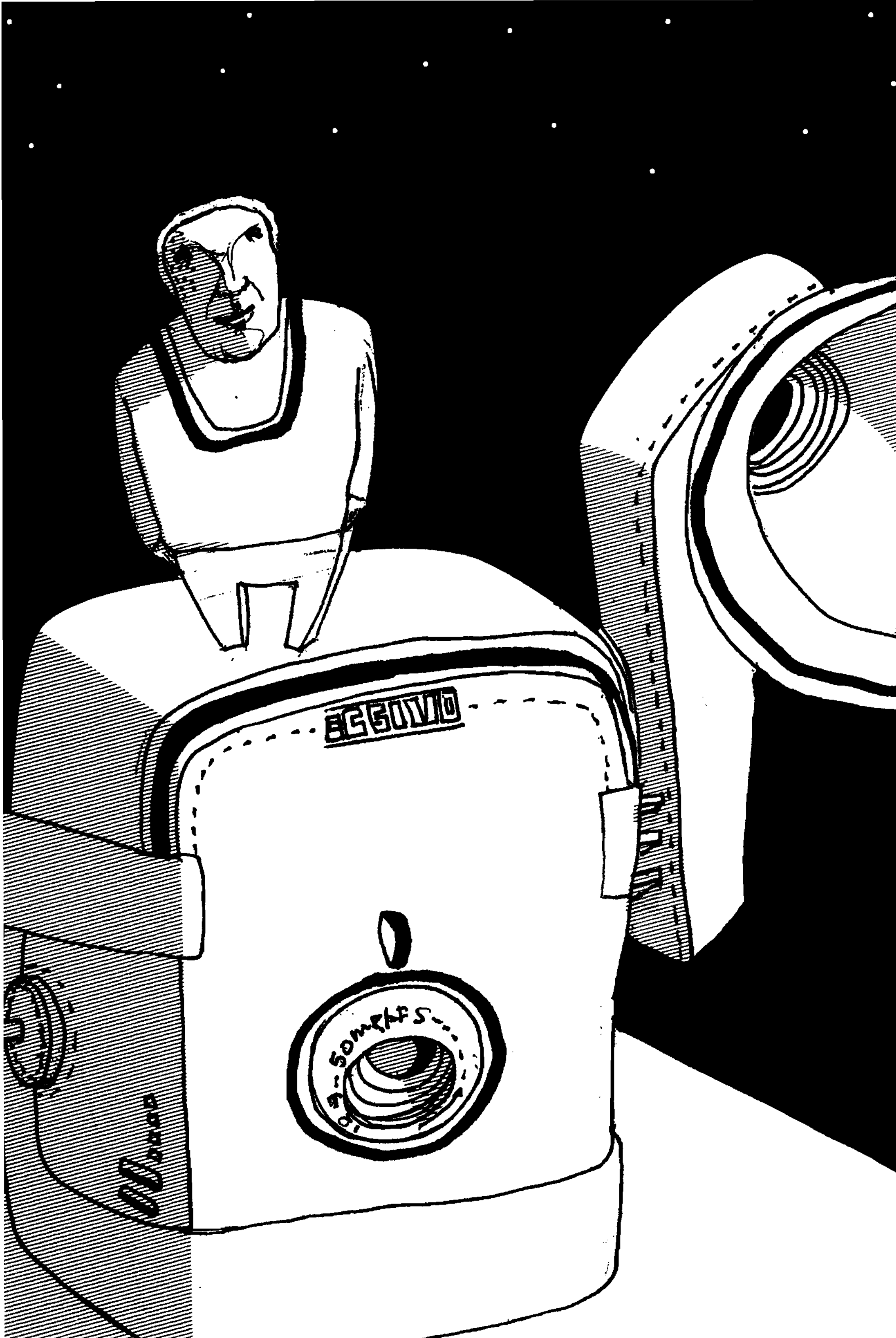
كان يتعاطف بسرعة مع الفتيات المضطهدات خصوصا من المومسات.. وحدث يوما أنه منع الأذى عن مضيفة مسكينة في أحد المحال الرخيصة.. أعجبت به الفتاة وصممت على الذهاب معه إلى بيته، وباتت معه ليلتها مكافأة على حسن صنيعه... وكالأفلام العربي القديمة بالضبط، عاد «العصفور» بعد انتهاء دوام عمله إلى غرفته التي فوق السطح فوجدها غير ما تركها.. الصحون مغسولة والسرير مرتب والكتب التي في كل مكان مكدسة في ركن.. شكرها العصفور على مضض أول الأمر.. ثم افتعل معها خناقة وطردها بعد أن اختنق من النظام.. وعاد إلى فوضاه المحببة..

كانت له علاقة جيدة بأحد أعضاء مجلس الشعب عن دائرته الإقليمية.. وكان يعاونه كثيرًا.. لكن يبدو أنه كان سكران مرة وأعطى النائب بيانات وإحصاءات غير دقيقة.. استخدمها النائب في استجوابه لأحد الوزراء.. ثم تبين أن البيانات والإحصاءات التي أعطيت له مضروبة.. انقطعت علاقته بالنائب بعد هذه الحادثة، وضاقت به سبل الحياة مرة أخرى.. وقرر السفر إلى إيطاليا.. وبدأ يقامر على لعبة الدومينو حتى يتمكن من جمع مبلغ تذكرة السفر.. عطف عليه نائب جنوبي لأفكاره الثورية، ولسماره الذي يقربه إلى الجنوبيين، وساعده في السفر عن طريق بعض النوبيين المقيمين في إيطاليا.. كان من المفترض أن يشرف على محال الخضراوات والفواكه التي يملكها الذين ساعدوه في السفر نظير أجر مجز، لكن لأنه شخصية برية تمامًا.. ينام حتى وقت متأخر ويقضي بقية اليوم في السكر والكلام الكثير ولا يبالي بعمله.. ضجروا منه وأعفوه من العمل..

تكاثرت أمامه الأبواب المغلقة لفوضويته وعدم التزامه حتى نجح أخيرًا في الاقتراب من بعض الصحف الإيطالية اليسارية وعين في إحداها رغم عدم إجادته اللغة الإيطالية.. إلا أنه لم يستمر أيضًا في هذه الصحيفة بعد أن اتضح أنه يستغل وقت الدوام في الاتصال بالقاهرة مجانًا من خلال الخط الدولي مع كل أصدقائه مما كبد الصحيفة اليسارية خسائر فادحة.

زار مصر أخيرًا في الأشهر الثلاثة الماضية.. لم يخبر أحدًا من أصدقائه المقربين، ومر بمنطقة وسط البلد مصادفة كالشبح.. هذا الذي كان يظهر في أكثر من مكان بوسط البلد في الوقت ذاته.. بدا كارهًا جدًا للمنطقة. هو إيطالي حاليًا، يستقبل أصدقاءه بإيطاليا برحابة صدر ويتعامل مع دولاراتهم كأنها دولاراته، ويحذرهم من أبناء الجالية العرب بإيطاليا بعد أن فشل في دخول التركيبة العربية هناك.. ويتعامل هناك باعتباره كائنا كونيا ضد العولمة.. يعمل من خلال الجمعيات التي تعمل مع نظائر لها في أوروبا لإلغاء دور الوسيط بين المنتج والمستهلك للتخفيف عن المواطن الكوني المسكين.

الشغل بيجيب الفقر



باسم الوجه، بشوش ودمث الأخلاق.. متعدد المواهب والملكات.. فهو يكتب الشعر العامي والفصيح والقصة والسيناريو، وله محاولات مبشرة في الرسم الكاريكاتيري والبورتريه.. كان زملاؤه بمعهد السينما (إيمانا بموهبته وتميزه بقسم السيناريو والإخراج) يطلقون عليه لقب «فيلليني» تشبها بالمخرج الإيطالي الفذ «فيلليني».. وكانوا يراهنون عليه..

لكنه عقب تخرجه من المعهد، اعتزل الإخراج من فوره؛ لحادثة قدرية عجيبة حدثت في أثناء تحضيره لفيلم التخرج.. فقد أعد لكل شيء عدته.. كتب موضوعا مبتكرا وأحكم تسلسل السيناريو واختار مكان التصوير بعناية بعد معاينات عديدة.. وكان المكان عبارة عن سطح كبير لأحد بيوت بولاق.. لم يراهن على أحد الوجوه الشابة بطلا لفيلمه كما يفعل الزملاء، ولا على النجوم كما يفعل الزملاء المتيسرون المنتسبون لعائلات فنية معروفة.. اختار ممثلا شابا من بلدياته لدور البطولة.. بعد أن رآه وتابعه في أكثر من عرض مسرحي على خشبات قصور الثقافة.. وتفرغ لتدريبه طويلا في المسرح العائم وفي حديقة أتيلييه القاهرة وحتى على مقاهي وسط البلد.. وعندما اطمأن تماما لسلامة اختياره، دفع به ليعتلي أولى درجات المجد..

المشهد الأول والافتتاحي بالفيلم كان كتلة ضخمة من النيران سيخترقها

البطل لإنقاذ حبيبته.. وأصر مخرجنا الطليعي على أن يكون المشهد طبيعيا مائة في المائة.. فدلق أكثر من صفيحتين من البنزين على كومة كبيرة من الأخشاب تتوسط السطح.. ثم صرخ: أكشن.. والباقي متوقع ومعروف، حيث تم إنقاذ الممثل بصعوبة وحجزه بمستشفى قصر العيني يعالج لأكثر من شهرين، خرج بعدها بنسبة حروق تتجاوز الـ٨٠٪، فعاد إلى بلده معتزلا التمثيل إلى الأبد.

اكتأب صاحبنا بعد هذه الحادثة التي جعلته يقرر اعتزال مهنة الإخراج، لكن سرعان ما عاد إصبع الزمار يلعب وبدأ في كتابة السيناريوهات.. السيناريو الأول الذي كتبه كان جيدا فنيا وخياليا من حيث التكلفة الإنتاجية بما لا تستوعبه مقاييس السوق آنذاك.. لف به صاحبنا على كل شركات الإنتاج السينمائي، وعجز تماما عن إيجاد شركة تغامر وتتحمل تكاليف إنتاجه الضخمة.. كان قد أنفق عامين في كتابة هذا السيناريو، وعاما في محاولة تصريفه ولم يجن منه شيئا.. وكان قد تعرف على شركات الإنتاج وعرفوه...

كانت الموضة السائدة حينذاك هي المسلسلات التليفزيونية.. فبدأ دخول هذا المجال بكتابة معالجات درامية لا تستغرق منه أكثر من أسبوع يقدمها لشركات الإنتاج التي تبهرها جدا هذه المعالجات، فتعطيه دفعة مالية كبيرة كعربون في انتظار أن يأتيها بالحلقات.. اكتشف مخرجنا المعتزل أنه في شهر واحد كتب أربع معالجات درامية لأربعة مسلسلات وحصل منها على مبلغ ضخم تزوج به واستقر، فاحترف هذه المهنة يقبض العربون بعد تقديم المعالجة ثم لا يهتم بكتابة السيناريو.. كما بدأ يقدم المعالجة نفسها لأكثر من شركة ويقبض ثمنها ويختفي، حتى عرفت لعبته أغلب الشركات الإنتاجية، وامتنعت عن دفع أي عرابين.

لم ييأس صديقنا وبدأ يسأل نفسه: ما الشيء المريح الذي لا يأخذ وقتا كبيرا في الكتابة؟ ووجد أنها الأغاني.. ومن هنا بدأت محاولته كتابة الأغاني.. لكنه فشل أيضا في تسويقها لصعوبة وصوله إلى ملحنين يتبنون أفكار أغنياته، ومن ثم يعرضونه على مطربين مشهورين.. فما كان منه إلا التعرف على بعض كتاب الأغاني الشباب وعرض بعض أغنياته عليهم.. وكان بعض كتاب الأغاني الشباب فور سماعه يتلو أغنياته، يقايضونه بمبالغ صغيرة ويشترون بعض مذاهب الأغاني التي تعجبهم ثم يكملونها ويكتبون عليها أسماءهم.. وكان يبيع بسهولة ولا يبدو عليه أي رد فعل عندما يسمع أغانيه يشدو بها المطربون في راديو المقهى بأسماء آخرين.. كان يبتسم وينكر أنه ساهم فيها بحرف واحد!.. للحقيقة لم تكن تعنيه هذه المشكلة أبدا.. أو أي مشكلة أكبر.. وحتى لو لم يكن في جيبه قرش واحد فهو واثق بأن مراكب الخير سترسو على شط المقهى الذي يجلس عليه وتقذف له بكنز علي بابا.

كان قد عين مخرجا في المبنى الذي ولد عملاقا.. ولما شاهد بعينه كم الفساد والرشا والمحسوبيات، قرر ألا يذهب إلى هذا المكان للعمل أو للزيارة باستثناء أول كل شهر حين يقبض راتبه.. وصارت له مقولة شهيرة صارت مثلا وهي «الشغل بيجيب الفقر..»! وأضاف لها بعد أشهر قليلة «الإيد البطالة نعمة..»!. ترك السنوات تأكل أحلامه وآماله وابتسامته لا تزال تكبر، وحلمه أرسخ من جبل المقطم بأن المراكب حتما ستأتي.. غير مهتم بالمبنى وصراعاته التي تصل إلى حد الجنون.. منعزل تماما عن مؤامراتهم وحيلهم وألاعيبهم وشبكة مصالحهم العنكبوتية الفولاذية.. غير مدرك أيضا أن الدفاتر الحكومية قد تتحرك أحيانا بغير ما ينتظر أصحاب المصالح وبما يخالف هواهم. وهذا تقريبا ما حدث...

رقي فجأة إلى منصب مدير إدارة الإخراج لأنه من خريجي معهد السينما ومن أقدمهم في التعيين وتقاريره السنوية ممتازة وليست بها مخالفة واحدة.. لكنه بحكم العادة التي لم يغيرها أبدا.. قبض راتبه وتسلَّم مركزه كمدير للإدارة وعاد إلى بيته، وكما اعتاد دائما لم يحضر طيلة هذا الشهر أو الشهر الذي يليه.. وكانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير.. تحرك أصحاب المصالح الذين يحلمون بهذا المنصب بجنون.. وأمطروا المبنى بالشكاوي.. منها أنه لم يحضر منذ عامين فكيف يترقى؟ (مع العلم بأنهم خالفوا الحقيقة فهو لم يحضر منذ ١٨ سنة).. انصاعت الإدارة للشكاوى وتم إيقاف راتبه والتحقيق معه وإنذاره بالفصل مع وقفه عن العمل لمدة تزيد على العام.. عام كامل لم يقبض فيه مليما، وهو ما زال يكلمنا والابتسامة لا تغيب عن وجهه عن سعادته ببعده عن هذا المبنى الموبوء (وكأنه كان موجودا فيه بالفعل!)، ولم يستمع لنصائحنا بتوكيل محام حتى لا يفصلوه نهائيا ويتشرد أولاده..

كانت الشهور تمر وابتسامته التي كانت تنومنا مغناطيسيّا، لا تزال على وجهه وما زالت تجعلنا لا نرفض له طلبا.. وبعد أن ندفع له ما يطلبه نظل نؤنب أنفسنا كيف طاوعناه وكيف لم نستطع الرفض.. تطوع أكثر من صديق من أصدقائنا المحامين بالحضور معه في أثناء التحقيقات، لكنه رفض بحسم قائلا بأن رفته أفضل حتى يعود مرة أخرى إلى الإبداع.. كنا ننظر لبعض ونسكت.. وهاجمه أحدنا بشدة على استسلامه؛ فالأمر لم يعد يخصه فقط، لكن يخص أيضا أولاده وزوجته.. غير أنه كان يقول بوداعة: «المراكب ستأتي»!

وحتى إذا ما توقفنا عن مساعدته لإحساسنا بأنه يستمرئ حكاية وقفه عن العمل ولا يريد أن يجد منفذا آخر يسترزق منه، كان يفاجئنا بما يجعلنا نؤمن بأن العناية السماوية دائما في صفه.. فمثلا يهبط عليه أقارب من بلدته

لهم ابن ينوي الدخول إلى معهد السينما فيذاكر له مدة شهر أو شهرين حتى موعد التقدم للمعهد ويحصل في النهاية على مبلغ جيد يعينه على الحياة.. أو أن تحل مشكلته المعقدة في العمل بحل لم يكن في الخيال، إذ تكتشف الإدارة القانونية بعد تحقيقات مطولة، أنها إذا اعتمدت كلام الشاكين بأنه لم يوجد في مقر عمله منذ عامين باستثناء أيام صرف المرتبات فسيرفت فعلا.. لكن ليس هو فقط.. بل هو وكل رؤسائه الذين كانوا يوقعون تقاريره السنوية بامتياز.. ولأن هذه القيادات مسنودة ولا يجرؤ أحد على المساس بها فما بالك برفتها؟!.. اعتبروا أن هذه الشكاوى كيدية، وتم صرف جميع المبالغ الموقوفة له بالإضافة إلى الحوافز والمكافآت، وأعيد مرة أخرى إلى عمله كمخرج فقط بدون مناصب مهمة تثير عليه الحانقين..

قلت له ضاحكا: المراكب جاءت. لكنه أكد لي بيقين أنها لم تأت بعد.. لكنها حتما ستجيء.

إنه إنسان بسيط وجميل.. أضفى جمالا وإشراقا على منطقة وسط البلد.. ولم يستفد من مجمع المواهب الذي يمتلكه والذي وهبه له الله، لكني أتمنى أن تتوزع مواهبه على أولاده ليصبحوا من المشاهير.. وألا يورثهم مقولة «الشغل بيجيب الفقر»، وأن يوزع علينا فيضا من تفاؤله ورضائه وإقباله على الحياة فهذا ما ينقصنا جميعا.

كلمة السر.. أبو شقرة



فاتنة جدّا وضئيلة الحجم ووجهها جذاب بالمكياج الصارخ كالممثلات الشهيرات.. عيناها خضراوان وخداها يطفحان بالدم.. صامتة في أغلب الأحوال.. دائما تراها وهي واقفة وحيدة في جاليريهات الفن التشكيلي، وفي أروقة أتيلييه القاهرة، وفي نهايات قاعات المحاضرات بنقابة الصحفيين، وفي حفلات توقيع الكتب الجديدة للمؤلفين الكبار.. تتابع بحياد وبعين خالية من الدهشة وقائع ما يجري.. ثم سرعان ما تختفي كالطيف.. وفي أوقات قليلة تعد على أصابع اليد ضُبطت وسط التجمعات الصغيرة بالمنتديات الثقافية تناقش وتجادل بحماسة فاترة.. تتكلم عن أيام الملكية ومساوئ حكم العسكر، والتغيرات المزرية التي حلت بوسط البلد وغيرت معالمها، وبدلت بأهلها الرعاع والحرافيش.

هي جذابة للنظر جدّا، ليس فقط بسبب الجمال أو الدلال أو رائحة البرفانات النفاذة، إنما أيضا بسبب ملابسها وألوانها الفاقعة الغريبة المتحدة مع لون الشنطة والحذاء في تناسق مربك يصيبك بالتلوث البصري على الفور..

إذا ما دخلت إلى قاعات الاستماع بالأوبرا، أو إلى مركز الإبداع لرؤية فيلم ما أو مشاهدة مسرحية جديدة..فإنك ستجدها تدخل قبل بدء العرض بدقائق معدودة، تمشي بمحاذاة جدران المسرح، وهي تصدر صوتا حادا من كعب حذائها حتى تنتقي مكانًا تجلس به.. ولا تعبأ بكم العيون التي تصوب إليها

واستدارات الأعناق التي تشرئب نحوها، وهي وسط كرنفال ألوانها الغريبة.. ثم تدور دورة كاملة حول المسرح، وتمر أمام خشبة المسرح بقبعتها العالية مما قد يوتر المشاهدين والممثلين معا.. تختار بعد هذه اللفة الطويلة الجلوس في الصف الأخير بالمسرح، على أقرب كرسي للباب.. مجرد دقائق قليلة تجلسها حتى يبدأ الفيلم أو المسرحية.. ثم تعود لتقف حتى نهاية العرض أو تغادره في منتصفه.

ليس لها أصدقاء حميمون ولا معارف.. وغير معروف أين تسكن وماذا درست أو تعلمت؟ هي كتلة مصمتة من الغموض.. تختفي مواسم كاملة ثم تعود.. منذ خمسة وعشرين عامًا لم يتغير بها شيء أو يتبدل.. هي دائما بجمالها نفسه وهيئتها نفسها، كأنها مثل فاوست في مسرحية الكاتب والمفكر الألماني «جوتة».. الذي تعاقد مع الشيطان لكي يحتفظ بنضارته.. لكن إن اقتربت منها جدًا فإنك ستلاحظ أن وجهها مثل أعمال الموزاييك مكون من وحدات طولية وعرضية من الحجارة الجيرية المصغرة، وليس به شرايين ولا دم.. ابتسامتها مصنوعة ونظرتها حادة وبراقة.

قد تصادفها يومًا أمام بائع الجرائد بميدان التحرير.. تتصفح وهي واقفة مانشيتات الصحف والمجلات.. ثم تروح وتجيء على الرصيف نفسه مرارًا وتكرارًا توزع ابتسامات على الجميع، لو اشتبكت مع ابتسامتها ووقفت ولو للحظة من الزمن، فستتسع ابتسامتها مع هزة صغيرة من رأسها بما يعني أنها تعنيك بابتسامتها.. قد ترتبك وتخجل وتنكس رأسك أمامها، حينها سترميك بنظرة ازدراء.. لكن لو كنت واثقًا بنفسك ومعتدًا بخبرتك، فستجذبك ابتسامتها كالنداهة.. سترد لها الابتسامة وتسألها عن اسمها ولن تجيب.. ستهمس في أذنك بأن المكان غير مناسب، وستديرك تجاه شارع قصر العيني..

ستسير معك فوق رصيف صغير مساحته نصف متر وأعمدة إنارته تأكل

جزءًا كبيرًا من هذه المساحة.. وهي سائرة إلى الامام كالجندي المكلف بمهمة وعليك أن تلاحقها وتتفادى المارة القادمين تجاهك، وستتركك بعد ذلك تقترح الكافيتريا التي تنوي أن تجلسها فيها.. وبابتسامة ستجاهد أن تجعلها حانية ستخبرك بأنها جوعانة.. ستفرح أنت بالطبع وستبادر بعزومتها في مطعم وحاتي أبو شقرة القريب من المكان.. ستبتسم هي بسعادة، وتقول لك بحسم «مايع».. «بس كل واحد يدفع حسابه.. يعني إنجليزي...»!

سينتفخ بك عرق الرجولة وستصر على الدفع.. ولن تثنيك هي عن مبادرتك.

الطريق من أمام بنك باركليز حتى الحاتي طويل بعض الشيء.. ستتركها تتكلم محاولًا تخمين ما بمحفظتك خشية أن تتورط.. قد لا تسمعها في بداية الأمر حتى تتحسس نقودك وتتأكد من قوة موقفك.. لكنك حتمًا ستسمعها بعد ذلك وهي تخرج من موضوع إلى آخر، والموضوعات كلها لا يربطها رابط.. من عينة: «أنا عندي ببغان جايباه من أستراليا بيأكل فستق بس بـ ١٠ جنيه في اليوم!».. أو «معاش النقابة مبقاش بيكفي حاجة..» (طبعا لن تعرف أي نقابة).. أو «جالي من مصدر موثوق به أن إيران عندها قنابل نووية..». لو تدخلت في الحوار، فستسفه آراءك.. وستدرك أنك وقعت في خديعة كبرى، والسهرة غالبا ستنتهي في قسم الشرطة.. وستبدأ في إدراك حجم خسارتك لو دفعت لها عند الحاتي..

ستكون في تلك اللحظة على مسافة تقرب من الـ ٢٠ مترا إلى المحل.. ستقرر أن تهرب، وستدير وجهك تجاه الأتوبيسات التي تعبر نهر الشارع بكل سرعة، وتتمنى أن يتهادى أحدها حتى تقفز داخله.. ربما لن يمنحك القدر هذه الفرصة.. لكن في آخر لحظة ستضيء مخك فكرة ما.. أن تدخل بها إلى محل «كشري الصباح» الملاصق لمطعم أبو شقرة وتجعلها تأكل الكشري

بدلًا من الكباب.. وستر تاح جدا لهذه الفكرة.. فلو اعترضت يبقى جت منها وتتركها وتنصرف.. ستعبر بها الرصيف، وحين تقترب من محل الكشري، ستنحرف بشدة تجاه بابه وأنت تقول بهمس: «اتفضلي»!

ستقف هي مندهشة وتشير إلى محل الكبابجي، وهي تقول بحدة: «المحل الناحية دي.»!

ستتلبسك الشجاعة وتقول بحسم: «ليه باب تاني من هنا.. خشي بقي..»!

ستنصاع وتدخل وراءك، وسينتابك إحساس بأن كل من بمحل الكشري توقفوا فجأة عما يفعلون.. المناول توقف بكبشته في نصف المسافة بين الحلة والطبق الذي بيده.. والمحاسب لم يكمل عد النقود، والزبائن ملاعقهم تتدلى في الهواء.. ستختار هي ركنا بعيدًا داخل المحل.. وستنهر عامل المحل الذي يتلكع في مسح المنضدة وتطلب منه «طبق دوبل من الكشري المخصوص»! ولن تنظر تجاهك حين تطلب، كأنها تقول لك «عنك ما طفحت»!

ستلتهم محتويات الطبق بسرعة، ثم تطلب طبقًا آخر وأنت في نصف طبقك.. وحين تنتهي من الثاني ستطلب طبق مهلبية مع زجاجة كولا.. وحين تظهر سخرية مبطنة من شراهتها.. ستتجرع باقي زجاجة الكولا بسرعة ثم تقف بانفعال.. وتصرخ في وجهك وهي تخاطب جميع من بالمكان: «عايز تعمل معايا علاقة بطبقين كشري يا متخلف..»!!

ثم ستكسر طبق المهلبية الصغير على المنضدة وتغادر المكان على الفور.. لن تجرؤ على رفع رأسك من فوق طبقك، وسيبللك العرق، وسيتدفق منك الأدريالين، وستتمنى أن تبتلعك الأرض.. ستصبر قليلا وتلبد في مكانك حتى ينشغل الجالسون بأمورهم.. ثم ستقوم وستسير بين المناضد وأنت تدرك أنهم يضحكون منك ويرأفون بك وينعون خيبتك..

عند بنك الحساب.. سيتقدم منك صاحب المحل ويربت على ظهرك وهو يهمس في أذنك: «معلهش يا أستاذ جات فيك المرة دي.. دي مش أول مرة تعملها.. كل شهرين ليها ضحية.. بس الغريب أن عمرها ما كسرت طبق.. أنا حامنعها بعد كده تدخل المحل..».

ستصر على دفع قيمة الطبق المكسور ولن يقبله منك، فهو لا يقبل العوض.. لن تدخل هذا المحل مرة أخرى، ومن الممكن أن تلغي شارع قصر العيني من ذاكرتك نهائيا.

كشف بالمجان





لشكري مناخه الخاص المختلف عنا جميعا.. فقد تجده هابطًا علينا داخل المقهى في عز الشتاء ونحن نحتمي بدفء النصبة والأكواب الساخنة تحتضنها أيدينا، ممسكًا بجاكت البدلة في يده، فاتحًا أزرار قميصه إلى ما يقرب من سرته وعلى وجهه عرق غزير.. ويقف حائرًا بين الجلوس بصحبتنا وسط الدفء اللذيذ الذي يزيده عرقًا.. أو الجلوس بالخارج، حيث لا أحد، أسفل مظلة المقهى يتلقى قطرات المطر المنفلتة من المظلة باستمتاع.. وكان على الأغلب يفضل الجلوس بالخارج. عيناه وأذناه معنا بالداخل يشاركنا الحوارات.. وعندما نتجاهله يدخل إلينا ليدلي بدلوه في الحوار ثم يخرج سريعا.

وعلى العكس تماما في بعض ليالي الصيف يجلس بيننا مرتجفا من البرد.. ثم لا يحتمل فينتقي أكثر الأماكن استوائية، سواء كانت داخل المقهى أو أمام فرن بباب اللوق، ويهرع إليها.. هو حالة خاصة جدا.. كأن لشكري طبيعة أخرى ومناخا خاصا مختلفا عنا جميعا..

جاءنا لأول مرة منذ سنوات بعيدة بصحبة صديق ولم يغادرنا إلا قليلًا.. ليست له علاقة بالأدب ولا السينما ولا الموسيقى ولا الفن التشكيلي،

لكنه ينصت بإمعان ويركز باهتمام لكل المناقشات الدائرة حول هذه الفنون.. له ميزة فريدة أيضا، فهو يحفظ جميع الأفلام العربية القديمة التي تبث على الفضائيات بترتيب المشاهد وأسماء الأبطال وجنسياتهم وديانتهم والكومبارس والمتكلمين والبكم والمخرجين وسنة الإنتاج.. له ذاكرة بصرية ممتازة ويفرح جدا إذا ما استعنا به في تذكر أحد هذه الأفلام..

كما يحب جدّا أن نهديه كتبنا ودواويننا بعد أن نكتب له إهداء باسمه الكامل، ويظل يراقبك وأنت تكتب حتى لا تخطئ في كتابة اسمه ويتناوله منك سعيدًا ويخبرك بحماسة بأنه سيضعه في مكتبته.. ثم يسهر على قراءة الكتاب حتى يكون أول من يخبرك بجودته من وجهة نظره.. وقد تحدث من جراء ذلك ملابسات مضحكة.. فهو ليس مثقفا، كما أنه حديث عهد بالقراءة.. قابل أخيرا أحد الفنانين التشكيليين فقال له وهو يشد على يده ويهنئه على غلافه الجميل لأحد الدواوين الذي أهداه المؤلف لشكري.. قال شكري بكل جرأة الجاهل للفنان: على فكرة أنا عجبتني أوي الواجهة اللي عملتها للديوان.. لم يفهم الفنان بالطبع ما المقصود بالواجهة إلا حين أخبره أحدنا بأن شكري يقصد الغلاف..

تعليمه متوسط وقضى أغلب حياته يعمل بالصيدليات، وأتقن عمله جدّا، فهو يحفظ جميع أنواع الأدوية المصرية والمستوردة وأسماء المادة الفعالة ونسبتها.. وله تركيبات عبقرية هو مخترعها للجنس والمزاج وللتخسيس والبدانة.. وينطق أسماء الأدوية بلغتها الأجنبية التي تخدع العامة فيطلقون عليه لقب «الدكتور».. لكن نطقه لها بائس وركيك أشبه بلهجة عمال «الأورنص» أيام الكامب الإنجليزي.

هو مقتدر إلى حد ما، فأخوه المغترب بأوروبا يرسل إليه ما يكفيه وزيادة.. وتركيباته تدر عليه الكثير، لكنه ينفق على مزاجه الأكثر. غالبا نظيف ومهندم وفي حاجة إلى الكلام مع أي أحد.. لا يتوقف عن الكلام إلا إذا نهرناه.. وكلامه خليط بين الواقعي والمتخيل وصعب التفريق بينهما..

وهو محبوب لكل المقاهي التي نجلس عليها.. سرعان ما يكون صداقات مع عمال المقهى ويمنحهم ما يجعلهم منتبهين يقظين وعلى مزاج طيب في البيت وفي الشغل.. بعد ذلك يتقرب إلى الرواد.. من عنده مشكلة طبية يعالجه بتركيباته ومن لديه مشكلة جنسية يظل يبدل ويغير في المواد الفعالة حتى يحل له مشكلته.. يعطي حقنًا لكبار السن ويقيس معدل السكر وانتظام الضغط..

كما أنه مهذب جدّا بغير افتعال.. أول من ينهض من على كرسيه إذا ما قدم أحد إلى المنضدة نفسها.. ويتخلى له عن كرسيه طوعًا وبرحابة صدر ويجري ليحضر كرسيّا آخر لنفسه.. لو كنا نتناول الطعام ونقص الخبز فجأة فستكتشف أنه أول من لاحظ ذلك وذهب إلى الفرن القريب وعاد بالخبز حتى ولو لم يكن يأكل معنا. لو قدمت أنثى إلى طاولتنا فسيجلسها فورا بإتيكيت بصري شاهده في الأفلام، ولن ينظر تجاهها عندما تتكلم، وسينتهز أقرب فرصة ليتركنا ويشاغب عمال المقهى ثم يعود عندما ترحل الفتاة.

له حكايات غرائبية كل يوم، يدعي فيها الفتونة والبطولة.. وإذا ما لاحظ استياءنا ألف حكايات فورية عن أدبه وأخلاقه، من عينة: «مرة ضايقني أحد

السكان فسرقت مرآة سيارته وقطعت خرطوم الزيت»، أو «كيف يبوظ يوميا السماعة الداخلية الموضوعة داخل الأسانسير التي تذيع دعاء السفر عند الصعود والنزول، وكيف يساهم مع السكان في دفع تكاليف إصلاحها»، أو «كيف رأى أحد المصلين بعد صلاة الجمعة وقد سرق حذاؤه، فنزل بسرعة من شقته وأعطاه حذاء بديلا، وكيف شكره الرجل، ثم عندما عرف أنه قبطي رفض أن يلبس الحذاء»، وعندما واجهناه كلنا بأنها حكاية مختلقة، اعترف سريعا بأنه فبركها..

وحكى لنا عن قصة مولده ورفضه أن يرضع من والدته وهو رضيع، مما اضطر والديه لإحضار أكثر من مرضعة، لكنه لم يرتض غير مرضعة نوبية كانت معروفة بشراستها وغباوتها، وأكيد جيناتها انتقلت إلى جيناته.

له قصة حب فريدة يعايشها منذ أكثر من ٢٥ سنة.. منذ أيام مراهقته حتى الآن.. محبوبته تزوجت ثلاث مرات وهو ما زال يحبها.. أشياء كثيرة وقفت ضد زواجه بها، أبسطها اختلاف الدين والعقيدة، وأعقدها أنه شردها وفضحها وجرسها منذ المراهقة في المنطقة كلها.. له طقس أسبوعي لا يتخلى عنه مطلقًا.. يحضر شنطته «الهاندباج» ويضع بها بطانية وسجادة صغيرة وترمس للمياه الساخنة وآخر للباردة.. بينما تستعد حبيبته بعامود أكل من صنع يدها وتنتظره بعيدًا عن المنطقة التي يسكنانها، يأتي شكري بعد أن يكون قد استأجر «موتوسيكل».. تلقي السيدة بنفسها خلفه وتحتضن ظهره ويدها حول بطنه في طريق يغيره شكري كل أسبوع.. أحيانًا يذهب إلى مدينة ٦ أكتوبر أو مدينة زايد أو التجمع الخامس أو الأول.. أي منطقة

نائية والسلام.. يظل شكري يلف بدراجته البخارية حتى يجد بغيته.. منزل حديث غير مسكون.. يقف بالموتوسيكل كأنه يفحص موتوره.. ثم ينظر إلى العمارة.. يطمئن عندما لا يجد أي ملابس منشورة على الحبال أو يجد كميات من الرمل والزلط ما تزال رابضة أمام العمارة.. لأن هذا معناه أن السكان لم يتسلموا شققهم بعد..

يهمس إلى صاحبته بالانتباه حتى يدخل مستطلعًا الأمر.. ينادي في مدخل العمارة على أي اسم يطرأ على ذهنه.. إبراهيم.. على.. عاطف.. فقد يكون الخفير لابدًا بالداخل.. عندما لا يرد أحد يطمئن ويدخل أكثر وأكثر واضعًا يده على بتلة البنطلون كمن يهم بالتبول.. إذا طال السكون سرعان ما يعود بخليلته ويتسحبان على الدرج غير المستوي حتى الدور الأول.. فينتقيان غرفة ما بعيدة عن منور السلم.. وتُخرج حبيبته مقشة صغيرة.. تكنس بها الأتربة وقطع الحجارة الصغيرة وبقايا الأسمنت.. يضع شكري البطانية بعناية فوق الأرض النظيفة.. تنهمك الحبيبة في صب الشاي بينما يجهز شكري تحضيراته الدوائية ويسفها أمامها.. ثم تبدأ الممارسة التي يحرص شكري على توثيقها بكاميرا الموبايل.. مشاهد مبتذلة مقرفة مقززة تظهر أن الحبيبة ليست أقل جنونًا من شكري.. فهي تبتسم في وجه الكاميرا وتتحدث وتثني على أداء شكري وهي تقدم قربانها العاري المثير للشفقة.

يعود شكري آخر النهار وبعد أن يلقي برفيقته في أقرب مكان من منطقة سكنها.. يدير موتوسيكله باتجاهنا.. دائمًا يعرف أين سنجلس هذا المساء.. في قهوة الندوة أو البستان أو مقهى الكلاب برمسيس أو مقهى الطهاة أو مقهى عتمان بباب اللوق.. ودائمًا يجدنا.. يتصبب منه العرق الغزير وتطفح شرايين

وجهه باللون الأحمر من تأثير الكيمياويات.. لو كان من ضمن ما تناوله عقار «الباراكودايين» ستصبح ليلتنا سوداء.. فهذا العقار يجعل عينيه تطفحان بالدم.. ويضعف حالة سمعه مما يدفعه لرفع صوته بما جرى مع خليلته ويفضحنا كلنا.. يسرد الوقائع لحظة بلحظة ويشرب الشاي تلو الشاي.. ثم يصمم على أن يرينا ما سجلته الكاميرا.. وإذا ما عقَّب أحد على قبح الحبيبة، يزايد شكري ويقول «عشان تعرفوا إني بأحب صفيحة زبالة!».. وبعد أن يطمئن على أن عيوننا اختزنت المشاهد.. يمسح ما سجلته كاميرا الموبايل استعدادًا لمغامرة أخرى..

القليل فقط يعرف أن شكري وحيد تمامًا في هذه الحياة.. فهو يعيش أحيانًا في بيت عائلته بالهرم، وهو بيت قديم من دورين وقد هجرته العائلة كلها بسبب الموت أو الهجرة أو الانتقال لمناطق أخرى.. ولم يبق به إلا شكري ومكتبته المليئة بكتب أصدقائه ودواوينهم وما كتب عنهم والحوارات التي تمت معهم.. وجهاز التليفزيون الذي يبث له الأفلام القديمة التي شاهدها آلاف المرات ولم يملها أبدًا، وفي كل مرة يجد لقطة جديدة يحدثك عنها.. ليس له أصدقاء بمنطقته؛ فاقترابه من المثقفين صنع سدًّا بينه وبين أهل منطقته.. والمثقفون يعاملونه بتعال لكنه يحبهم..

وعندما يمكث ببيته ثلاث ليال متصلة يجن جنونه.. يأتي إلى المقهى في الصباح الباكر يبحث عن الأصدقاء كالحبيبة التي أضناها الشوق.. ويسأل الجرسون وعمال المقهى عن مواعيد حضورهم أو عن أرقام هواتفهم.. ويتأمل الملصقات التي على الجدران.. يعيد لصقها حتى لا تقع.. ويمسحها بالكلينيكس من التراب العالق بها.. وينهر العمال لو خلعوها حتى بعد انتهاء

مواقيتها.. يعامل أي شيء خاص بالمثقفين كأنه خاص به.. يعرف مواعيد الندوات وأماكن إقامتها.. ويحضر أغلبها. رغم أنه يخلط ما بين الشاعر والقاص وكاتب السيناريو ولم يدع يومًا أنه مثقف.. لكنه أكثر حضورًا في حياتنا الثقافية الصغيرة بوسط البلد من بعض المثقفين.

رجل اللاءات الثلاث



بعد عودته من ليبيا حيث كان والده يعمل مدرسا هناك في أواخر السبعينيات. التحق بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية واستأجر له والده شقة صغيرة بالهرم كي يكون قريبا من كليته.. وعاد أبوه إلى الصعيد آمنا مطمئنا على مستقبل ابنه.. فالولد ذكي ومتفوق ولبق، وما هي إلا سنوات قليلة ويعود إليه دبلوماسيا مرموقا..

لكن صديقنا «أكمل» لم يكن عند حسن ظن أبيه؛ فقد كان لديه حلم، والحلم بسيط جدا.. أن يلتحق بمعهد السينما قسم إخراج بجانب دراسته بالكلية التي اختارها له والده.. وهذا الحلم له شروط بسيطة، أولها أن يجتاز امتحانات واختبارات القبول بالمعهد.. وقد أقنعه بعض المتقدمين الأشرار بضرورة وجوده بمنطقة وسط البلد بين طلبة وخريجي وأساتذة المعهد والراغبين في التقدم إليه، والذين كانوا منتشرين أيامها في وسط البلد يتناقشون ويتجادلون وينظرون، وأحيانا يمثلون أدوارا صغيرة على خشبة المقاهي والمسارح الصغيرة التي تعرض للهواة..

وجذبت النداهة «أكمل» إلى سرة البلد، فهام بها وظن أنها تبادله الهيام.. واستعد جيدا للقاء المثقفين والمهتمين بالفنون البصرية بأن قرأ كتبا عن السينما وتقنياتها وتاريخها وعن كيفية كتابة فن المسرحية.. كما قرأ بعض

أمهات الكتب في الفلسفة والمنطق، وظهر كثيرا بساحة المعركة المنتظرة (وسط البلد) أولًا على استحياء ثم بتودد.. إلى أن حسم أمره أخيرا وبدأ يصاحب ظهوره تهور وضجيج عندما تحتدم المناقشات والمجادلات الفنية.

وهكذا، إلى أن أتى يوم و«أكمل» جالس بمقهى «ريش» يحتسي قهوته ويقرأ في كتاب عن السينما باللغة الإنجليزية.. ودخل المقهى فتى أسمر نحيل بنظارة طبية مستديرة كالنظارة التي كان المهاتما غاندي يضعها، وسكسوكة صغيرة عند ذقنه...

نظر الفتى إلى الجالسين باستعلاء وإلى «أكمل» بقرف، ثم اقترب من «أكمل» وجذب الكتاب من يده بلا استئذان، وقرأ عنوانه بالإنجليزية بثقة، وألقاه على المنضدة بالتزامن مع جلوسه على منضدة «أكمل» نفسها بكل وقاحة... ثم بكل خيلاء النبلاء أمر أكمل بأن يعزمه على فنجان من القهوة..

أمسك الغريب بالقهوة وهو ما زال يتعالى على أكمل بثقافته الكبيرة التي تتدلدق على المنضدة وبها كم كبير من أسماء كبار الفلاسفة والمفكرين الغربيين.. ثم ينصت دقائق معدودات لأكمل يسخر منه بعدها ويصف قراءاته بالوضيعة والتافهة.. ويدلل على ذلك بالكتاب الذي فوق المنضدة والذي أشار إليه بامتعاض (الكتاب الإنجليزي ذاته الذي اختاره أكمل بعناية لكي يجذب إليه عيون المثقفين)..

عندما أتت القهوة احتساها في رشفتين، ووضع الفنجال بإهمال على المنضدة.. ثم تشمم ملابسه بضيق، وجذب أكمل تجاهه لكي يتمكن من النظر إلى ياقة قميصه وهو يقول لأكمل بغيظ: «لابس قميص نضيف ومكوي؟! وتلاقيك بتستحمى كل يوم وعاملي مثقف.. ولما تيجي تقرأ تقرأ

الخرا ده...! وأنا بقالي شهرين باستحمى في القهاوي سرقة ويجي أربع تيام مانمتش!»..

كان أكمل مذهولا تماما لما يسمعه، ولم ينطق، إلا عندما شخط فيه الغريب: أنت عندك مكان؟!.. وجد أكمل نفسه مدفوعا بالكلام: أيوه.. جذبه الغريب من كرسيه وأعطى الجرسون ثمن القهوة والبقشيش من جيب أكمل.. ثم ركب معه في سيارة تاكسي سيدفع أكمل قيمة أجرتها بالكامل...

أقام الغريب ستة أشهر كاملة ببيت أكمل ولم يخرج إلا بالطبل البلدي.. اقتسم كل شيء مع أكمل.. زوادة الطعام التي كانت تأتي من الصعيد كل أسبوعين.. ملابسه.. مصروفات الشهر المرسلة لأكمل من الوالد.. والأدهى من ذلك أنه اقترض واستدان من كل محال البقالة بالشارع مستخدما اسم أكمل.. وعندما خرج ولم يعد ترك لأكمل دينا مرعبا عليه أن يسدده في عام كامل..

ما يعنينا من تلك الحكاية تأثيرها المستقبلي القاتل على أكمل، فقد تغير منهجه المتأني في القراءة إلى قراءة متعجلة سريعة لفهارس الكتب تغنيه تماما عن شغل وقته فيما لا يفيد، كما علمه الضيف الغريب.. وبدأ يتعالى على لجان التحكيم بمعهد السينما التي أسقطته مرتين في امتحاناتها وبالتالي لم يدخل هذا المعهد إطلاقا.. فالسينما الحقيقية ليست في حاجة إلى معاهد تحد من قدرة الفنان على الإبداع.. وأقوال كثيرة على شاكلة هذه السخافات.. وكان أهم ما تعلمه من الغريب وجعله دستورا لحياته هي: «اللاءات الثلاث»: لا للعمل.. لا للزواج.. لا للسفر إلى البلاد العربية..

وظل أكمل لسنوات على دين أستاذه. أدمن حياة الصعلكة.. انقلب من شخص أنيق كريم إلى سكير فوضوي.. وطبيعي جدا أن الأموال التي كان

الوالد يرسلها له وتكفيه طيلة الشهر وتفيض.. أصبحت تنفد بعد أيام، مما جعله يخترع طرقا مبتكرة للاستدانة أو الاستيلاء على نقود الأصدقاء.. يقترب من أذنك هامسا: «ممكن أحلق لك في عشرين جنيها».. أو «ممكن ضربة صغيرة بالملقاط» (وهذه تعني ١٠ جنيهات) أو «أخليك على الزيرو» (وهذه تعني ٣٠ جنيها) أو: «ممكن أطرقع لك الفوطة بس» (ومعناها سأكتفي بـ ٥ جنيهات..)... ميزة أكمل الكبرى أنه لا يتضايق أو يغضب لو نهرته أو صرفته بضيق أو لم ترد عليه..يقوم ويرسم ابتسامة ودودًا.. وقد ينظِّر تنظيرة صغيرة ثم ينصرف بالابتسامة نفسها مضافًا إليها انحناءة لورد إنجليزي..

وبالرغم من أنه قطع الصلة تماما بزعيمه فإنه كان ما زال مؤمنا به سائرا على خطاه.. لكن مصيبة كبرى زعزعت هذا الإيمان.. فقد التقى زعيمه السابق خلال سفره إلى الصعيد بطبيبة شابة داخل القطار، كانت تستمع إلى فيروز وتقرأ كتابًا أدبيا بالإنجليزية.. كانت فرصة كبرى للزعيم ليحدثها عن حبه لفيروز، واهتمامه بالأدب الأمريكي المعاصر، ويدلي بدلوه مستعرضا آراءه في الفلسفات وعلوم المنطق والكلام.. أيام قليلة مرت بعد هذا التعارف التقت فيها المصالح بسرعة؛ فقد كانت الطبيبة معارة إلى السعودية وفي حاجة إلى محرم.. وتزوجها الزعيم وسافر معها لكي يذلل لها هذه العقبة، وعمل هناك بتدريس اللغة العربية للأجانب دون عقد رسمي..

ذهل أكمل تماما عندما سمع بهذه التطورات وبضرب الزعيم كل لاءاته الثلاث.. اكتأب قليلا ثم قرر أن يعمل هو الآخر.. وفعلًا توسط له قريب يعمل مهندسا بإحدى شركات النقل الكبرى، وألحقته الشركة بأحد مخازنها الواقعة على طريق مصر الإسكندرية، وكانت كل مهمته تسليم السيارات لأصحابها

بعد فحص الأوراق التي معهم والتأكد من مطابقة التوقيعات وأختام المركز الرئيسي للنموذج الذي معه..

مر اليوم الأول والثاني والثالث بسلام، لكن أكمل انشغل بشيء خطير.. لماذا عندما يسلم السيارات لأصحابها يمنحون العمال والخفير هبات مالية كبيرة ولا يمنحونه شيئا. همس بسؤاله هذا للخفير الذي ابتسم وطلب منه أن يخفف قليلا من النشا الذي يقابل به العملاء. وأن يرحب بهم ويبتسم في وجوههم، ويبارك لهم ويدعو لهم بالسلامة وهم يفحصون سياراتهم. بعد يومين كان هناك موعد تسليم مهم لعميل أكثر أهمية، سيتسلم ١٣ سيارة نقل كبيرة بجرار «إسكانيا».. استعد أكمل تماما للتسليم ونفذ بدقة ما نصحه به الخفير، غير مهتم بأختام الشركة والتوقيعات، أو تطابق الأرقام في الإيصالات بأرقام المواتير والشاسيهات، وسلم العميل الـ١٣ سيارة التي ركبها رجاله بعجالة، ومنحه العميل مكافأة ضخمة تبلغ ٥٠٠٠ جنيه اقتسمها أكمل مع الخفير وعمال المخزن وجالسهم يشرب شايهم ويدخن سجائرهم بسعادة..

لحسن حظه أو سوئه.. كانت السيارات الـ ١٣ تنهب الطريق بسرعة غير طبيعية بعد مغادرة المخزن.. استرابت في سرعتها سيارة دورية شرطة كانت مارة بالمصادفة.. أمرت الدورية سائق السيارة الأخيرة بالتوقف، لكن السائق زاد من سرعته وأسرع بالفرار.. أبلغت الدورية الدوريات الأخرى ونقاط مراقبة الطرق، واستطاعوا محاصرة السيارات والقبض على سائقيها. اتضح في التحقيق أن الخفير عندما رأى لعاب أكمل يسيل على الإكراميات، اتفق مع أحد المسجلين خطر على هذه الصفقة غير آبه بأن يضيع مستقبل أكمل كله سجنا أو انتحارا.. المهم تم رفت أكمل ووقف قريبه المهندس عن العمل بضعة شهور..

ما علينا مما جرت عليه هذه الحادثة من مشكلات عائلية ضخمة، المهم أن أكمل وجد نفسه غير منذور للعمل، وغير مقدر له أن يصبح عبدًا من العبيد الشغيلة.. قدره أن يصبح حرّا.. ينظِّر في السينما على المقاهي وفي الندوات.. يجادل في جمعية النقاد.. يقول آراء غير معقولة وصدامية ضد كل المخرجين الكبار في حضورهم وغيابهم.

ورغم ذلك لاحت له فرصة العمر مرة ثانية، بعد أن دخل على المعهد الفرنسي بالمنيرة بالحنجل والمنجل وبأرشيف به أقاصيص من أخباره وآرائه، كان قد نجح في تسريبها لبعض الصحف.. وبقدرة يسيرة أقنعهم بتنظيم حلقة سينمائية عن واقعنا السينمائي المعاصر واشترط أن يكون هو منظم هذه الحلقة.. وتمكن فعلا من استقطاب عدد لا بأس به من نقادنا السينمائيين المميزين وكذلك بعض كبار المخرجين.. ومرت الدورة الأولى التي كانت مدتها ثلاثة شهور بسلام ونجاح.. مما جعل من السهل عليه إقناعهم بتمويل كتاب يضم جميع الآراء التي قدمت في هذه الدورة.. وتسلم مبلغ التمويل بالكامل بدعوى أن الكتاب جاهز، وفي سبيله للطبع خلال أسابيع قليلة..

وعاث فسادًا في البارات والمقاهي حتى أفلس تماما.. فعاد لإقناعهم مرة أخرى بعمل فيلم وثائقي عن وسط البلد من فكرته وإخراجه.. لكن الفرنسيين هذه المرة كانوا غير الأمس.. أخبروه بأنهم لن يعطوه مليما واحدا إلا بعد استلام الكتاب المتفق عليه سابقا وكذلك الفيلم الذي يقترح تنفيذه.. وبعد إلحاح كثيف منه، وافقوا على تمويل جزء من تكلفة إنتاج فيلمه بشراء الأفلام الخام التي تلزمه للتصوير.. وفعلا دفعوا مبلغا لشركة «كوداك» ثمنا للأفلام الخام التي تلزمه للفيلم.. وكان أكمل يسحب الأفلام الخام تباعا بدعوى أنه يقوم بتصوير الفيلم، وبدلا من أن ينفذ فيلمه عليها يعيد بيعها إلى شركة أخرى..

وصل الخبر إلى الفرنسيين وباظت الحكاية، ومنع من دخول المعهد، كما حرم أيضا من إكمال دراسته للغة الفرنسية في المعهد والتي كانت مقدمة له كمنحة نظير جهده في الدورة الأولى.

تلطمت حياة أكمل كثيرا بعد هذه الواقعة، لكن أكمل بطبيعة الحال لن يعدم وسيلة للتحايل على الحياة.. ولم تنسه الحياة كثيرا.. صارت ترسل له بهدايا تلو الهدايا... يقنع بعض بلدياته بالبيزنس فيورطهم ويخلع... يرسل بأبحاث عن السينما لدوريات معنية بهذه الأبحاث داخل مصر وفي العالم العربي فينجح حينا ويخفق في أحايين كثيرة... وأصبح أيضا يعطي دروسا في السيناريو الذي لم يكتبه أبدا لبعض الذين يخلب لبهم بآرائه السينمائية... أتى مرة بأحد هؤلاء، رجل جسده جسد مصارع متين، بسيط وطيب يقول عن السيناريو «سينالكو» وطبعا يبتسم أكمل وهو يغمز لنا بعينه من خلف ظهر الرجل...

كان هذا الرجل حدوتة في حد ذاته، حكاها لي أكمل بعد ذلك بالتفصيل، فهو لا يعمل وتوقف به التعليم عند الثانوية العامة، متزوج من مضيفة تعمل ليلا بكافتريات شارع الهرم.. تعرف عليه أكمل في مقهى بشارع الهرم.. الرجل عنده كم مدهش من حكايات خاصة به وبنشأته.. أقنعه أكمل في بداية الأمر بعمل كتاب عن قصة حياته.. وأكمل بما أنه كاتب كبير سيتولى صياغته.. ثم تطور الأمر إلى عمل مسلسل عن حياة الرجل، واتفقا أخيرا على هذه الصيغة.. واشترط الرجل أنه هو الذي يكتب السيناريو بعد أن يعلمه أكمل كيفية كتابته.. لم يكن عند أكمل مانع فهذا معناه ببساطة شهورا طويلة من الطعام والسجائر وبعض الهبات المالية التي تعين على المعيشة..

كان الرجل يصحو يوميا بعد غروب الشمس ليفطر إفطارا دسما مكونا من

الأسماك واللحوم لا يكاد أحد يطيقه في الغداء، ثم تذهب زوجته إلى العمل ويذهب هو إلى المقهى يقضي وقت فراغه في تدخين الشيشة ولعب الدومينو إن وجد شريكا.. حتى تقابل مع أكمل، وتغير نمط حياته.. أصبح ينتظره في شوق بعد أن يبري قلمه الرصاص ويفتح كراسته، وحين يجيء أكمل ينطلق الرجل في الحكي وأكمل يدون بعض الملحوظات ويسرد أمجاده في عالم السينما.

مرت الأمور طيبة في البداية، تعود السيدة المسكينة بعد منتصف الليل حاملة معها ما لذ وطاب من أطعمة ومشروبات. كان أكمل لا يساعده إلا في كتابة خمسة مشاهد في اليوم على الأكثر، ويظل يجادل الرجل في مقترحاته عن أسماء النجوم الذين سيعملون بالمسلسل وبخاصة النجم الذي سيمثل دوره في الحياة، ثم يأكل ساندوتشات الشيش طاووق والكاليماري ويحلي بالكريم كراميل وبما سمحت به السيدة من مشروبات..

لكن يبدو أن السيدة نفد صبرها من زوجها وفكرته الجهنمية، ومن أكمل واحتلاله القسري للبيت وتدخلاته التي قد تصل إلى الخصوصية الأسرية، فبدأت تعود إلى البيت خالية الوفاض وتدعي أن الأحوال بالكافيتريا على غير ما يرام، وأن هناك نحسا ركب على حال الكافيتريا هذه الأيام (وهي تنظر تجاه أكمل بخبث)، أو أن مالك الكافيتريا منعها من أن تنال نصيبها من فوائض أطعمة الزبائن.. وبادلها أكمل العناد بالعناد فأصبح لا يساعد الرجل على الانتهاء من مسلسله إلا بمشهدين في اليوم ثمن ساندوتشات الجبنة بالطماطم التي يتناولها في آخر الليل.. وسرعان ما تخلى عن الرجل وهدم طموحه الفني.

اختفى أكمل بعد ذلك عدة سنوات في بلدته بالصعيد.. وبعد بطالة كبيرة

توسط له أولاد الحلال من كبار أبناء بلدته في الحزب والمحافظة، فعمل سكرتيرا ثالثًا لمحافظ بمحافظة بالصعيد.. المحافظ لم يبق بمركزه أكثر من عامين.. وأعتقد أن هذه هي أقصر مدة يمضيها محافظ في منصبه.. وأعتقد أن لأكمل واقتراحاته العبقرية دورا في هذا..

أكمل يبدو شخصية خيالية من لحم ودم.. لكنه جميل وممتع وصادم.. أفسد وسط البلد براءته قديما، لكنه كان يحاول أن يرد له الصاع صاعين.

غير قابل للتعلم في القارات الخمس


Communism

صباح مشمس من أصباح شهر يناير عام١٩٧٢، والأستاذ مشغول بالشرح لطلاب الصف الثاني كلية الحقوق جامعة عين شمس.. تصاعدت أصوات من الخارج ثم انقلبت لصخب ثم هدير... توقفت يد الأستاذ عن الكتابة وفتح باب المدرج فتحة صغيرة ومضى يستطلع الأمر... ثم عاد ليقف في موقفه المعتاد وقال وهو يمسح يده من آثار الطبشور: «أنا مضطر للتوقف عن الشرح اليوم لأن زملاءكم عاملين مظاهرة بره... ورأيي أن أمامكم أحد أمرين... الأول أن تعودوا إلى بيوتكم بسلام وتقروا بها، والثاني أن تنضموا إلى زملائكم بالخارج»...

ثم خرج الأستاذ وتدافع وراءه الطلاب والطالبات... كان هذا هو المناخ تلك الأيام... أما الذي كان يجري داخل الجامعة في تلك اللحظات... فهناك هتافات من الأعماق ومصادمات قوية مع الشرطة... ولو ثبتنا لقطة الكاميرا لحظات... فسنجد الطالب السمين أسامة ملقى بين أيادي الأمن وأقدامه ويدافع عن نفسه بصوت حنجوري ضخم يعيد ترديد الهتافات بوهن ويجاوبه الطلاب من كل مكان...

سنواته التالية بالكلية قضاها كلها في المظاهرات والنضال في السجن متمسكًا بالحلم الثوري بالعدالة الاجتماعية وباليوتوبيا... وعندما تخرج

بعد سنوات وسنوات كان الوضع قد تغير كثيرًا كثيرا... زملاؤه في النضال كانوا قد استشرفوا المستقبل وبدءوا في تخفيف الصدام وتجنب المخاطر وحساب الأرباح والخسائر... بينما أسامة في فاجوميته وأحلامه الوردية يطارد المستحيل، لكنه لم يهدأ ولم يستكن.. طارد أصدقاءه المتخاذلين بلواذع الكلام وهاجمهم في أوراق صغيرة تحت اسم كشف المستور فهيئوا له الحصول على منحة للدراسات العليا بالقانون في الاتحاد السوفيتي... ذهب أسامة إلى حلمه لكنه لم يجده هناك... كأغلب الموفدين معه والذين نوموا مغناطيسيّا بفعل المنظمين الذي كانوا يصورون لهم أن الاتحاد السوفيتي جنة الله على الأرض ثم يفاجئون هناك بأنه دولة لها مشكلات العالم نفسها...

زملاؤه الذين أزعجهم تهشم مرآة أحلامهم إلى آلاف القطع، قضوا دراستهم بين اللهو واللعب والسكر، يلقون بأطباق المزات وكئوس المشروبات المملوكة لدار الضيافة التي تستضيفهم من شرفات الأدوار العالية لتدوي على الأرض محدثة أصواتًا كالقنابل العنقودية.. ثم يفرون إلى الداخل... أو يشاكلون المواطنين في أثناء وقوفهم في الطوابير لاستلام حصصهم من البيرة بدعوى أنهم الأحق بالوقوف في الصفوف الأولى لأنهم سجنوا واعتقلوا في بلادهم من أجل الاتحاد السوفيتي... والبعض الآخر وجدوا سككًا لمؤتمرات أممية في تركيا وبلغاريا ثم يعودون ببالات الملابس الداخلية والبلوفرات التي يبيعونها إلى المواطن الروسي الغلبان... والعابثون يمرون في الصباح الباكر جدّا على إشارات المرور يحولون أسهمها ويغيرون إشاراتها من أجل أن يتوه الناس... والبعض أسعده الحظ بالعمل كمترجم للسفارات الخليجية بموسكو وأصبح لا يرى إلا داخل السيارات الفارهة المكيفة ذات أرقام الهيئات السياسية...

وحده أسامة الذي نأى عن كل ذلك، وقضى سنواته بالاتحاد السوفيتي يسكر فيغضب على زملائه ويبدأ في مهاجمتهم.. وكان غضبه صريحًا ومباشرًا... وكان يتلقى بسببه التقريع والسباب والاعتداءات التي قد تصل إلى الإيذاء الجسدي... وأهمل دروسه وفشل في كل الاختبارات فأعادوه إلى مصر... وعاد كل زملائه بدكتوراهات مرصعة بالأختام الرسمية، وأشاعوا عنه بخبث أنه لم يحصل إلا على شهادة تقول بأنه غير قابل للتعلم في القارات الخمس... كان يسمع الإشاعة ويضحك ويهاجمهم لأنهم حصلوا على شهاداتهم بمجرد نزولهم مطار موسكو للدراسة، وأن هذه الشهادات لا تصلح إلا لتزغيط البط!...

عاد إلينا النبيل، صخبه وضجيجه يسبقانه دائمًا في الوصول إلينا.. يخلع حقيبة القماش الضخمة من خلف ظهره ويلقيها بجواره على أقرب كرسي. فيتبعثر ما بها من مأكولات وكتب وكتابات وأشرطة فيديو وحبات فاكهة... يعيد إدخالها بضجر إلى الحقيبة الممزقة في أكثر من مكان، لا يقبل أن تمتد يد لمساعدته.. ثم يزفر بحنق وهو يسب ويلعن مناديًا الجرسون لإحضار كوب الينسون.. يشاغبه أحد الحاضرين بمعلومة عن مثقف أو كلام في الثقافة، فيلعن المثقفين الكبار والصغار على السواء ويهاجمهم بشدة وصراحة لا متناهية...

عاد ليكتب أعمالًا أدبية جميلة يهملها الجميع عمدًا، فقد نالهم كلهم بلا استثناء نفحة من سباب أسامة، وتجريحه لهم وصلهم من أكثر من مصدر.. اهتم بالفيديو فحمل كاميرته على ظهره وظل يسجل ويوثق ويقدم اقتراحات مبتكرة لعمل أفلام وثائقية عن شعراء أو أدباء أو ممثلين كبار، وتتحمس جهات لتنفيذ هذه الأفكار لكن غالبًا ما تفشل هذه المساعي في النهاية.. فأسامة يبدو

في نظر الجميع ضد نفسه وأراه متسقا جدا مع نفسه، ورافضا من داخله فكرة التعاون مع الخونة الانتهازيين...

أحب أصدقاءه وأحبوه، فسامرهم ونادمهم وتفانى في خدمتهم حتى أهلكه الشراب وأفنى بدنه وروحه، وبدا كأنه يسير على قدميه في الدنيا وبرأس غائب في السماء... أسامة الضخم القوي الذي كانوا ينادوه بأسامة الفيل وأسامة سيد قشطة[1] من فرط عملقته، أنهكه المرض وجعله يبدو كهيكل عظمي.. كلما احتجز بمستشفى غادرها سريعًا فارّا بنفسه وجرى إلى المقهى... يطلب الشيشة ويبصق الدم في منديله.. وتحمر عيناه غضبا إذا ما طالبناه بالامتناع عن التدخين أو بضرورة الحفاظ على صحته... يتمالك نفسه حتى يتوقف سعاله ثم يسبنا سبابًا عنيفًا...

زاره صديق في آخر مستشفى احتجز بها.... نصحت الطبيبة المشرفة على علاج أسامة الصديق بأن يأخذه ويخرج من المستشفى... همس لها الصديق بقلق: «هو حالته متأخرة قوي؟»، ردت الطبيبة بصوت جهوري: «حالته خطيرة آه... بس ممكن علاجها أو على الأقل وقف تدهورها... لكن نعالجه إزاي وهو بيعمل كل ده؟!»...

سحبت الطبيبة الصديق ورفعت الوسادة التي يتكئ عليها أسامة وأشارت إلى زجاجة البراندي... ثم فتحت الدولاب وأشارت إلى صينية كبيرة مليئة بالكنافة ومفروش وجهها بالكريمة والقشطة والمكسرات... ثم فتحت الكومدينو لتشير إلى باكتة البانجو...

---

(١) مسرح سيد قشطة: وصاحبه كان ضخم الجسم والوجه واشتهر بأغنياته وإشاراته المعبرة عن السماجة التي يضحك لها البلهاء.. وقد اشتهر هذا الرجل بين أهل القاهرة حتى أطلقوا اسمه على فرس النهر في حديقة الحيوان لأنه كان يشبهه شبها يكاد يكون متطابقًا.

ثم قرأت للصديق التقرير الطبي الذي يصف حالة المريض المتدهورة نتيجة إصابته بالسكر والضغط ودوالي المريء وتيبس الكبد...

لم يمت أسامة في ذلك اليوم أو الأيام التي مرت بعده... إنه مات قبلها بكثير... إنه مات في الغربة وسط زملائه المنتفعين...

مخ ع الزيرو





لو حدث ونجحت عمليات نقل المخ في المستقبل القريب، وطلب مني مريض ما أن أرشح له مخًا للاستعمال.. فلن أتردد لحظة واحدة في ترشيح مخ الأخ «محمد هريدي» لأنه مخ ع الزيرو لم يستخدمه مطلقًا. مقبل على الحياة مهما تأزمت الدنيا من حوله وهي دائمًا كذلك.. يسير مبتسمًا متألقًا بفتوة وبلطجة فاتحًا ذراعيه كأن أسفل كل إبط خراجًا.. مظهرا شعيرات صدره، واثقًا جدا بنفسه، فضوليًا ويحشر ذاته في كل الحوارات والمداخلات التي تهمه أو لا تهمه على السواء.. يجتذب العداوات كما يجذب الضوء الفراشات.. لم أقابل أحدًا في حياتي أضاع كل فرص النجاح برعونة واستهتار مثله.. ورغم كل ذلك يمشي على الأرض بخيلاء مفترضًا أن لا أحد على وجه الأرض غيره.. وكأن كل كوارث الدنيا التي تحط على رأسه رسائل بهجة.

فعل بكل منا، أصدقاء ومعارف ومقربين، مصيبة واحدة على الأقل.. خاصمناه وتجنبناه كثيرًا لكننا كنا دائمًا نترك له مساحة للعودة، فهو قدرنا ونحن قدره. متخصص في كل فنون الطباعة و«السلك سكرين»، وعلى صلة ومعرفة بجميع المطابع الكبرى والمتوسطة والتي تحت بير السلم، وعلى دراية بأماكن بيع مستلزمات الطباعة بداية من أصغر ترس في أصغر ماكينة طباعة طرازها معروف أو مجهول إلى جميع أنواع الورق والكرتون ووسائل الطباعة بالحرير

وعلى الجلد والمعادن، ويعرفه أغلب رجال السياسة والصحافة وممتهني الأدب والرعاع والزعر والحرافيش.. لو طلبت منه خدمة في مجال الطباعة فسيبادر بمساعدتك فورًا بلا مقابل، لكن لو أرجأت الخدمة لساعة أو يوم تال فلن يأتي وسيظل يعطيك مواعيد لن يفي بها..

لم يحدث أن استقر بعمل لأكثر من شهرين باستثناء بدايات حياته العملية... يستمتع بإهدار كل فرص الربح والنجاح والتخلي عن الأعمال ذات العوائد المجزية كأنه يعاقب نفسه على شيء رهيب فعله في حياة سابقة. غير قابل للاكتئاب رغم أنه كثيرًا ما يدعي ذلك.. يعتبر بمثابة تميمة الحظ لكثيرين ربحوا كثيرًا من وراء جرأته الجنونية التي لا دخل للحسابات العقلية فيها.. نشر وطبع وساهم في طباعة أكثر الكتب مبيعًا وإثارة للجدل والخلاف في السنوات الأخيرة.. لكنه كالعادة لم يربح منها شيئًا وبحماقة غير عادية ومتكررة كان يتخلص منها بمجرد طبعها ويبيعها بقيمة تكلفتها إلى أي ناشر محترف يكسب منها عشرات الآلاف، كأنه فدائي نذر نفسه للمشاق والصعاب ووجع الدماغ...

لا يهمه نتائج ما يفعله حتى لو حبس أو اعتقل، وليته يفعل ذلك تحت مظلة أي فصيل سياسي..إنه يفعله فقط طالما أغلب الناس لن يجرءوا على فعله. بكر العواطف جدًا وقلبه قلب طفل ودموعه قريبة لكنه يخفي كل ذلك خلف جثمانه الضخم.. يعاكس بفجاجة ولا يبالي بكم السباب والشتائم التي تنهال على رأسه.. يضع دائمًا جواز سفره في جيبه الخلفي (الجواز الذي لم يسافر به إلى أي بلد قط).. ويجلس بالساعات على المقاهي والبارات.. وكان من الطبيعي أن تعرق خلفيته ويتبلل الجواز وتهترئ صفحاته صفحة صفحة لكن بعبقرية المخ الذي لم ينضرب فيه مفك.. (على رأي ميكانيكية السيارات).. احتفظ بالورقة المدون فيها بياناته كوثيقة هوية.. وحدث أن تعرض له كمين شرطة (طبعًا عندهم ألف حق.. فهو يمشي كأنه يقول للأمن خذوني).. سألوه عن بطاقته.. أبرز لهم ورقة

جواز السفر متباهيًا.. بعد يومين بالحجز عرفنا مكانه، وتدخل أولاد الحلال والأصدقاء بجمعيات حقوق الإنسان حتى أخلي سبيله.

من طرائف الأمور التي حدثت وأنا معه، أننا سمعنا ضجة ونحن جالسان على المقهى، وذهبنا نستطلع الأمر.. كانت الضجة مبعثها شارع طلعت حرب أو لو شئت الدقة في بلكونة الحزب العربي الناصري.. كان بعض أعضاء الحزب من أعلى يهتفون، والأمن المركزي وجنود العمليات الخاصة وبعض الجنود السريين في ملابسهم العادية واقفين بالأسفل يتابعون الموقف.. ووقفنا خلفهم مع بعض المارة نشاهد. كانت التظاهرة في نهايتها وسرعان ما دخل الهتيفة إلى الداخل بميكروفونهم، وركب جنود الأمن المركزي سياراتهم، ووقف نقيب شرطة بجهازه اللاسلكي بالقرب من بوكس الشرطة الخلفي ينادي على رجاله المتخفين في لبس مدني، هرع الرجال تجاه السيارة، وبدءوا يقفزون إلى داخلها، والنقيب يتعجلهم.

كنا في طريق العودة إلى المقهى سائرين بالقرب من تلك السيارة.. نظر النقيب تجاه هريدي الذي كان مرتديا قميصًا مفتوحًا على فانلة قطنية وحالقا شعره زيرو.. ظنه النقيب من رجاله فشخط فيه: «اطلع العربية أنت لسه حتتمرقع!»، الغريب أن هريدي صعد فعلا إلى السيارة ولحقت بيده في آخر لحظة وأنزلته منها وأنا أقول له بدهشة: «يخرب بيتك يا هريدي أنت طالع فين؟!.. الظابط بينده على رجالته»..! نزل هريدي من السيارة وهو يجاوبني بدهشة: «الظابط قاللى اطلع أهو أتفسح شوية بالعربية»..! لم أعلق فأنا أعرف هريدي جيدا، لكن الضابط ضحك بشدة...

رآها على الرصيف المقابل لمقهى «زهرة البستان» تبدو حائرة قلقة فأدرك أنها تجلس للمرة الأولى على المقهى.. ترك الطاولة دونما استئذان واتجه

ناحيتها.. سحب كرسيًا وجلس بجوارها يسألها السؤال التقليدي: «قصة ولا شعر»...! ابتسمت الفتاة وقالت بلهفة: «عندي ديوان شعر فصحى وديوان عامية ومسرحية و٣ روايات وسيناريو فيلمين» لقط هريدي الخيط وعرَّف نفسه بسرعة بأنه ناشر وسينشر لها كل أعمالها.. ومن هنا بدأ لقاء روائع النغم.. لكي يكتسب مصداقية عرفها علينا لكي نقرأ أعمالها ونقيمها.. قرأ لها الصديق الراحل القاص وفيق الفرماوي قصة وأثنى عليها. قالت له بجد وحزم: إنها لن تنسى له هذا النقد القيم لعملها، وعندما سينحني لها ملك السويد وهو يسلمها جائزة نوبل ستخبره بأن الأستاذ وفيق هو الذي ساندها ووقف معها في أول حياتها الأدبية.

هام بها هريدي وهامت به.. كانت طيبة وادعة مبتسمة مفتونة بالعمل الأدبي، لكنه بالطبع لم ينشر لها شيئًا حتى الآن.. في بداية ارتباطهما الروحي أعطاها موعدًا بأتيلييه القاهرة جاءت في الموعد تمامًا.. انتظرت نصف ساعة ثم ساعة إلى أن أخبرها أولاد الحلال بأن هريدي يجلس في بار «ستيلا». قامت الفتاة مضطربة لضبطه متلبسًا.. رأته من خلف السلك المشغول لشباك البار يضحك ويقهقه في سعادة. ما الشيء المتوقع الذي تفعله فتاة في مثل موقفها؟.. أن تقتحم عليه البار وتهزئه وتمسح به الأرض وتجرسه..! أو أن تقرر الابتعاد عنه وعدم التعامل معه مستقبلًا..! أو أن تشكوه لأصدقائه فيؤنبوه ويأخذوا بحقها منه... لكنها أخذتها من قصيرها وذهبت مباشرة إلى نقطة «كوتسكا»[1] التابعة لقسم قصر النيل والتي بجوار

---

(١) نقطة كوتسكا.. هي مركز شرطة تابع لقسم قصر النيل واسمها حاليا نقطة التحرير.. وكان اسم كوتسكا مستخدما حتى نهاية الثمانينيات في المراسلات الرسمية، ويبدو أن البيت الذي يستضيف النقطة حتى اليوم كان مملوكا فيما سبق لرجل الأعمال اليوناني «ثيو خاري كوتسكا» الذي كان شهيرا في النصف الأول من القرن الماضي بأنه من أغنى أغنياء الجالية اليونانية أو من ضمن ملكية ابنه «جورج كوتسكا» الذي كان معاصرا للملك فاروق وترك مصر عقب ثورة

سينما أوديون.. وقفت أمام الضابط تشكو له هريدي..

تسمر الضابط مأخوذًا ثم قال مبتسمًا: «عايزاني أعملك محضر لواحد طنش ميعادك..»؟ انتبهت الفتاة واستطردت بسرعة: «مش عشان طنش ميعادي بس.. لكن لأنه أخد أعمالي الأدبية الكاملة ومش عاوز يرجعها أو ينشرها!».. ظن الضابط أن هذه الأعمال الكاملة قد تكون صيغة الفتاة المسكينة الذهبية أو شبكتها.. اضطر الضابط لمصاحبتها إلى البار وأخذ معه أمين شرطة وجنديين.. تجريدة كاملة أتت للقبض على هريدي بالبار.. وكانت ليلة ليلاء انتهت أخيرا بتعهد هريدي بنشر الأعمال الكاملة للمؤلفة الشابة في أقرب فرصة.. لكنه تحايل على الأمر وقرر الزواج بها بسرعة بدلًا من التحايل على النشر..

استعد هريدي جيدا لمعرضه الأول بأتيلييه القاهرة.. بدأ يمر علينا كثيرا بمنطقة وسط البلد حاملا تحت إبطه ألواحًا خشبية عريضة من الأبلكاش، ويحدثنا عن مشروع معرضه.. كان يتكلم بحيوية ووجهه مرآة تعكس الفرحة.. كان المعرض جميلا استخدم هريدي مهارته في الطباعة، وطبع

يوليو، وثيو كوتسكا هو أول من أدخل صناعة الكحول والسبرتو إلى مصر في عام ١٨٩٣. وهناك مستشفى شهير في الإسكندرية اسمه المستشفى اليوناني أسسه كوتسكا عام ١٩٣٦ وبدأ العمل فيه عام ١٩٣٨ لخدمة الجالية اليونانية والأسر المصرية، وقد انتقلت ملكية هذا المستشفى إلى الهيئة العامة للتأمين الصحي في عام ١٩٦٤ وتغير اسمه إلى مستشفى جمال عبد الناصر... كما أن مكرم عبيد في كتابه الشهير «الكتاب الأسود» الذي صدر في ٣١ مارس ١٩٤٣، والذي يفضح فيه وزراء حكومة الوفد ويكيل الاتهامات لرئيس حزب الوفد ووزرائه ومحاسبه.. ذكر في كتابه أن النحاس عندما كان وزيرا للداخلية والخارجية بجانب رئاسته للوزارة، طلب من رجل الأعمال اليوناني كوتسكا التنازل له عن سيارة «باكار» حديثة وكاملة التجهيز من دون مقابل مادي، وفعلا تنازل كوتسكا للنحاس عن السيارة من دون مقابل. ومن المعروف أيضا أن هناك منطقة كاملة بطريق حلوان بين محطتي «طرة الأسمنت» و«طرة البلد» لايزال اسمها حتى اليوم «محطة كوتسكا» حيث كانت بها مصانع كوتسكا ومنازل عماله، وكانت هذه المنطقة منتجعا أيضا في النصف الأول من القرن العشرين.

على الخشب بعض الأعمال الفنية بمهارة. كانت لوحات المعرض تبلغ ٢٠ لوحة.. ثاني أيام المعرض أخبرنا أن خواجة مكسيكي كان بالأتيلييه بالمصادفة وأعجب بالمعرض واشترى ١٥ لوحة.. ثالث أيام المعرض قال إن مهاجرا مصريا في أمريكا دعاه لعمل معرض بواشنطون بعد أن انبهر بمعرضه.. وهكذا طيلة أيام المعرض الذي انتهى فعلا ببيع أغلب اللوحات، واللوحات القليلة التي بقيت، لم يأخذها هريدي إلى بيته مباشرة. علقها على جدران بار ستيلا لكي يراها من لم تتح له فرصة زيارة المعرض.. وكذلك الأجانب المترددون على البار.. وكان سعيدًا جدا بالمناقشات التي تدور حولها في البار أكثر كثيرا من سعادته بكلام النقاد وكبار الفنانين الذين أثنوا على معرضه في الأتيلييه أو حتى اللقاءات التليفزيونية التي سجلت معه بمناسبة افتتاح المعرض.

بعد ذلك عمل هريدي فترة في قناة فضائية شهيرة مساعد إنتاج ومسئولا عن الهدايا الدعائية الورقية والقماشية. ويبدو أنه اختلف مع مديره أو لم يعجبه أداء هذا المدير، لأنه أتى إلى المقهى ذات يوم يبحث بلهفة عن عبده البرماوي، وهو شاب مثقف خريج كلية السياسة والاقتصاد ويعمل مستشارا لجهة بحثية كبرى ومشهود له بالكفاءة والألمعية.. عندما وجد هريدي عبده طلب منه ورجاه أن يعمل عندهم بالقناة مديرا عليه! طبعا عبده كبر دماغه وطنش، بينما أعجبتني فكرة أن يعين الموظف مديره.

أنجب هريدي طفلة جميلة ورأيت ثلاثتهم بالأتيلييه.. ابتسمت الزوجة وقالت لي بوداعة: «هو أنت مش حتنشر لي روايـة؟..». أجبتها بسرعة: «ابعتيهالي أقرأها».. قالت بحماسة: «أنا دلوقتي عندي كرتونة مليانة روايات حاخلي هريدي يجيبهالك ونقي منها اللي يعجبك».. أمن هريدي على كلامها

ثم غمز لي بعينه وهما يبتعدان بما معناه «طنش».. لكني مازلت أخشى أن يأتيني يومًا بالكرتونة وأجد نفسي متهمًا بالسطو على الأعمال الكاملة.

(قبل أن أنشر هذه الحلقة بجريدة البديل قرأتها على هريدي وكنت قد استبدلت اسمه الحقيقي وأسميت بطل الحلقة «محمد بسطاوي»... بعد أن انتهيت من القراءة قال لي بدهشة: «هي الحلقة دي عن مين»؟ قلت له: «عنك يا هريدي هي مش عجباك..»! فاجأني بقوله: «مدام عني يبقى تكتب اسمي عليها»، وفعلا هذه من الحلقات المعدودة التي اسم البطل فيها هو اسمه الحقيقي. وبعد نشرها قابله بعض محدودي الموهبة في الأتيلييه وسخنوه بأن يرفع قضية، لكنه ـ كما أخبرني بعد ذلك ـ رد عليهم بكل بساطة بأنني الوحيد الذي فهمته صح، ومخ ع الزيرو تعني مخ ملفوف في سوليفان لم يستهلك مش زي مخكم ياغجر اللي فقد الصلاحية!)...

علا ريختر





رأيتها للمرة الأولى بصحبة خطيبها الفنان التشكيلي الشاب في أعقاب زلزال عام ١٩٩٢، ولضخامتها وتغندرها في مشيتها التي تكاد تهز الأرض طربا، أسميناها «علا ريختر».. ومن الجميل أنها لم تعترض على هذه التسمية، والأنكى أنها كانت تشاركنا السخرية من هيكلها الضخم.. لم تكن جميلة فقط، بل وكانت فاتنة وترتدي كل ما يثير.. عيناها ملونتان وأنفها قيصري وشعرها كستنائي طويل ومجدول.. طويلة وعريضة من غير بدانة أو زوائد جسدية..

عندما تمر بالطريق.. أي طريق يفسح لها المارة حيزًا، وعندما تغادرهم تنطلق التعليقات الطريفة: «جمل.. وحش.. اللهم بارك.. يا أرض اتهدي!».. الأطفال فقط كانوا يبتعدون متوجسين؛ فقد كانت بالنسبة لهم عملاقة خارجة من قصة مغامرات «جليفر في أرض العمالقة».. وأحيانًا كان المشاكسون منهم يطاردونها وهم يقولون: «يهزوكي تنزلي بلح» باعتبارها نخلة باسقة.. كانت تعود مبتسمة تحكي لكل من يقابلها عما قاله الأولاد لها..

لها ابتسامة عذبة جدًا كما أنها جدعة ومضيافة.. عندما ترى أحدنا مارًا بجوار منضدتها ـ حتى لو كانت لم تقابله إلا مرة واحدة ـ تصر على دعوته للجلوس وتنطلق في الحديث معه كأنها تعرفه منذ زمن بعيد.. لا تبالي بالغمز واللمز أو

تحديق العيون لمفاتن جسدها التي تتعمد إبرازها دونما حياء.. هي باختصار «راضعة تلج» لا تهمها الناس كثيرا، ولا تؤثر فيها الأنواء والعواصف.

لم تكن معتادة على أجواء مثقفي وسط البلد، فهي خريجة كلية الحقوق ولم تكن لها اهتمامات أدبية أو فنية.. بعد أن فسخت خطبتها من الفنان التشكيلي لسبب ما، عزمها آخر في افتتاح معرض بجاليري المشربية.. اعتقدت أن الدعوة معناها الحضور بهدية للفنان، لذا قدمت مشكورة للفنان في افتتاح معرضه «صينية مسقعة في الفرن تهبل» أكلناها ليلة الافتتاح وانهالت عليها سخرياتنا الفظيعة التي قابلتها بضحكات عذبة، وهي تقول: «أديكو طفحطوها! مش أحسن من الورد اللي حيترمي بكرة في الزبالة؟!».

لم تصمد طويلًا في نطاقنا خصوصا بعد أن تزوجت سريعًا من مثقف زيجة ثانية قصيرة لم تتجاوز الشهور الثلاثة.. باتت تختفي كثيرًا، لكن دائمًا تعود.. ترانا وتسأل عنا جميعًا وتقابل ما تيسر من الزملاء ثم ترحل..

أصبحت مزواجة جدّا.. كل مرة لها قصة زواج مختلفة.. القصص كلها تتميز بقصر المدة وعبثية الارتباط.. فمرة تزوجت مندوب شركة «لكلوك» لتصنيع الطرشي البلدي لمجرد أن المندوب وكلها في الدفاع عنه ضد تعنت صاحب الشركة..وكسبت قضيته واستطاعت إعادته إلى العمل، لكنها اكتشفت أنه غير فرحان بهذه العودة، لأنه يخشى بطش صاحب الشركة، لذا تزوجت منه حتى لا يجرؤ صاحب العمل على أذيته مرة أخرى.. ثم تخلصت منه بعد أن اكتشفت أنه ساق فيها، وبدأ يعمل مشكلة كل يوم لصاحب العمل اعتمادًا على سطوتها.. وفي مرة تالية تزوجت سائق تاكسي لمجرد أنه كان ينتظرها أمام البيت، وينتقل بها من محكمة لأخرى ولا يبدى تبرما أو ضيقا، مهما سخت عليه أو ضنت ويبتسم في وجهها لو رضيت عنه أو غضبت... ثم زهقت منه فاشترت سيارة لكي تتخلص منه..

قصصها عن أزواجها مسلية وطريفة وتستطيع حبكها بمهارة تجعلك تصدقها بسهولة، إلا عندما كانت تحكي عن أحد أزواجها وتتهمه بأنه كان يضربها ويربطها في قائم السرير.. هنا لن تجد خيالًا يسعفك بصورة هذا العملاق الذي يستطيع ضربها وربطها في السرير..

هذه هي علا الجميلة القادرة على قاهرة الرجال، التي لم يقدر عليها أحد.. تقدم السن فقط هو الذي جابها لمس أكتاف.. اقتربت من الخامسة والثلاثين، وكانت قد زهدت في الزواج لمدة سنتين، فجن جنونها وعادت إليها مرة أخرى حالة مرعبة من الشبق والذعر الجنسي، إثر معلومة خاطئة بأنها على حافة انقطاع الطمث نهائيًا وتعذر فرصها في الإنجاب..

الإنجاب الذي لم يكن بذهنها قط، أصبح شاغلها الشاغل هذه المرة. بدأت تظهر بملابس أكثر فتنة، تلبس «توب كت» وتضع عليه بوليرو (جاكيت قصير جدًا من الكتان أو الحرير) أو أحد الشيلان الملونة، عندما تمر علينا بالمقهى وتجالسنا تزيح شالها وتترك ما يظهر من مفاتنها سبيلا أمام كل الرواد.. وعندما نصعد سويًا إلى النادي اليوناني لنسهر ليلًا، بمجرد دخولها صالة النادي المكيفة جدًا إلى درجة الصقيع، تتخلص من البوليرو أو الشال كموظفي البنوك التعساء الذين يتخلصون من رابطة عنقهم في المصاعد أو الشارع عقب انتهاء ورديتهم. وتجلس على المنضدة بسعادة وهي تطلب ما تشاء من شراب..

الكأس الثالثة غالبًا بداية المأساة.. ممكن أن تصرخ وتلعن الزواج والأزواج أو تبكي بعيون زجاجية.. ونظل نهدئها ونحايلها حتى تعود إلى طبيعتها.. أحيانًا يتدخل شخص ما ـ ليس على صلة بنا ـ قد يكون أعجبه منظرها واعتقد أنه الفارس القادر على كبح جماح هذا الفرس.. يندس بيننا

ويعطيها منديل كلينكس لمسح دموعها.. تنظر إليه بفضول بعد أن تتناول منه المنديل.. لكنه عندما يتجرأ ويبدأ في سؤالها عما بها.. تسأله بدهشة واستنكار: «إنت مين؟!». يجيبها عن كنيته، تقول له بسخرية بعد أن اعتدل مزاجها وأخذت منه كارته الشخصي: «حاخليك في وقت زنقة.. يمكن تنفع في الأيام السودة.!».. وتتركه دون أن تلتفت إليه كأنه هاموش.

تفاقم الأمر وتفشى الذعر الجنسي إلى درجة خطيرة.. تجاوزت علا المقنن المعياري في الشرب وبدأت تنظر إلى مفاتنها بوله وتنهض مترنحة تسير بين المناضد وتقبل جميع الزبائن بلا استثناء.. أعادها إلينا مدير المكان، وطلب منا باستعطاف أن نجعلها تهمد.. سمعت علا الكلام ولم تتحرك.. انكسرت رقبتها على صدرها خجلًا.. لكنها فجأة تأملت صدرها ومفرقه، ومدت يدها كأنها تعدل صدريتها، ثم بحركة مباغتة أخرجت أحد ثدييها الضخمين وقالت بفجاجة وفخر: إيه رأيكم في ده؟.. حدث هرج ومرج والتففنا حولها نستر عليها حتى أعادته إلى مكمنه.. وشربناها جردل قهوة قسرًا حتى بدأت تفيق، ثم أخرجناها من المكان الذي لن تعود إليه مطلقا، كما قررت هي بنفسها بعدما سمعت بفعلتها المخزية في اليوم التالي للواقعة... اختفت عدة أيام، ثم عادت تعتذر إلينا بدموع حقيقية.. وتتقبل قرارنا الصريح بألا نسهر معها مرة أخرى برحابة صدر، وهي تقول: عندكم حق والله أنا مش عارفة بتستحملوني إزاي؟!

ثم تعرفت بأديب شاب طيب وصغير الحجم يصغرها بسنوات وسنوات.. وفي غضون أشهر قلائل كانت قد تمكنت منه، وأدخلته عرينها بسهولة، وتزوجته على سنة الله ورسوله.. وبعد أن مر شهر العسل بسلام، بدأت تجالسه بالساعات على رصيف المقهى تطعمه بيدها وتمسح له شدقيه بالكلينكس،

وتسير بجواره وقد ازدادت عملقة بجوار ضآلة جسده، غير آبهة بنظرات المارة وهمس البائعين.. وحققت بغيتها وأكرمها الله بالحمل المنتظر..

وانتهى دور الزوج، لكنها لم تقتله كأرملة العنكبوت السوداء.. ظلت تشيع عنه أنه يسبها ويؤذيها وله علاقات.. وطلبت منا أن نساعدها في التطليق منه. لأنه يرفض أن يطلقها ويساومها على الطفل القادم.. انخدعت بكلامها من كثرة زنها وسمعت كلامها وذهبت إليه في مقر عمله لأطلب منه أن يريحها ويطلقها..

قابلني بود شديد، وعندما بدأت بالكلام طالبًا منه أن يريح السيدة ويطلقها بالمعروف.. أمسك بيدي متضرعًا وقال: «أبوس إيديك يا خال طلقني منها»! واكتشفت السر المذهل أنها ممضياه على إيصال أمانة بـ ١٥٠ ألف جنيه، قبل الدخول بها، وتريد الطلاق دون أن تعطيه الإيصال.. واجهتها بكل ما قاله الزوج.. قالت بثبات: «وإيه يعني لما احتفظ بالوصل عشان أأمن مستقبل الولد»؟! أقنعتها بصعوبة إن كانت تريد الطلاق فعلًا، فلا بد أن تتخلى عن الإيصال، ووافقت أخيرًا مضطرة..

في مقاطعة «سكلينج فوت» بالنمسا.. كان الفنان المهاجر المصري حسن لديه فرقة مسرحية باسم «المحروسة» أعضاؤها كلهم نمساويون ويقدمون عروضًا مسرحية مستوحاة من التراث المصري.. كقصيدة الخيول لأمل دنقل، أو امرأة عند نقطة الصفر لنوال السعداوي أو بعض قصص نجيب محفوظ ويوسف إدريس بعد إعدادها للمسرح.. كان حسن يكتب النص ويخرجه وكان لفرقته صيت طيب بالمقاطعة وكانت الصحف النمساوية تهتم بعروضها وتشيد بها.. لكن «حسن» لم يكن راضيًا عن حياته، ٢٥ عامًا من الهجرة، وعلاقات متعددة مع النمساويات لكنه ظل مأزومًا ويغلبه إحساس بأن حياته ينقصها شيء مهم..

وحلم في ليلة صافية أن خلاصه في زيارة مصر والزواج منها والعودة مرة أخرى إلى النمسا.. وهنا ساقه القدر أو بالأحرى إحدى الجارات القدامى لوالدته، إلى معرفة علا.. كانت علا جاهزة وخيوط شباكها متأهبة. اقتنصت «حسن» من أول لحظة، وجعلته يهيم بها في ثوانٍ وعادت به إلى الزاوية نفسها بالمقهى تطعمه وتمسح فمه بيدها الكريمة.. حتى أعلنا الزواج بمصر، ثم ذهبت معه في أول الأمر إلى النمسا لمدة ستة شهور بدون طفلها.. وعادت من هناك منبهرة تحكي باستفاضة عن طيبة حسن وشهرته وتروج لموهبته الفنية التي يشيد بها الجميع هناك..

وبعد فترة قصيرة استطاعت بجبروتها أن تقنع «حسن» بأن يعيش طفلها معهما بالنمسا.. كذلك استطاعت إقناع طليقها بهذه الفكرة.. وناضل حسن نضال الأبطال في إقناع مسئولي السفارة النمساوية بمصر بأن يأخذ معه إلى النمسا طفلًا ليس ابنه.. لكن الظروف محال أن تقف أمام علا مهما كانت.. نجحت أخيرا في الحصول على تأشيرة دخولها مع طفلها إلى أراضي النمسا، وغادرت مصر بصحبة طفلها وإلى جوارها زوجها الجديد المبتسم دائما حتى تلك اللحظة.. الأخبار القادمة من هناك لم تعد تسر.. ولولا أنني سمعتها من طليقها حسن ما كنت صدقت.. رأيته على المقهى وقد تبدل بالكامل.. انحنى ظهره وتقوس وبدا جسده نحيفًا بصورة غير طبيعية..

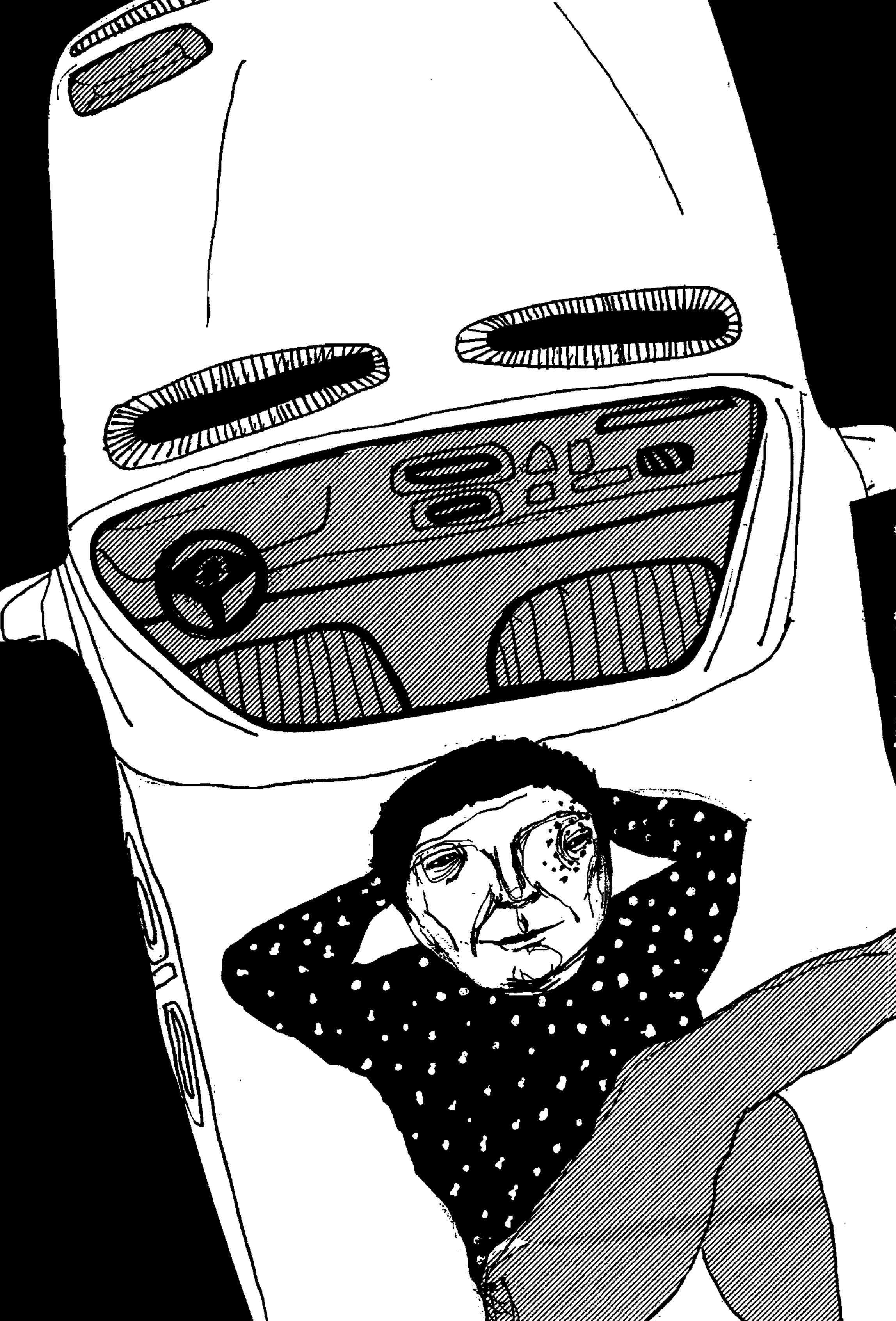
خلاصة أمر السيدة علا هناك.. أنها بعد عامين من الزواج.. (وهذه أكبر مدة زواج عاشتها) تعرفت على رجل نمساوي مهم ورغبت في الزواج منه.. لكن كيف تفلت من الأمر والطفل في كنف حسن كما وقعت على الإقرار بالسفارة؟.. دبرت خطة وسافرت بحسن والطفل إلى مصر في زيارة قصيرة.. ثم عادت إلى النمسا بعد أن أحكمت تدبيرها... وهناك بدأت تفتعل الأزمات

مع حسن وتهينه وتورطه في الدخول معها في مشادات.. ثم شكته في المحكمة متهمة إياه بضربها وإجهاضها بمصر.. وهذه تهمة رهيبة في المجتمعات الغربية.. ممكن أن يسجن بسببها ٢٠ سنة أو أكثر.. وكانت معها أسانيدها.. شهادات طبية ومحاضر شرطة مزورة جلبتها معها من مصر، ترجمتها ووثقتها بالسفارة في غفلة من حسن.. الذي وقف أمام القاضية ينفي التهم بكل جهده.. والقاضية حائرة بين الندوب والآثار الزرقاء التي على جسد علا والتي أجادت عملها، والوثائق الرسمية المترجمة التي بين يديها..

الذي أنقذ حسن شيء واحد: أن القاضية اكتشفت من واقع الأوراق التي بين يديها أن علا تزوجت ٧ مرات.. وهذا شيء جنوني في الغرب.. ارتابت القاضية في الأمر وأحست بأن علا «بتتبلى» على حسن، فاكتفت بتغريم حسن ماليًا ونفيه خارج مقاطعة «كلينج فوت»، وحذرته من الاقتراب من هذه المقاطعة لمسافة تقل عن ١٠٠ كيلو متر..

بعد ٢٥ سنة هجرة، حسن الآن يبدأ من جديد في «سالزبورج» بعد أن فقد فرقته وعمله وأصدقاءه، يحاول أن ينهض من جديد ويكون فرقة مسرحية من العدم.. وعلا تزوجت من السياسي النمساوي المهم.. وتنوي ترشيح نفسها في البرلمان.. وغالبًا ستنجح.. وتعود إلينا كبعض المصريين الذين هجرونا وعادوا لينتقموا.. أتوقع أن يكون أول انتقامها أن تفرض علينا إزالة جميع النخلات التي ببر مصر حتى لا يقول لها أحد «يهزوكي تنزلي بلح»!

العاشق



بعد سلسلة طويلة من الإخفاقات العاطفية المتتالية، لفت هذا العاشق نظري إلى أسلوبه الفريد في العشق.. من موقعه ببلكونة الدور الأول بأحد مباني وسط البلد العريقة، ينظر إلى حيث تقف حبيبته بوله، ثم ينزل سلالم المبنى بهرولة.. لا يتجه إليها مباشرة بل يقف ناظرًا إليها من على مسافة.. ثم يتحرك تجاهها ببطء، وأسارير وجهه تضج بالفرحة.. لا يمسها بيده بل يلف حولها أولا أكثر من مرة.. لا تهمه نظرات العابرين ولا تعليقات الصبية الصغار المشاكسين ولا الباعة ولا المشترين.. ثم يبدأ في تحسسها والكدر يعتليه لو تلمست راحة يده شيئًا لم يكن بها من قبل.. ثم يصعد مرة أخرى بعجالة كمن تذكر شيئًا نسيه، والحبيبة ما زالت في مكانها.. ويعود بعد قليل بملابس صيفية تصلح للبلاجات (تي شيرت وشورت قصير) حتى لو كنا في ذروة البرد القارس..

يجذب الرياشة الطويلة من أسفل كنبتها الخلفية ويخرجها من غمدها البلاستيكي.. يضرب الرياشة في جنبه وساقه فيتخلف عن ذلك بعض الغبار.. ثم ينظر إلى الرياشة بتحديق عكس اتجاه الشمس حتى يطمئن على نظافتها.. يمشي بالرياشة على سطحها اللامع وعلى كاوتش العجلات.. ثم يرجعها مكانها.. في أثناء تلك الفترة يكون صبي «الجراج» قد مد له خرطوم المياه وقرب منه الدلو.. لا يجرؤ الصبي على توجيه الخرطوم نحوها أو حتى على مقربة منها فيتناثر رذاذ المياه ويبللها.. بل لا يجرؤ أصلًا على فتح المياه إلا بأوامر منه.

بعد أن ينتهي من رقدته أسفلها وهو ينظف أجزاءها المستورة عن العيون بفوطة صفراء.. يجذب الحصيرة الصغيرة التي كان يرقد فوقها، ويكومها على

الرصيف.. ثم يبدأ في رش المياه عليها برشات محسوبة.. يجففها بعدها بقطعة من الصوف وهو راقد فوقها كذكر السلحفاة عندما يضاجع رفيقته.. ينظف كل سنتيمتر منها، إلى أن يأتي دور الإسفنجة الصغيرة المستديرة بحجم باطن الكف.. التي يبللها برفق بالمياه لينظف أرقامها من الأمام والخلف حتى يأتيه الصبي ببقايا جريدة يلمع بها المرآة وفوانيس الأضواء مستعينا على زجاجة بعبوة بلاستيكية صغيرة مملوءة بسائل أزرق شفاف وعلى فوهتها رشاش صغير.

قطعًا نحن قد نفعل مثله أو أكثر عندما نشتري سيارة جديدة أو يكون بنا هوس للنظافة فننظفها مرة كل يوم. المدهش أنه يفعل هذا أكثر من أربع مرات في اليوم وعلى مدى سنوات كثيرة.. والمذهل أنه يحفظ طرازها.. مميزاته وعيوبه وتاريخ صنعه والظرف التاريخي المقترن بصنع هذا الطراز.. ويعرف أيضًا عدد لفات العجل وكم سارت من كيلومترات ومن صوت محركها يعرف متاعبها بالتفصيل..

والأدهى من ذلك أنه يطارد السيارات كافة من الطراز نفسه إن مرت مصادفة في الشارع.. لو كان بالبلكونة.. ينزل مسرعًا بما كان يرتديه وهو يتمنى من الله أن تعطل السائق سيارة ما سائرة بالخطأ في الاتجاه المخالف أو يوقفه شرطي لأي سبب أو يتوقف لشراء ساندوتشات أو دخان.. وإذا أسعده الحظ ولحق به.. يخبط بمتن أنامله على الزجاج الذي جهة السائق، ثم يكلم قائدها من خلال الزجاج.. وإذا تغابى السائق ولم يرد.. يقفز إلى الأمام وبحذر يقف أمام السيارة التي يتوقف سائقها مندهشًا.. يخرج السائق مستطلعًا: ما الأمر؟ يبتسم صاحبنا في وجهه وهو يشير إلى سيارته المركونة في آخر الشارع بما يعني نحن نملك الطراز نفسه فنحن أصدقاء.. ويجري أحاديث مع السائق عن متاعبها وكيف يعاملها وينصحه بعدم بيعها ويدلل على وفائها. وعندما تدوي النفافير من خلفهما أو يتذمر السائق في وجهه ويركب سيارته ويمشي.. لا يعود محبطا «بل يمشي مختالًا كأنه فعل ما عليه»..

ويكرر هذه الفعلة مئات المرات.. وفرحته تتوج رأسه عندما يكون الشارع هادئًا وليس هناك تكدس بالمرور.. حينها يستوقف صاحب الطراز نفسه إذا وجد منه ودًا، ويصحبه إلى سيارته ليفرجه عليها شبرًا شبرًا، ثم يخرج دفتره

الذي يدون فيه كل مشاكلها والحلول والإضافات الميكانيكية التي أضافها عليها بعد استشارة الشركة الأم في ألمانيا.. وكتالوج الشركة المصنعة التي توقفت الآن عن صنع هذا الطراز، رغم أنها لم تزل تفتخر به كما يدعي.

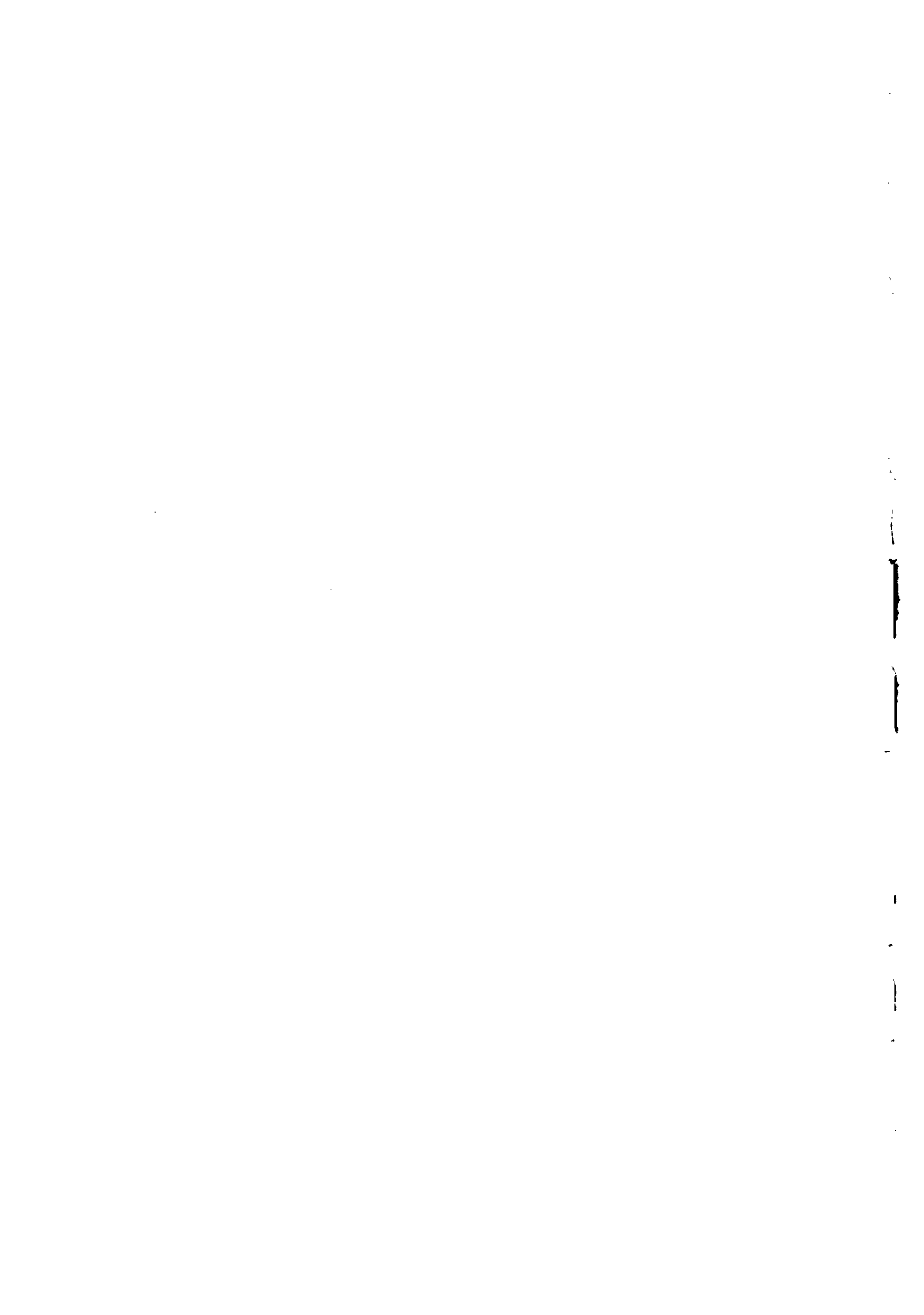
لو كنت مهووسًا بحبيبة مثله، لم يكن ما لاقاه من جراء حبها أقل مما سألقاه.. من ضغوط الحياة اليومية المعقدة.. أو من تدخل الآخرين في شئونه.. أو من الأولاد العابثين الذين يعرفون مدى حبه لها ويستغلون وقوفه بأعلى وبعده عنهم.. فيلقون عليها الأتربة أو يمرون بمساميرهم الحادة على صاجها.. أو من المنادين القساة الذين يستغلون عدم وجودها ويشغلون مكانها بسيارات أخرى.. أو من أمور لا نعرفها جعلته يثور جدا في يوم من الأيام ويركلها بشدة ثم يفتح بابها الأمامي ويترك خرطوم المياه بداخلها ليغرقها تمامًا.. ثم يفتح غطاء محركها ويغرقه أيضًا بالمياه.. وكذلك «تنك» وقودها وزيتها..

وحين تدخل المارة قاومهم بعنف وسبهم ولعنهم وصعد إلى شقته.. أغلقت زوجته غرفتها عليها واحتضنت طفليها الصغيرين وظلت تنتحب.. ثم ظهر بالبلكونة يلقي عليهم وعلى السيارة بالأثاث المهشم.. ثم زاده عنفا ظهور زوجته من شرفة الغرفة المقابلة تستصرخ الناس للصعود.

ظلت السيارة فترة طويلة قابعة في المكان نفسه. وقد تغيرت هيئتها كثيرًا.. القاذورات ومخلفات الطير تعلوها.. وهيكلها مجرح بالآلات الحادة الصغيرة التي استخدمها الأولاد المشاغبون.. ورتعت القطط والكلاب الصغيرة والعرس أسفلها.. كانت بالضبط مثل فتاة هجرها حبيبها الأول والأخير والوحيد.. فلم تغير ثوبا، ونحلت وضمرت.. وظهرت الشعيرات بكثرة في أجزائها المكشوفة.

كنت أظن أنها لن تعود إلى سابق عهدها.. حتى ولو بعد أشهر من الصيانة والغسل والدهان.. لكنها بمجرد أن عاد.. نفضت عنها غبارها، وتركته يمر بيده عليها يزيل عنها أوساخها.. ويجعل صاجها يضيء كأن أنامله سحرية... وسكنت تحت يده منتشية.. وفتحت له أبوابها وظلت قابعة أمام جسده في خشوع.. وعاد للشارع صفاؤه وحيويته. كلما مررت عليها ورأيتها لامعة.. قوية.. فتية.. لم يداخلني شك في أن الحب بين البشر والجماد ممكن وقائم.


HIGHLAND
PARK



ضمن حلقة من حلقات هروبه المستمر من زوجته الدائمة وزيجاته السريعة، استقر بمنطقة وسط البلد لمدة تقترب من الشهور الستة مبتعدًا عن منطقتي مصر الجديدة ومدينة نصر بوصفه مطلوبًا فيهما.. تخفى خلف نظارته الـ«ريبان» بعدستيها السوداوين وبدلته الفخمة من طراز «أرماني» وسيجاره الفخم، وانتحى ركنا بمقهى البستان.

في البداية جلس منفردًا، أنيقًا على غير عادة رواد المقهى وسيمًا إلى درجة ما، متباهيًا ومتعاليًا بسيجاره وولاعته الـ«ديبون» الذهبية ذات الشعلة الأفقية.. مستفزًا لنا بعزلته الاختيارية.. لكن سرعان ما ذاب الجليد وتقاربت الأمزجة.. عندما سمعنا وشاهدنا نلتف حول مطرب شاب يغني لنا على عوده، سحب كرسيه بلا صوت واندس بيننا يستمع باهتمام.. كان يبدو مستغرقًا في الإنصات، مرخيًا جفنيه كالنائم وأنامله تلمس برفق فخذه متحدا مع الرتم.. وإذا ما نشز المطرب أو أخطأ في أداء حركة موسيقية كان يهز رأسه بعنف كأنما يطرد النغمة الضالة..

وبعد الاستماع مليًا طلب من المطرب أداء بعض الأغنيات الشهيرة لأم كلثوم وعبدالحليم.. كان يطلب من المطرب أداء أغنيات صعبة كأنه يتحداه.. ارتبك المطرب الصغير وأعلن عجزه عن عزف الألحان المطلوبة. مد يده بلطف طالبًا العود.. وبدأ في العزف بمهارة غير عادية يصاحبه صوت المطرب

الذي أظهر الأداء العبقري للألحان ضحالة صوته وتواضعه.. وفي تلك اللحظة أسرنا جميعًا وأزال الحواجز والحدود التي كانت بيننا وبينه في مدة وجيزة.

عندما بدأ التعارف بيننا، ذهلنا جميعًا، فقد كان والده أحد أساطين الموسيقى العربية الذين أثروا حياتنا الفنية وترك لنا تراثًا موسيقيّا رائعًا أمتع وسيظل يمتع الملايين.. في الأيام التالية بدأنا نعرف عنه أكثر.. لسوء حظ فريد أن والده الموسيقار العظيم توفي وفريد في سنته الثانية بمعهد الكونسرفتوار.. فقده الوطن فجأة، ولم تتوقف الإذاعات والمرئيات والصحف السيارة بأنحاء الوطن العربي كافة عن نعيه، والتذكير بأعماله، والتنبيه إلى قيمتها، والتأكيد على خسارتنا الفادحة لهذا الملحن العبقري.

وهنا حدث الخطأ الأعظم في مسيرة فريد أو ما يمكن اعتباره خطأ غير مقصود.. إذ عَدَّه بعض النقاد وبعض محرري الصفحات الفنية امتدادًا لوالده العبقري وتنبئوا بقدرة فريد على إكمال مسيرة والده.. وإكراما لوالده العبقري أعلنوه ملحنًا دون أن يلحن شيئًا.. وهذا غير طبيعي من شاب في عامه الثاني بالمعهد ـ وصدروه للناس بوصفه ملحن المستقبل تحت راية «ابن الوز عوام».. والأنكى أنهم ناشدوه وطالبوه بأن يكمل أعمال والده التي أعجزه القدر عن إتمامها.. والنتيجة بالطبع عدة ألحان متواضعة القيمة والمستوى أدت إلى هروب مطربي ومؤدي الصف الأول والثاني، ولم يتبق له إلا فلول المطربين والمطربات الكائن موقع أغلبهم بشارع الهرم وكازينوهات التوفيقية.. سمعنا أن له زيجات عديدة بمطربات النوادي الليلية وبراقصات لبنانيات لكي يمنحهن الحق في الإقامة.. هذا بخلاف زوجته المخرجة أم أولاده.

بدأ الإقامة في وسط البلد أولًا بفنادق الـ ٣ نجوم منتهيًا ببنسيونات الدرجة الثالثة.. واعتدنا أن نرى عمال هذه البنسيونات يبحثون عنه ويطاردونه لتأخره عن دفع قيمة الإقامة، أو زوغانه بعد أن يودع بالأمانات حقائبه التي ليس بها شيء

ذو قيمة.. لكنه كان سرعان ما يعود بنقود وفيرة يدفع منها المتأخرات ويصرف بكرم حاتمي، ثم يتزوج زيجة سريعة ويغادرنا لفترات كبيرة.. ثم يعود.. دائمًا يعود بالنظام نفسه.. مطاردات.. واقتراض من كل من بالمقهى عمالًا وروادًا.. وعندما يبيع أيا من إرثه أو يحصل على حق الأداء العلني لأعمال والده يفيء بالتزاماته تجاه المنطقة ثم يغادرها إلى أماكن أرقى وأفخم.

توطدت علاقتي به وبأسرته بعد أن تعاونت مع زوجته المخرجة في بعض الأعمال الفنية. وكانت زوجته قد أصرت على أن يختبر المطربات والمطربين الجدد بشقة الزوجية (وبخاصة طبعا المطربات).. لكي يكون تحت نظرها وهو يختبر بعد أن أحدث لها كمّا مرعبًا من المشاكل في كل مكتب يؤجره لهذا الغرض: إما أن تكون مشاكل خاصة بالإيجار، أو دفع مستحقات العاملين به، أو التي تحدث نتيجة تقربه من الصنف الناعم.. وقد حضرت أكثر من اختبار بصفتي صديقا للعائلة وممكن أن أدلو برأي فني استشاري.. ولاحظت أحيانًا قسوته الشديدة على فتيات جميلات ذوات أصوات لا بأس بها.. تصل القسوة أحيانًا لإلقائه بعصا المايسترو على الأرض.. وطردهن.. ثم سرعان ما أسمع أنه تزوج بإحداهن وهرب معها.. زوجته صابرة مكافحة تستحق جائزة نوبل على تحمله.. لكني لم أحتمل صداقتهما.. كنت دومًا حائرًا بين شكاوى الزوجة الصادقة.. وأفعال فريد الجنونية المثيرة للضحك..

كانت الزوجة قبيل شهر رمضان قد نوت أن توضب الشقة وتعيد طلاءها مستغلة غياب فريد في رحلة هرب سريعة.. جمعت أثاث الشقة كله في غرفة فريد وبدأت في دهان بالصالة، كان النقاش جالسًا على السلم الخشبي يدهن السقف وفي الأسفل صبيه يساعده.. دخل فريد الشقة بعد رحلة هربه فاندهش ولم يتكلم.. قابلته الزوجة بالزعيق فأشار إلى العمال فسكتت.. أمرها أن تعد الشاي فانصاعت.. جلس بعيدًا حرصًا على بدلته ومضى يتابع النقاش.. انهمك النقاش في عمله وهو يدندن أغنية تراثية.. جذب صوته فريدا وجعله

ينتبه.. بعد أن شربوا الشاي أقنع النقاش بأن صوته جميل يستحق أن يعمل له «ألبوم».. واستغل انهماك زوجته في المطبخ.. وطلب من النقاش أن يلحق به على المقهى القريب من البيت. أخذ فريد كل متعلقاته الضرورية التي عاد من أجلها إلى البيت وهربها بسرعة عند البقال الذي يقع محله أسفل البيت، ثم أقنع زوجته ـ المتلهفة لعودته ـ بيسر بأنه قد تاب وطلق الأخرى بالثلاثة، وسيعود الليلة إلى البيت بعد أن ينهي تسجيل لحن مهم لأحد تترات المسلسلات.

كل المسألة كانت أن فريدا بحاجة إلى بعض الملابس التي بسببها رجع إلى بيته، وصوت النقاش ألهمه بحاجته إلى مساعد يحمل له الحقيبة ويلف له سجائر البانجو داخل إستديو «إمباير»، ومن هنا وقع اختياره على النقاش تعيس الحظ الذي أهمل فيما بعد عمله الأصلي في النقاشة، وانتهى به المطاف عاملًا يقدم الشاي والقهوة داخل الإستديو.. بينما دخل شهر رمضان على الزوجة والعفش مكركب في غرفة فريد وآثار الدهان ما تزال على الأرض. وفريد ما زال في علاقة جديدة مع مطربة واعدة.

قبل أن أعرفه كنت قد علمت من الزوجة بأنه باع «فيلا» والده وأوسمته ونياشينه بتراب الفلوس ولم يتبق له شيء يستحق أن يباع.. إلا أنه فاجأني وانتحى بي جانبا وأفضى إلى بسر: أنه ينوي أن يبيع جزءًا من مقبرة والده.. اندهشت وتقززت.. فقال لي مبررًا الأمر «تصور أنه مدفون في مقبرة ٦٠٠م على الطريق الدائري.. إيه يعني لو بقت ٤٠٠ م أو ٢٠٠م.. مش الواحد برضه يكفيه أنه يندفن في ٤م..»؟! لم أعلق ولم أسأله فيما بعد إن كان قد نفذ البيع أم لا..

اتصلت بي الزوجة مرارًا ولم أرد.. فلم يعد ما يفعله فريد يدهشني.. لكنها تمكنت من محادثتي أخيرًا وقالت لي وهي شبه باكية.. بأن فريد اتدروش ولم يغادر الشقة منذ أربعة شهور إلا بالجلباب الأبيض يصلي الفرض ثم يعود،

ويغلق عليه غرفته ولا يكلم أحدًا.. حتى إنه ما عاد يتباسط مع أولاده أو يلاعبهم، فقط يربت على رءوسهم ثم يدخل غرفته.. كنت أتوقع هذه النهاية لفريد فلم أتأثر.. فقط هدأتها وقلت لها إن هذا أفضل، فهو على الأقل بجوارها وبجوار أولادها ولم يصرف النقود على الغواني والمتع الشخصية كما كانت تدعي عليه..

لكن يبدو أني كنت واهمًا.. وكانت هي مغيبة.. ففريد لا يخلو أبدا من حقائب الدهشة.. قابلتني زوجته أمام مبنى التليفزيون وصممت على أن تصطحبني إلى البيت لكي أرى فريدا.. لم تعطني إجابة مفيدة داخل السيارة طيلة الطريق وكانت تكتفي بالقول: «حاوريك صاحبك فريد عامل إيه»؟ هل انقلب بوذيا؟.. هل شنق نفسه في مروحة السقف؟ هل أتى بخليلته لتقيم مع داخل الشقة أمام بصر الزوجة؟ فتحت الزوجة باب الشقة واتجهت إلى غرفة فريد وفتحتها على مصراعيها وقالت لي: اتفرج شوف.. لم أر ما يستلفت النظر أو يسترعي الانتباه.. قالت لي آمرة: افتح الشباك! كانت شقة فريد في الدور الأرضي والشباك يفتح على المنور.. فتحته برهبة.. دخلت برأسها معي في فتحة الشباك ومضيت خلف إصبعها الصغير أنظر إلى أرضية المنور.. كانت الأرضية بالكامل مفروشة بزجاجات براندي ٨٤ وبقايا صواريخ البانجو.. ابتسمت.. قالت بغيظ: «بتضحك.. ما انتو كلكم زي بعض.. قاعدلي ست شهور في الأودة قال بيحفظ أوراد وعايز يرجع لربنا، أتاريه قلبها لي بار وناقص يجيب رقاصة ترقصله»..!

منذ عامين لم أسمع عنهما شيئًا لكنني في شوق كبير لسماع مفاجأة أكبر.

طواويس العفن





قبيل الغروب ذات يوم جمعة، وكافيتيريا «علي بابا» تكاد تخلو من الرواد، دخل فجأة صديقي المخرج الشاب وهو في حالة مفعمة بالحماسة والبهجة.. سلم عليَّ بحرارة وعيناه تتجولان بيأس في أرجاء المكان، وعندما لم يجد وجهًا مألوفًا يعلن له انتصاره، جلس بجواري وجذب كوب الماء من أمامي وشربه بسرعة وهو يخبرني بصوت متهدج بأن السيناريست الكبير «فلان الفلاني» وافق أخيرًا على مقابلته بعد وساطة من الفنان «نور الشريف».. وأن فرصة عمره في الإخراج السينمائي على وشك البزوغ..

كان صديقي قد تخرج في معهد السينما بتفوق وجدارة وعمل لمدة عام أو عامين مساعدًا ثالثًا و«سكربت» لأفلام يوسف شاهين، وأخرج فيلمًا تسجيليا رائعًا اسمه «باب الفتوح»، ثم سافر إلى أمريكا للدراسة وعاد بدبلومة في الإخراج بعد أربعة أعوام.. وكان من المفروض أن يتحمس له كثيرون من داخل الوسط أو خارجه.. ما الذي يجبره على أن يوسط فنانًا كبيرًا لكي يقابل هذا السيناريست؟ دار كل هذا في داخلي وصديقي ما زالت أحلامه تنهمر على المنضدة..

ثم نظر إليَّ طويلا وفكر قليلا وهو يتطلع إلى ساعته وهب مرتبكًا يشدني لكي أنهض من مكاني وأحضر معه المقابلة.. لم يستمع إلى اعتراضي المتراخي.. فقد كنت في شوق كبير لمقابلة هذا السيناريست.. كما أنني أحسست بأنه يريد شاهدًا على هذه المقابلة التاريخية.

اللقاء كان بمحل السيناريست المختار (كافيتريا تتاخم حمام السباحة

لفندق ٥ نجوم) الذي يطل على النيل، حيث يطيب له الجلوس وأمامه النيل والخلاء.. وكان السيناريست يتصدر المنضدة التي تطل على «البيسين».. وكانت بجواره فنانة شابة حسناء وأمامه موزع سينمائي لبناني الجنسية.. قدم صديقي نفسه إلى السيناريست الذي رحب بنا وهو ما زال جالسًا متطاوسًا، وأشار بتكاسل نحو كرسيين لنجلس..

استمع السيناريست إلى صديقي الذي كان يعطيه ملخصا عن حياته بإمعان إلا من بعض اختلاسات النظر التي يرميها تجاه الفنانة الشابة والموزع.. لكن للأمانة في النهاية أشاد طويلا بكفاح صديقي المخرج وبخاصة فترات عمله بأدنى المهن بأمريكا كي يتمكن من إنهاء دراسته.. وفجأة فتحت الفنانة حقيبتها وأخرجت مرآتها لتعدل ماكياجها تمهيدا لانصرافها، فاختلجت عينا السيناريست وتوتر.. بينما صديقي لم يفتأ يتحدث عن حلمه بأن يكون فيلمه الروائي الطويل الأول مأخوذا من سيناريو لهذا السيناريست الكبير..

نهض السيناريست في إشارة بأن الوقت قد انتهى ومد يده مسلمًا.. سأله صديقي ببراءة: «أعدي عليك إمتى يا أستاذ عشان آخد السيناريو»؟ تبسم السيناريست ونظر إلى ساعته ثم قال بجدية: «الساعة ٧ زي دلوقتي بالضبط بعد خمس سنين!!».. «تلبشت» أنا في وقفتي ويدي ممتدة في الهواء.. والغريب أن صديقي المخرج تماسك وابتسم وانحنى برأسه في حركة استعراضية وهو يشد على يد السيناريست بحرارة ثم قال بهدوء: «على فكرة يا أستاذ.. أنا حاجيلك في الميعاد». اندفعنا من البهو إلى الكوبري الصغير ثم إلى الشوارع الجانبية بجاردن سيتي.. وكلما التفت إلى صديقي يفاجئني أن الدموع التي تكسو عينيه لم تسقط على خده أو على الأرض، ظل محتفظًا بها في عينيه لماعة براقة متحدية.. دخلنا إلى مقهى منزوٍ وجلسنا على مقعد صغير، وعندما بدأت في التخفيف عنه قال بحسم: «أنا غلطان إني رحت لسيناريست كبير وأنا في بداية طريقي»..

بعد ذلك تعاون صديقي المخرج مع سيناريست شاب من دفعته اسمه محمد

عزيز، وأخرج أول أفلامه «اشتباه»، وكان من بطولة نجلاء فتحي.. وحقق الفيلم نجاحًا متميزًا في الإخراج والكتابة السينمائية وعلى مستوى الجمهور أيضا.. ثم توالت بعده سلسلة الأفلام الكبيرة لصديقي المخرج الراحل علاء كريم.

كنت متيمًا بالسينما والكتابة لها، وحضرت محاضرات كثيرة للسيناريو بمعهد السينما كضيف، وهذا الموقف جعلني أكثر إلحاحًا في دخول هذا المجال.. سألت كثيرين عن وسائل الكتابة لها وكانوا يراوغون أو لا يأبهون كأنها سر مقدس.. إلا شريف حمدي الذي قدمه لي بعض الأصدقاء باعتباره «سيناريست» والتقيته وتعرفت عليه حيث كان يعتاد الجلوس في كافيتيريا «لاباس» بقصر النيل.. كانت سنه تقترب من الأربعينيات.. وسيمًا نظيفًا مرتبًا يرتدي «باروكة» سوداء فاحمة وهذا ما أزعجني منه في البداية، لكن طيبة قلبه وابتسامته الودود ورحابته أزالت كل الحواجز..

كان يسكن في بنسيون «ميرامار» القريب من كافيتيريا «لاباس».. والبنسيون عبارة عن دور كامل به ٩ غرف.. لشريف حمدي غرفة تواجه السلم.. باقي الغرف يشغلها فنانون وكتّاب مسرح ومخرجون كلهم في بداية الطريق.. قلما شغل إحدى هذه الغرف شخص غير مهتم بالفن كأنه بنسيون للفنانين.. هناك شاهدت وتعرفت على كثيرين من نجوم الزمن الحالي أبرزهم أحمد زكي ويونس شلبي ومحمد خيري ونبيل نور الدين.

بدأ شريف حمدي حياته موظفًا بشركة قطاع عام بالإسكندرية وكان في الوقت نفسه من هواة الغناء والتلحين وكتابة الأغاني.. وغنى فعلًا فترة لا بأس بها في محال الإسكندرية، وتزامن ذلك بخلو الساحة من العندليب الأسمر عبدالحليم حافظ وقرار سمير صبري الجريء باقتحام ساحة الغناء مستعينًا بفرقة فنية تقف خلفه وترقص أمامه كلها من الفتيات الحسناوات.. كان شريف قد بدأ في تقليد سمير صبري في الغناء بباروكة مماثلة لباروكة سمير، وعدى هذا الأمر بسلام مما أغرى شريف بعمل فرقة غنائية على غرار أستاذه كونها من ست فتيات..

نجح الأمر قليلًا في القاهرة والإسكندرية مما أغراه بالسفر بهن إلى العراق ودول الشام.. لكن البنات في نهاية الأمر لم يحتملن الكد وانشغلت كل واحدة منهن بالسعي وراء رزقها بطريقتها الخاصة حتى لو كانت في أمور مخزية.. وسببن مشاكل ضخمة لشريف في الغربة، وإحدى هذه المشاكل كادت تودي به إلى السجن موصوما بالعار، مما دفعه للعودة إلى مصر محبطًا مقررًا اعتزال الغناء نهائيًا مكتفيا بكتابة الأغنيات والسيناريوهات..

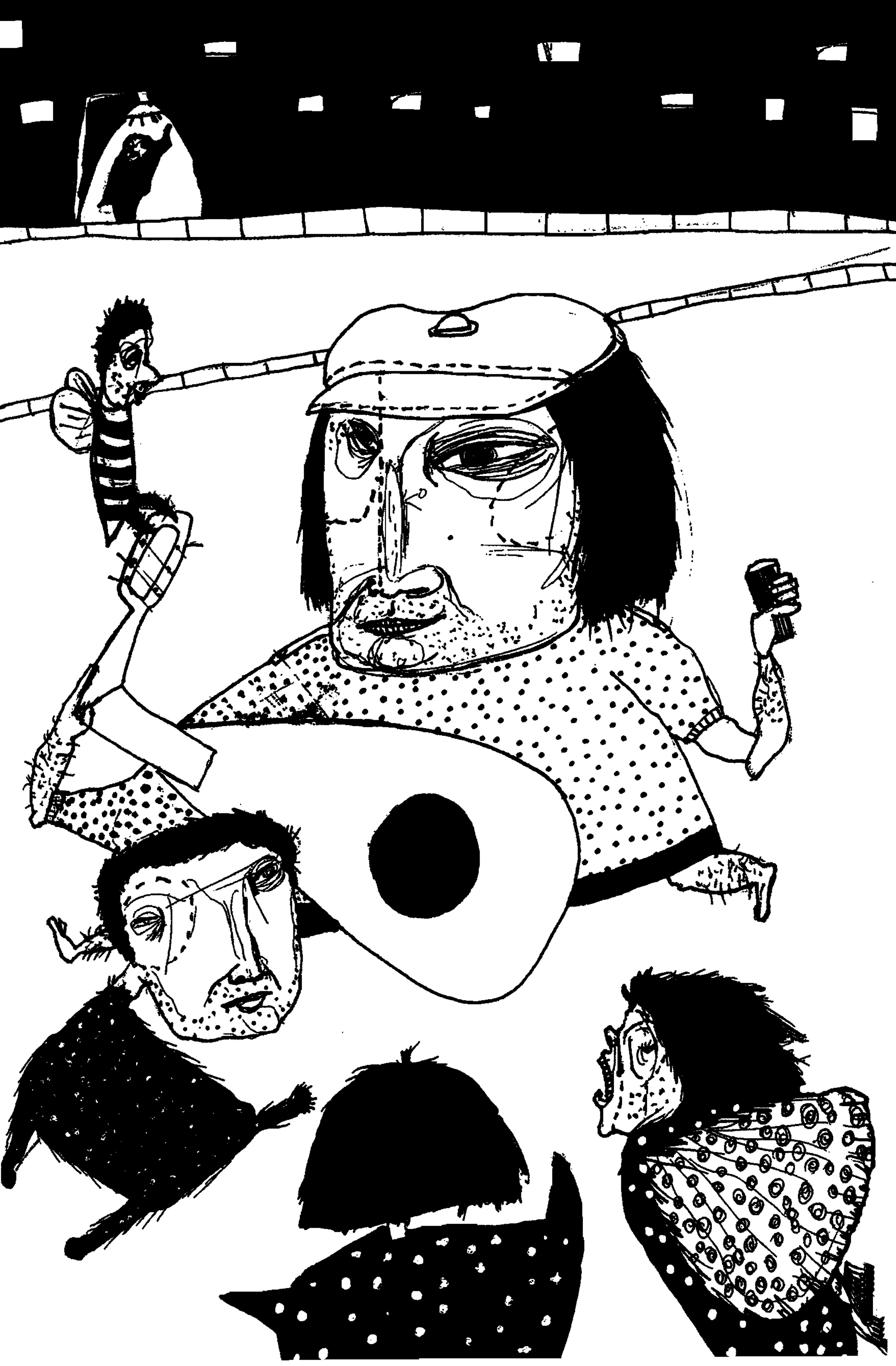
كان لشريف حمدي موهبة في ابتداع أفكار الأفلام الغنائية والاستعراضية ذات التكاليف الضخمة في زمن اتجهت فيه السينما إلى التقلص وخفض التكاليف، مما جعله يفشل في بيع سيناريوهاته.. لذا اتجه للعمل في ورشة للكتابة السينمائية (كانت الوحيدة آنذاك).. شريف كانت له طقوس عند الكتابة، فالكتابة بغرفته بالبنسيون.. لا يكتب إلا بالقلم الرصاص، يشتريه ثم يكسره نصفين، يكتب بالنصف حتى يبلى تماما فيستبدل به غيره. ومن عادته استخدام الممحاة كثيرًا.. كان يبدأ الكتابة وهو يدندن بصوت خفيض ثم يصمت تمامًا.. وكان لا يشرب ولا يدخن ولا يتعاطى المكيفات بكل أنواعها.. وحين تكون هناك سهرة بالبنسيون حاشدة بكل هذه الأنواع لا يتجنب المشاركة فيها ولكن بالغناء فقط.. وكان صوته شجيًا قريبًا من صوت عبداللطيف التلباني، وأذنه موسيقية لا تخطئ أي نغمة.. كان ينتهي من كتابة سيناريوهاته بسرعة كبيرة ويقدمها لكل الإذاعات وقنوات التليفزيون المصرية والعربية محاولًا الإفلات من أسر ورشة الكتابة.. أيضًا كان يمتلك خيالًا كبيرًا يستخدمه في الواقع لا في الكتابة.. يقول إنه سليل عائلة ثرية بالإسكندرية، وأن ابن أخته رئيس نيابة شرق، أو كبير أطباء لندن.. دائمًا يتحدث عن ابن أخته.. ودائمًا ابن أخته يشغل كل المناصب المهمة في الحياة.. وابن الأخت هذا لم يشاهده أحد مطلقًا..

من نصائح شريف حمدي لي أنني لن أصبح «سيناريست» إلا إن تدربت بورشة الكتابة حتى أتعرف على أساليب الكتابة السينمائية المحترفة.. استأذن

لي شريف من صاحب الورشة وهو سيناريست آخر أكبر من الذي ذهبنا إليه في الفندق. كانت الورشة عبارة عن صالة شقة كبيرة والأستاذ الطاووس جالس في مدخلها وأمامه مكتب خشبي صغير.. وبالقرب من الحائط جهاز «فيديو» وتليفزيون و«فيديو جن» لزوم إرسال مشاهد الفيلم إلى شاشة بعرض الحائط.. كان الفيلم الذي سيعرض إيطاليا والمطلوب أن نراه بدقة وبخاصة المشاهد التي يعيدها لنا الأستاذ بالريموت كنترول.. عقب الفيلم وجهنا الأستاذ وهو خلف مكتبه طالبا منا تمصير أحداثه.. وأشار إلي لأن أتجه نحوه وطلب مني بعد أن علم أني خريج جامعي حديث أن أستخدم في الحوار مفردات الطالب الجامعي، وأن أستخدم في وصف الصورة لزماته وحركاته.. ثم بدأ في الاستمتاع بتلمس الخساية التي تترقرق على أوراقها المياه وأكل شرائح الخيار ورشف عصير البرتقال حتى استسلم للنوم.. غافلته وخرجت ولم أعد إلى هذه الورشة مطلقًا أو أي ورش أخرى. ولما عاتبني شريف عندما قابلني بعدها بفترة، سألته عن مصير هذه الأفلام التي يكتبون مشاهدها، هل يكتب أسماءهم عليها؟. قال بدهشة: «لا طبعا.. اسم الأستاذ بس هو اللي بيتحط على السيناريو».. ثم عقب: «بس هو حيدينا الفرصة شوية بشوية»..

لم يحصل شريف على فرصته أبدًا ولم أر اسمه مطلقًا على تيتر سيناريو فيلم تليفزيوني أو سينمائي ولا سمعت اسمه في مقدمة مسلسل إذاعي.. رغم أنني كنت أراه كثيرًا بمقاهي وسط البلد يكتب أو يعدل مشاهد. وكنت أجالسه ونتحدث أحاديث ودية كثيرة.. لكن ما كدرني أخيرًا أنني كنت مارّا بالقرب من البنسيون الذي أخلي حديثًا لعمل ترميمات بالمبنى.. ورأيت «شريف» يجلس متهالكًا على كرسي لأحد الباعة الجائلين أمام البنسيون.. باروكته ما زالت سوداء لكنها متربة جدّا وذقنه لم يحلقه منذ أيام فبدا نابتًا بالشعر الأبيض وعظام وجهه بارزة وجسده نحيل جدّا وياقة قميصه متسخة.. عندما انحنيت لأسلم عليه.. كانت عيناه ذاهلتين تمامًا ولم يتذكرني.

كائنات أسترا





مكان فخم ومتسع ومن طابقين في قلب ميدان التحرير وله واجهات وأبواب على شارع محمد محمود واسمه المعلن والمكتوب «كافيتريا ومقهى أسترا»... العصر الذهبي لهذا المكان من عام١٩٧٥ حتى عام١٩٨٥، ثم تدهورت خدماته وبيع لمجموعة مستثمرين أقاموا بدلا منه محلًا كبيرًا لـ«بيتزا هت» وآخر لـ«هارديز» ومكتب سياحي لإحدى شركات الطيران... ولك أن تتخيل مساحة هذا المكان العبقري... الذي كنا نسمع عنه ونحن بالجامعة واجتذب كل من له علاقة بالفن والسياسة والأدب...

فيه بدأ مسرح القهوة على يد عبد الرحمن أبو زهرة وعبد الرحمن عرنوس وعبد العزيز مخيون... وفي ساحته كان المطرب محمد نوح يجري بروفات فرقة الأرض على الأغنيات الجديدة ثم يغنيها داخل المقهى، بعد أن يفتتح السهرة بغناء أغنية «مدد» للشاعر إبراهيم رضوان وهي التي لحنها وغناها محمد نوح عام ١٩٦٨ عقب هزيمة يونيو ١٩٦٧، وكانت هذه الأغنية تشعل الدماء في العروق حماسة وتجعل كل الموجودين بالمقهى يغنونها مع نوح حتى لاتكاد تتبين صوته الجهوري: وهي تبدأ هكذا:

«مدد مدد/ شدي حيلك يا بلد/ إن كان في أرضك مات شهيد/ فيه غيره بيتولد/ جاي من بعيد/ راكب خيول/ فجره الوليد...».

وفي أركانه كان القاص يحيى الطاهر عبد الله يتلو علينا قصصه التي يحفظها غيبًا ونطرب لها ونستزيده كما يفعلون الآن مع المطربين... وبالقرب منه كانت مجموعة السينما الجديدة تجلس وعلى رأسها الناقد سامي السلاموني وفتحي فرج وسمير فريد وعلي أبو شادي ومدكور ثابت وكمال رمزي وآخرون...

وحين يبدأ الليل في العمل يختفي المارة والعابرون من الميدان الكبير، وتأتي سيارات شرطة كبيرة تتمركز على رصيف المقهى.. فالبلد في حالة غليان وتجربة الانفتاح والصلح مع إسرائيل تربك الناس، والسادات في خطبه المتوالية المفاجئة يربك جميع الحسابات... ونحن بالداخل نتناقش ثم نتابع مسرح الهواة ونستمع إلى قصائد الشعراء التي غالبا ما يبدءون تلاوتها بقصيدة «لا تصالح» للشاعر الكبير أمل دنقل، تماما كما كان عبد الحليم حافظ يفعل عندما يغني «أحلف بسماها وبترابها» في بداية كل حفلاته بعد النكسة...

يوغل الليل في الدخول فيأتي الساسة المخضرمون من الحرس القديم أمثال الصحفي الكبير محمد نجيب وبعض أعضاء حزب الوفد القديم، وتدور بينهم مناقشات حامية على هامش ما يحدث بالمكان...

وعندما يقترب الليل من نهايته يأتي فنانو المسرح من كل خشباته القريبة من المكان... يدخل سعيد صالح وبصحبته عادل إمام ويونس شلبي وأحمد زكي وبقية شلة المشاغبين بعد انتهاء عرضهم... ثم يليهم إبراهيم نصر وسعيد الصالح وعهدي صادق وسعيد طرابيك من مسارح الدولة في العتبة وشارع الجمهورية... لا يمنع طبعا وجود فتاة ليل صادفها حظ سيئ في الاصطياد ووجدت المكان يشغى بالناس فدخلت تجرب حظها... أو قروية تركت قريتها وراء حلم الفن وانتهى بها المصير للنوم على طاولة المقهى إذا خفتت الضجة وحل السكون...

كانت معارك رهيبة تدور على هذا المقهى بين سياسيين متعارضين وأدباء متنافسين وفنانين متعالين، وقد تصل الخلافات إلى التلاحم الجسدي... لكن سرعان ما يتصالحون وينسون خلافهم مؤقتًا...

الذي كان يبهرني ويذهلني هناك... هو شخص قصير بعض الشيء ملابسه واسعة على جسده ولا يغيرها كثيرًا... عيناه خضراوان ووجهه أحمر... كان يدور في المكان كالنحلة ويتنقل بين المناضد بخفة.. وله أتباع ومحبون كثيرون، لا يكاد يستقر بمكان حتى يناديه آخرون فينتهي من كلامه بسرعة ويلبي النداء... إنه عبد الرحمن عرنوس البورسعيدى الشهم والمعيد بمعهد الفنون المسرحية والمعجون بحب المسرح والفن والحياة... كانوا يتندرون عليه بأنه ظل معيدًا لمدة ٨ سنوات دون أن ينجز رسالته الأكاديمية والمعهد يهدده بالطرد.. وكنت مأخوذًا بتفانيه في اكتشاف المواهب الجديدة وبأحلامه العريضة المتجددة لتطوير المسرح العربي...

كنا صغارًا وكان يكبرنا بعشر سنوات أو خمس عشرة سنة لكنه كان يعاملنا كأصدقاء... إذا ما دخلت المكان لأول مرة... ترك أصحابه ومريديه وجلس معك وتعرف عليك... إن كنت كاتب قصة أو شاعرا، طلب منك أن تريه بعضها في الغد، وإن كنت تحلم بالتمثيل أو الغناء ضمك فورًا إلى فرقته وتولى تدريبك ورعايتك... في الغد ستجده يبحث عنك في أرجاء المقهى... وسيمد يده بهرولة طالبا منك القصة أو القصيدة... وسيقرؤها بسرعة بحيث تعتقد أنه لم يستوعب ما بها... سيقول لك كلاما كثيرا عن موهبتك، وسيأخذك من يدك ليجلسك على المنضدة التي يجلس عليها طلبة وطالبات معهده المقتنعون والمؤمنون بموهبته... سيجعلك تسلم على فتيات جميلات ناضرات ويقدمك لهن على أنك شاعر مهم أو قاص

عبقري... وسيقدمهن إليك باعتبار أنهن فنانات قادمات بسرعة الصاروخ لاعتلاء قمة الفن... لو خجلت وامتدت يدك بعفوية لتضع قصتك في جيبك، فسيخطفها منك ويعطيها لأحد الشباب الجالسين وسيأمره بأن يعمل لها إعدادا مسرحيا تمهيدا لعرضها على المسرح... وفي الأيام التالية بمجرد أن يراك سيهتف مناديا عليك وهو يقول: تعال يا كاتب يا كبير أو يا شاعر يا جامد... وسيسألك عن الجديد... قد لا تتحول قصتك إلى مسرحية أو قصيدتك إلى موقف درامي مسرحي... لكن بالتأكيد سيكون له أثر كبيرٌ في حياتك وربما ساعدك كثيرًا على تجاوز عقبات وعراقيل البدايات...

هذا ما كان يفعله ونحن في مجال غير مجاله فما بالك بما كان يقدمه لطلبته وطالباته من مساندة ودعم...

مسرح ومقهى أسترا كان يجتذب كثيرين... ورأينا على خشبته مواهب حقيقية، ورأينا أيضا ظواهر فنية غير قابلة للتصديق... في كل خميس كان برنامج المسرح ثابتًا عبارة عن ساعة تعرض فيها مسرحية أو مسرحيتان من ذوات الفصل الواحد... ثم قراءة شعرية لشعراء جدد، وأحيانا عروض بانتوميم، ثم غناء لبعض مقلدي المغنين والمغنيات حتى الساعة الثانية عشرة.. وبعد منتصف الليل ينقلب البرنامج تماما... يتقدم إلى المسرح كل من توسم في نفسه موهبة ما...

لا أنسى عندما صعد إلى المسرح عملاق نوبي أسمر وبيده عود وجلس بعد أن قدمه عرنوس.. العملاق كان يرتدي بدلة سوداء وقميصا أبيض مفتوحا حتى نصف صدره، وياقة قميصه الأبيض رفع جزءها العلوي ووسده على ياقة البدلة، ثم أخرج منديلاً أبيض وضعه على قفاه أسفل الياقة تجنبا للعرق... ظننت أنه سيغني أغاني نوبية تراثية أو أغاني لحمزة علاء الدين، لكنه فاجأني

عندما قال إنه سيغني للمطرب فريد الأطرش... أخرج العود من جرابه، ولجلوسي في الصف الأول تنبهت إلى أن العود بلا أوتار... ظن الجميع أنه سيعزف على العود، لكنه بكل بساطة وضع بطن العود من جهة الأوتار على حجره، واستخدم ظهر العود كطبلة إيقاع تصاحب غناءه، واختار بكائية فريد الأطرش «عدت يا يوم مولدي... عدت يأيها الشقي».. وغناها بصوت أجش باك زادها كآبة وأكملها للنهاية غير مهتم بضحكات المستمعين....

دخل بعده مطرب «درجة تالته» يغني على مسارح كباريهات التوفيقية... صوته جميل لكنه أفسده بالتدخين والتعاطي... غنى هذا المطرب أغنية «أنا مرة رحت الشغل» التي كانت من تأليف الشاعر الشيمي وتلحين وغناء سيد مكاوي في الجلسات الخاصة... رواد المقهى في ذلك اليوم تفاعلوا مع هذه الأغنية واستزادوها من المطرب أكثر من مرة، لأن كلامها طريف، أذكر منه الآتي:

أنا مرة رحت الشغل يومها صحيت من بدري
من غير ما أعلم ولا أدري
ويوميها تعبت بشكل ولا نفسي راحت للأكل
ولقيتني في عز الشغل
والأسطى وانا باتشمر وماقلتش لسه يا هادي
إتزربن أوي واتأمر وانا بزعل م الخصلة دي
شرَّاني.... أنا شرَّاني جواني.. أنا براني
سيبته يهلدم ويبلضم لامؤاخذة أنا راجل فظ
لامؤاخذة قلة حظ
من يومها ما اروحش الشغل .... يا حلاوة

من يومها ما اروحش الشغل .... يـــا حـــلاوة

فاصل كبير بين التصفيق عقب انتهاء المطرب من أداء أغنيته.. ثم تقدم إلى المسرح الشاعر الغنائي إمام الصفطاوي ليلقي قصيدته الوحيدة «ليس أجمل في الوجود.... من أن تعود» بعد أن قدم نفسه بأنه مؤلف أغنية «إن رحت مرة تزور.. عش الهوا المهجور.. سلم على قلبي»...

صعد إلى المسرح بعد ذلك المطرب الشعبي أدهم ممتاز، وكان يعمل كمساريا في سكة الحديد نهارا، ومطربا بصالات عماد الدين والتوفيقية ليلا.. وكان حريصا على تقديم فقرة مجانية للمثقفين بالمقهى غالبيتها من مواويل «عبده الدمرداش»[1] ومنها هذا الموال الشهير:

يـالـلـي الـقـديـم بهدلك وجـــه الـــجـــديـــد ذلّـــك
تـشـكـي لـمـيـن بـلـوتـك دا الـصـبـر أحـسـنـلـك

ثم كان مسك الختام المطرب عبد الفتاح المنصوري المعتمد في المقهى

---

(١) عبده الدمرداش من أشهر وأقوى كاتبي ومؤدي الموال الشعبي في الثلث الأول من القرن العشرين، وكان صاحب غرزة في حي الدراسة يجلس عليها سائقو النقل الثقيل وبخاصة عربات نقل الطوب والدبش وعربات كسح المجاري... مات في أوائل الثلاثينيات من القرن الماضي وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب، رغم ذلك ألف آلاف المواويل الشعبية الجميلة منها:
«من بعد نوم العلالي يا بلح نيموك على خوص ياما جرالي
والله لأجيبك برضاك يابلح وأنيمك في قصر عالي».
وهذا الموال أيضا:
«لما حكم ربنا بالبعد وبعتم
ليه ماكتبتوش جوابات وبعتم
هدومنا القدام دابم وحتى الجداد عتم».
بعد وفاته أصبح أنور العسكري (الذي كان يحفظ كل تراثه) وكان جنديا في الشرطة أهم مطرب شعبي في الأربعينيات وحتى وفاته في أوائل الثمانينيات.

الذي كانت أغنيته تجعل كل من يجلس على المقهى يترك كرسيه ويقف ويصفق، بمن فيهم ضباط الأمن الذين كانوا يشاركوننا السهرات وينفعلون بمن نسمعه... يطلب الجميع الأغنية... فيحييهم المطرب بانحناءة طويلة... ويدوزن عوده ثم ينجلي منطلقًا...

كـل الحمام اتنين اتنين ... وأنا اللي مش لاقي حمامتي
تاهت يا ناس وبقالها يومين ... وفاتتني في العش لوحدي
آهين وآه..آه ياحمامتي ... ماحدش يا ناس لقي حمامتي

عند البحث عن حمامته كان ينظر إلى حجره، وفجأة ينهض ويبحث أسفل الكرسي، ثم يتلوى بنصفه الأسفل بحثا عن الحمامة فيزيد الحاضرين جنونا...

هذا وصف لليلة واحدة من ليالي وأمسيات كافتريا أسترا التي لم تعد موجودة وحلت محلها محال فاخرة دون روح.

جر الشكل

جر الشكل





سيجذب نظرك بشدة إذا كنت متابعا جيدا للأفلام العربية القديمة، ببدلته الرمادية السادة واللبني المقلمة بأقلام عريضة سوداء.. لا أعتقد أني رأيته بغيرهما.. سيبدو لك خارجا لتوه من أحد أفلام نجيب الريحاني أو أنور وجدي... موظف الأرشيف الذي تضعه حكاية الفيلم في ورطة كبرى فيهيم على وجهه يسب الناس ويلعن ويبصق حتى على الذباب الذي يحوم حول وجهه... أخبرونا أنه كاتب مسرح وسمعنا له عدة مسرحيات مترجمة في البرنامج الثاني. ورأيناه كثيرا بصحبة الرواد العظام.. أمل دنقل ونجيب سرور، وأحيانا يجالس يوسف إدريس ونجيب محفوظ في كافيتريا «ريش»...

كان يعاملنا نحن الأدباء الجدد بقرف واستعلاء وينظر إلينا كأننا من غرائب الطبيعة... وإذا ما تطفلنا على ضيافة أحد هؤلاء الأساتذة.. كان هو الوحيد الذي يتبرم منا ويخاطبنا بغلظة ويجبرنا على الانصراف سريعا.. أصبحنا لا نحمل له أي ود ولم نهتم بالبحث عن أعماله المسرحية المطبوعة إن وجدت.. وكلما رأيناه برفقة أساتذتنا كرهناه أكثر فقد كان بمثابة حقل الألغام الذي يمنعنا من لقاء الأحبة..

اكتشفنا بعد ذلك أنه يعامل الجميع بهذا التعالي نفسه... حتى أصدقاءه

الأدباء الكبار المتحققين. كان مهووسًا بالنظافة.. يستدعي الجرسون قبلما يجلس بإشارة قرف، ثم يشير له إلى الكرسي الخشب وإلى المنضدة لكي يطوقهما الجرسون.. وعلى الرغم من أنه كثيرا ما يصطحب شخصا معه لكي يلاعبه الطاولة في هدوء.. فإنه كثيرًا ما كان يثير جلبة تزعج رواد المقهى جميعا إذا ما كدره شيء.. من هوسه أيضا انزعاجه الشديد من الصوت العالي.. فإذا ما نسي الجرسون ونادى على عامل النصبة بقائمة المطلوب بصوت عال بجواره... هب سوريال منتفضًا يسبه ويسب المقهى والرواد بأفظع الألفاظ.. وإذا ما توقفت سيارة لأمر ما بجوار المقهى وعطلت السير فاستصرختها السيارات الأخرى بنوافير صاخبة، أنال هذا السائق ما لم يخطر على باله من شتائم ولعنات طول عمره.

والغريب أن الجميع كانوا يحتملونه ويبتسمون ويتضاحكون أمام صراخه وسبابه.. لشعر فوديه الأبيض الذي يزيده وقارًا، ولسنه الكبيرة، ولرعدته التي تعم كل جسده تعبيرا عن غضبه العارم...

حينما جمعتنا به الظروف كثيرا في مقهى ريش ومقهى البستان ومقهى الحرية، وأصبحنا وجوهًا مألوفة له... ونتيجة لحدته الشديدة التي تجعل من الصعب أن يعيش له أصدقاء وتجعله على الأغلب وحيدًا... بدا يدعنا نتقرب منه ويتعرف علينا ويستثقل دم بعضنا ويقرب إليه البعض الآخر.

كان متميزا جدا في اللغة العربية، يتفلسف ويتقعر بها علينا ليدلل على جهلنا وقلة ربايتنا.. لو استمع إلى أحدنا يقرأ قصته وبها وصف للباب عندما يفتح وهو «يزيق»، نهره بغضب وهو يقول بنفاد صبر «اسمه «جَلَنْبَلَق» يا غبي!».. وأمام دهشتنا الكبرى يضطر أن يشرح: جَلَنْبَلَق يا حثالة لو كنتوا بتقرءوا مختار الصحاح، أو سمعتوا عنه على الأقل معناها صوت الباب الحديدي المفتوح

إذا انغلق بصوت»... هل من الممكن تصور أن يبدأ قاص حياته الأدبية بقصة فيها جَلَنْبَلَق؟!

وإذا ما تفلسف أحدنا أمامه وقال إن الحياة الثقافية الآن تمر بمرحلة «زخم».. يقاطعه بابتسامة ساخرة كبيرة وهو يقول: «عندك حق فعلا.. فالزخم في اللغة هو الطين اللزج في قاع البرك الراكدة.. يعني سخام البرك بالفلاحي يا غجر».. ويظل ينادينا لأيام بسخام البرك...

كان سوريال مسئولا مهما عن تحرير مجلة «صوت الهند» التي تصدر شهريا بدعم من سفارة الهند والمركز الهندي (مولانا أبو الكلام آزاد) وكان أصدقاؤه الكبار يتندرون بأن سوريال يكتبها كلها من الجلدة للجلدة، وأن القصص التي يدعي أنه ترجمها من الهندية هو مؤلفها الحقيقي.. وأن باب بريد القراء يكتبه أيضا بالكامل بعد أن يغير حروف المرسل كل مرة.. فمرة س ع م غمرة القاهرة ـ ومرة ع س م شبرا مصر، وهكذا دواليك... أيضا ادعوا عليه أنه في أثناء هوجة القبض على الشيوعيين في أوائل الستينيات، اجتمع أصدقاؤه الذين كانوا على صلة بالعمل السياسي وتخوفوا من القبض عليهم، وقرروا أن يكتب كل منهم اسما لصديق كي يراعي أسرته لو حدث وقبض عليه.. وفعلا كتب كل منهم اسم الصديق الذي يأتمنه على زوجته وبيته.. وعندما فضوا الأوراق اكتشفوا جميعا أنهم كتبوا اسم سوريال.. لم يفرح سوريال بهذه الثقة بل عَدَّها إهانة، وشتمهم قائلا: «يا أولاد الكلب دانا مقطع السمكة وديلها.. وأنتم فاكرني مش راجل ومش خايفين على نسوانكم مني؟!.. طب عليَّ الطلاق حتخرجوا من السجن وتلاقوني مخلف منهم كلهم!!».. وانصرف غاضبا.

هوسه بالنظافة كان مثار تندر الجميع، وهي دائما مفتتح الحديث عن سوريال في غيبته سواء كان المتكلمون صغار أو كبار الكتاب.. جلس مرة

ليتناول غداءه في كافتيريا شهيرة.. ولحظه المهبب، سحب الجرسون علبة السلاطة مباشرة من الثلاجة إلى مائدة سوريال الذي فوجئ وهو يبدأ بالأكل بأن هناك صرصارا على شريحة طماطم.. أرغى سوريال وأزبد وهدد بطلب الشرطة وأمر صاحب الكافيتريا برفت كل عمال المطبخ! وكان نهارا مشهودًا.. كان الشاعر المسرحي الجميل نجيب سرور جالسا على مبعدة من منضدة سوريال.. همس نجيب يسأل من يجالسه: «هو سوريال عامل دوشة ليه»؟ رد عليه الجالس بهمس: «أصل سوريال لقي صرصار في السلطة!».. قال نجيب سرور بابتسامة: «يبقى سوريال زعلان عشان ما غسلوش الصرصار قبل ما يحطوه في السلطة»!!

لو أحبك سوريال وصاحبك واصطفاك فهي كارثة كبيرة لك.. فهو متخصص في جر الشكل.. أشبه بالضبط برجل نحيف، هيكله العظمي يبرز من بين نثرات لحمه.. كان كثيرا ما يقف مواجهًا مقهى بالسيدة زينب يجلس عليه عتاة جزاري المدبح.. كان ينظر إليهم باستخفاف ثم يصرخ فيهم: «هو مافيش راجل على القهوة دي؟!».. في البداية يتجاهله الجميع مما يدفعه إلى الصراخ بصوت أعلى، ويزيد في سيل الإهانات التي يبصقها فمه على الرجال الجالسين في أمان الله... ولا يهدأ ولا يستكين إلا حين ينهض أحد صبيان المعلمين ويسكعه قلمين على وجهه.. ساعتها كان ينسحب هذا المأفون ووجهه يطفح بالبشر والسرور كأنه قضى وطره..

سوريال من هذه الشاكلة.. إذا ما جالسك للعب عشرة طاولة.. وحضر أحد أصدقائك الذين لا يعرفهم سوريال وسلم عليك، ثم مد يده ليسلم على سوريال، فسيتظاهر هذا بأنه يلعب ولا يراه.. وإذا ما نبه أحد الجالسين سوريال لليد الممدودة بالسلام.. فسوف ينظر سوريال إليه بتعال من فوق لتحت.. ثم

بقرف لليد الممدودة.. ثم يمد أطراف أنامله ليسلم على صديقك باحتقار.. وإذا ما سلم عليه صديقك بحميمية، فسيصرخ سوريال ويسب ويلعن مدعيا أن أصابعه قد كسرت من عنف السلام.. ويصرخ في صديقك: «هو ده سلام يا متخلف؟!»...

وليحافظ سوريال على أصابعه الرقيقة بعد ذلك من أن تحطم أو تصيبها ميكروبات فتاكة من أثر المصافحة، سيذهب إلى طبيب من معارفه ليضع له شريطا من الشاش حول رقبته متدليا حتى نصف صدره يعلق بها ذراعه اليمنى.. وسيتدرب على اللعب باليد اليسرى حتى لا يسلم على الأوباش... وإذا ما كان متأخرا في الليل ورأفت به واصطحبته معك في تاكسي.. فإنه سيجلس في الكرسي الخلفى.. وبمجرد سير السيارة بضع خطوات.. ستغرد السماعة الخلفية في أذن سوريال.. فيحتد ويشخط في السائق: «شيل الزفت ده اللي بتسمعهولنا غصب عنا!»، (مهما كانت قيمة هذا الشيء بالنسبة للسائق) سيحتمي خلف شيبته وضعفه وستجد نفسك في مواجهة مع سائق سيارة تاكسي غاضب بعد منتصف الليل... ولن تستطيع تهدئة السائق خصوصا وسوريال مستفز جدا... وقد تتعارك أو يعلمك السائق بمطواة في وجهك... أو على أقل تقدير سيقول لك آمرًا «شيل الزبالة دي اللي ورا وانزل حالا»!

لا أحد يعرف أين يعيش سوريال أو يقيم، وهو حريص على ذلك جدا، إلا من صديق وحيد زميله في الإذاعة وله إسهامات أدبية.. لم يكن هذا الصديق في مثل عمر سوريال بل أصغر منه على الأقل بعشرين سنة.. وكان سوريال مدرسا له في الثانوية العامة... يدرس له الرياضيات.

كان الصديق قد قابله في الإذاعة بعد سنوات من تخرجه وقام بإيفاء المعلم حقه في التبجيل. وهذا الصديق كان أكثرنا تعرضا لمشاكل سوريال

التي يفتعلها مع الناس الذين يختارهم بعناية... فسوريال لا يشاكل إلا ضخام الجثة وعتاة المجرمين... صديقنا هذا دائم الشكوى من سوريال، لكنه لم يجرؤ على مواجهته لطيبته الشديدة، حتى اشتبك سوريال يوما في مشادة مع سائق تاكسي مجنون كاد أن يقتلهما...

قال لي هذا الصديق مرة إنه توقف عن دعوة سوريال للغداء أو للعشاء عنده، لأن سوريال بمجرد دخوله البيت.. كان ينادي على زوجة صديقنا.. ويأمرها أن ترتدي قفاز المطبخ وأن تغسل الأطباق والأواني جيدا أولا بالديتول، ثم بالماء المغلي، وأن تغسل خضراوات السلطة بالماء وبيرمنجنات الصوديوم وإلا فلن يأكل منها... وبعد أن تنصاع الزوجة.. كان يغافلها ليدخل المطبخ فجأة ليتأكد من أنها نفذت تعليماته!

وعندما حاولت التخفيف عن الصديق وقلت له إن هوس النظافة مرض معروف ويجب أن يعذره.. قال لي الصديق باسما: «ياريت يعمله في بيته!».. بدهشة سألت الصديق «هو إنت تعرف بيته؟!»... أخبرني بأنه الوحيد الذي آمنه سوريال واصطحبه إلى بيته.. ادعى سوريال أن كتفه مخلوع ويريد كتابة بعض الأوراق المهمة لتسليمها إلى الإذاعة.. وهذه هي المرة الوحيدة التي اصطحب فيها الصديق إلى شقته..

ليس مهما ما وصفه الصديق من قذارة الشقة فسوريال أعزب، ولا يمكث في الشقة كثيرا، وقد لا يأتمن أحدا على نظافة الشقة.. قال لي الصديق إنه بينما يتملى من سوريال رآه يحضر كوبا ويخرج طقم أسنانه ويضعه في الكوب لتنظيفه غير عابئ بأن الصديق على وشك التقيؤ. وكان يختلس النظر إلى الصديق ويبدو مبتسما. الطامة الكبرى أن سوريال صمم على أن يضيفه بكوب شاي وأتى بكوب كالح ومضبب من أثر القذارة المتراكمة.. وصب

فيه الشاي من غلاية صدئة.. كل هذا غير مزعج.. المزعج أنه لم يجد ملعقة لوضع السكر في الكوب ولا لتقليبه.. فصب السكر من الكيس مباشرة وقلب السكر بالقلم الرصاص الذي كان يداعب به فمه وأنفه ويدخله داخل أذنه لتنظيفها في أثناء ما كان يملي الصديق!.. طبعا صديقنا لم يشرب الشاي وانتظر حتى دخل سوريال الحمام وألقى به من الشرفة.. كما تفعل البنت الشريفة في الأفلام القديمة عندما يصمم رفيقها على أن يسكرها دون رغبة منها..

هناك نادرة مسجلة باسم سوريال بمنطقة وسط البلد ويتناقلها الجميع حتى الآن:

ذات يوم من أيام شهر رمضان في الثمانينيات، كان سوريال قد تدبر مكانا يستطيع أن يشرب فيه بضع زجاجات من البيرة متواريًا عن الأنظار، وهناك قابل صديقا فجلسا يتسامران وخرجا من المكان قبيل مدفع الإفطار.. سارا مترنحين في الطريق حتى قابلتهما مائدة رحمن من الموائد التي يقيمها فاعلو الخير في الشهر الكريم.. قادهما الجوع إلى المائدة وجلسا متجاورين.. كانت على المائدة أطباق الطرشي والعيش وكل فرد أمامه ثلاث أصابع موز.. والقائمون على المائدة يمرون عليهم بأطباق الأرز الذي يضعون فوقه قطعة لحم وأطباق خضار.. كانت هناك ملاعق ملقاة على المائدة، جذب سوريال ملعقة وصب عليها بعض المياه من الدورق كحرصه الدائم على النظافة.. طبعا هذا الفعل أطلق الهمهمات بجواره، لكن سوريال تجاهلها في البداية.. وتحسس بالملعقة قطعة اللحم فوجدها صلبة، فنادى أحد القائمين على المائدة، وطلب منه سكينا وشوكة لزوم تقطيع اللحم وتناولها. اقترب منه الرجل مندهشا من هذا الطلب الغريب.. لم ينتبه سوريال (أو انتبه ولم يهتم)

لرائحة فمه التي تبخ كحولاً وحروفه المتآكلة من جراء السكر.. حين قال له الرجل بغلظة: «كل وأنت ساكت، هو أنت فاكر نفسك في أوتيل؟!».. صرخ فيه سوريال فطفحت رائحة الكحول أكثر: «إنت إزاي تتجرأ وتكلمني كده؟!».. أمسك الرجل بقفاه وجذبه بعنف: «إنت سكران!».. شده صديق سوريال من يده وقال له بسرعة: «يالا نمشي يا سوريال»... جن الرجل تماما وطردهما شر طردة وهو يقول بصوت عال: «وكمان سوريال وكمان سوريال»...

في أحد مهرجانات القاهرة السينمائي الدولي.. استضافت إدارة المهرجان الممثل الهندي الشهير «أميتاب باتشان» وكلفت سفارة الهند سوريال بعمل حوار لمجلة صوت الهند مع الممثل المشهور.. وسهلت له كل السبل للقاء الممثل والانفراد به.. لكن سوريال هل يترك هذا الأمر يمر بهذه السهولة؟!.. لا طبعا.. بحث في تاريخ الممثل فوجد مفاجأة مذهلة غابت عن كل وكالات الأنباء.. أن والد الممثل شاعر هندي كبير.. حفظ سوريال بعض قصائد الرجل وترجم البعض الآخر.. وأهمل كل ما يتعلق بالفنان...

كان أميتاب باتشان ينتظره في بهو الفندق ويحيطه «البودجردات» لكي يمنعوا الفتيات المتيمات به من الوصول إليه... اجتاز سوريال باب الفندق واستقبله أميتاب بترحاب مبالغ به وسط دهشة الفتيات والعاملين والعاملات المغرمين بالممثل وإدارة الفندق كلها من هذا الاستقبال الحافل.. صعد سوريال مع أميتاب إلى الغرفة لكي يجري الحوار.

كانت كل أسئلة سوريال الموجهة لأميتاب خاصة بأبيه الشاعر، مما أثار استياء أميتاب جدّا، وأنهى المقابلة بسرعة، ثم اتصل يوبخ مسئولي المجلة.. مما دفعهم لإرسال صحفي آخر لكي يصلح ما أفسده سوريال.

كان سوريال في اليوم التالي مباشرة يحكي لي الحكاية كلها وهو يسب

ويلعن في أميتاب الممثل الرقيع الذي لا يدرك أهمية والده الشاعر.. حاولت أن أخفف عنه، وقلت لسوريال: «أصله عبيط!»... خراج العلم باللغة العربية نبهه فصرخ في وجهى: «عبط الشيء أي كشفه وعراه.. يعني كلمة عبيط مش ذم، دي كلمة كويسة بتتقال على الشخص الصريح اللي بيقول للأعور إنت أعور في عينه!»..

اضطررت إلى الاعتراف بجهلي باللغة العربية حتى يهدأ قليلا.. لكنه استمر في سب أميتاب باتشان، الذي تسبب في توجيه اللوم إليه بعد عمل عشرين سنة في المجلة، لم يقدر أحد على لفت نظر سوريال فيها... انسحبت من لساني فجأة وقلت له: «بس يمكن يا عم سوريال إن الشاعر ده مش أبوه ويطلع في نهاية الفيلم أمه زي كل الأفلام الهندي ما بتعمل؟!....

سلمت يومها من بطش سوريال بأعجوبة شديدة!!

اليعسوب





ذكر النحل الذي يموت فورًا بعد أن يضاجع رفيقته هو اليعسوب، وهو حال صديقنا الجميل سعد الدين حسن الذي حسب كلامه لم يضاجع فتاة أو سيدة قط حلالًا أو حرامًا؛ لذا فهو لم يمت بعد.. لقد بدأ نفس بدايتنا جميعًا في سن المراهقة بحب ابنة الجيران... التي كانت أجمل بنت في الفصل... وكان ينتظرها على ناصية الشارع حتى يوصلها إلى المدرسة... جاشت عواطفه فكتب لها خطابًا بالمفردات اللغوية القليلة التي تعلمها، بأنه يحبها ومفتون بها.. ثم وضع صورة شخصية له داخل الخطاب... لم أعرف مبرر هذه الصورة إلى الآن؛ فطبيعي أن الفتاة تعرف شكله وهو ليس وسيما لدرجة احتفاظ الفتاة بصورته... عندما انتحى بها طريقًا خاليًا ومد يده إلى جيب مريلته فوجئ بعدم وجود الخطاب... وكانت هذه رسالة قدرية بأنه سيظل تعيسًا مع المرأة حتى النهاية..

عندما كبر قليلا اكتشف أن كل العلاقات «تبوظ» منه... خطب ابنة خاله لكنه فوجئ بها وإصبعها خال من دبلته... وبعد أن فسخ الخطوبة زوجوها لواحد لسه راجع من العراق... كل هذا بحجة أنه استأجر لهما شقة بطنطا حيث ولدا وترعرعا بينما كان حلمها أن يسكنها في القاهرة حيث يعمل كحلم بنات الأرياف... لكنها إلى الآن تحتفظ بزجاجة عطر فارغة على الكومودينو الذي بجوار سريرها كان هدية سعد إليها... تحتفظ بها إلى الآن على الرغم من

أنها أنجبت ثلاث بنات وولدا وأن البنت الكبرى على وشك أن تلد، وستصبح هي بعد أيام تحمل لقب جدة.

الثانية كانت بمجرد زيارته منزلهم تختبئ منه تحت دعوى الأخلاق.. والثالثة فيها نوع من الشطط والجنون مثل سعد بالضبط على حد قوله... لكن شططها وجنونها لم يركب على شططه وجنونه...

سعد كاتب قصة جميل موهوب، وفي رأيي هو أهم كثيرًا من كتاب كثر نالوا حظوتهم بعلاقاتهم وليس بمواهبهم المتواضعة... والغريب أنه متصالح مع نفسه جدّا ولا يشعر بأن هناك غبنًا لاحقه، وكثيرا ما يلتمس لهم العذر في إهمالهم لما يكتبه... له مجموعة قصصية عنوانها «احترس القاهرة» أصدرها في منتصف السبعينيات من القرن الماضي... لفتت الأنظار إلى اسمه... لكنه اهتم بالحياة أكثر من اهتمامه بالكتابة... هو مقل جدّا وكسول، لكن أعماله المتميزة كثيرة منها رواية «عطر هارب» والمجموعة القصصية «أول الجنة.. أول الجحيم»..

تجدهم في وسط البلد يتكلمون قليلًا عن إنتاجه الأدبي لكنهم لا يملون رواية الأساطير عن سعد... وهذه الأساطير تسعده جدا وتجعله مبتسما راضيًا، يحبه الجميع بلا استثناء... قلما تجد أحدا له موقف ضده... فهو في رقة النسيم، شخص نبيل وحقيقي... عندما سألته عن سبب عزوف النساء عنه... أجابني مبتسمًا: «العيب أكيد منهن، لم توجد واحدة منهن استطاعت التقاط روحي»... وفي مرة أخرى قال لي: «إن النساء بلغت بهن البلادة بعدم الإحساس بالرقيق النبيل» (ثم أشار إلى نفسه)...

في الثمانينيات عندما كان سعد الدين حسن يختفي في بلدته بعض الوقت، كنا كثيرا ما نجد أوراقًا معلقة على الجدران، أو على صاج المحلات

المغلقة تنعَى سعدًا أو تدعي أنه انتحر... وعندما كان يعود إلى القاهرة ويعرف بالأمر، كان يضحك بسعادة ويقول إنها دليل حب وافتقاد... فوسط البلد بغيره يباب وخراب..

من الأساطير التي أطلقت عليه عند وفاة أخته أن المنادي بالقرية ظل يجوب قريته ويعلن عن وفاة أخت سعد، وهو يقول إن الدفنة ستكون بعد المسلسل العربي..

وأسطورة ثانية تقول إن مثقفة متحررة عندما سمعت شكواه الدائمة من عدم ملامسة النساء قررت أن تضحي وتمحو عقدته... فاستضافته في بيتها... وأطعمته وأشربته كحوليات وغيرها... ولبست له ما يثير... وأشارت إليه بالدخول إلى غرفة النوم، ولكنه اعتذر عن الدخول ورجاها أن تدعه ينام في الصالة.. فتركته وأغلقت عليها الغرفة، لكن بعد نصف ساعة خبط سعد على باب غرفتها..فابتسمت.. ونزعت كل ملابسها الباقية ودعته إلى الدخول... *فوجئ بها سعد عارية تمامًا لكنه لم يتأثر.. قالت له السيدة بابتسامة: «أيوه* يا سعد تعالى استريح» (وهي تشير إلى الخدادية الأخرى التي بجوارها على السرير). قال سعد مبتسمًا: «شكرا.. لو سمحتي مالاقيش عندك ديوان المتنبي؟!»...

عندما سألته عن صحة الواقعة ابتسم طويلا وقال: «أساطير..! وبعدين أنا لو كنت في الموقف ده زي ما بيقولوا كنت حاطلب ديوان عمر بن أبي ربيعة!»..

الحكاية الثالثة ليست أسطورة لأنه حكاها لي بنفسه.. عندما بلغ الثلاثين من العمر... قرر أصدقاؤه إحضار إحدى الداعرات بأجر للتسرية عن سعد... وفعلا أحضروها.. تركها سعد مع صاحب الشقة، ونزل ليحضر كبابا وكفتة

لزوم القعدة.. عاد سعد ليجد صاحب الشقة يمارس الجنس مع الفتاة... فرفض الممارسة مع الفتاة لأن فكرة الجنس بأجر بما فيها من أداء ميكانيكي يكسر صورة المرأة الرومانسية في دماغه... والأسطورة التي تمت إضافتها على هذه الحكاية.. أن سعدا بعد أن رأى هذا الوضع ألقى بالكباب والكفتة من الشباك وجلس يتدفأ على نار وابور الجاز.

سعد خريج المعهد العالي الصناعي بشبين الكوم (قسم نسيج). بعد التخرج لم يجد وظيفة، حتى وجد إعلانا للسكك الحديدية تطلب فيه أمين مخزن بالإعدادية.. تقدم سعد إلى الوظيفة ونجح وعين في سكة الحديد...

رحلته في مشوار الوظيفة بسكة الحديد تستحق أن تروى... فقد استغلبوه واستطيبوه فمرمطوه طولا وعرضا يعد الفلنكات كما يقولون في الأمثال الشعبية... يركب في آخر عربة بالقطار المسماة بالسبنسة.. والقطار نفسه «حدوته» فهو من مخلفات الحرب العالمية الأولى، يركبه سعد من محطة القباري بالإسكندرية إلى مرسى مطروح والسلوم يرافق فناطيس المياه الضخمة وبيده فواتير البضاعة التي هي المياه... يسلمها في المحطات المتتالية للأهالي العطشى الثائرين نفسًا وزرعًا وحيوانًا في انتظار نقطة ماء...

يوزع الحصص بالقدر المكتوب دون زيادة أو نقصان ولا يريد جزاءً ولا شكورًا.. وكم تحدث من مهازل بسبب نقائه ونبله ورفضه للهبات والرشا... فمرة رفض أن يفرغ الفنطاس كله لأهالي منطقة ما... فما كان منهم إلا أن جروه من ثيابه وكتفوه في جذع نخلة حتى اكتفوا من المياه، ثم تركوه... وقال له المسئول عنه لاحقا: «هو أنت قد البدو يا سعد؟!.. كنت سيبهم لما تملأ عينهم الميه!»...

أسوأ رحلاته كانت وهو يقوم بقطار «مخصوص غنم»... حين كان يستقبل صاحب الماشية وهو أعرابي خشن ينزل من سيارته المرسيدس آخر طراز حافيا يراقب الغنم وهي تعد، ويصعد بها إلى عربات القطار وينفح السائق والعطشجي مبلغا محترمًا... ويمد يده ليناوله نصيبه وعندما يرفض سعد بكبرياء... يقول له الرجل بدهشة: «إنت ليش ما بتاخد التفتوفة؟!»...

قراءات سعد واهتماماته بالكتابة جعلت هناك حاجزا ضخما بينه وبين زملائه... يعتقدون أنه يتعالى عليهم، فيستفزونه بالسخرية من هيئته ورقة حاله... هو وسط النعاج آمن وأكثر اتساقا مع نفسه... ينام في ركن العربة.. وتستكين إليه النعاج فتبدأ باللعب من حوله وأحيانا تتساقط الصغار على حجره... اعتاد رائحة صوفهم المتلبد وإخراجهم واجترارهم، واعتاد أيضا صخبهم ولهوهم.. وكثيرا ما كان يحسد نفسه.. «مائتا نعجة من حولك يا سعد.. ولم تخطف إحداهن قلبك..»؟! وإذا ما سقطت إحداهن في أثناء الطريق أو سرقت، كان قلبه يظل مفطورًا ورئيسه في العمل يظل مندهشًا وهو يؤكد عليه: «يابني مش مهم إنت ماتجاوزتش نسبة العجز يعني مافيش حاجة حتتخصم عليك... نفسي اعرف إيه اللي مزعلك كده؟»...

هذا المفتش لم يعرف ولن يعرف أبدًا أسباب حزن سعد....

وفي المحطة النهائية كان السائق ومساعدوه يبيتون في استراحة السائقين، سعد فقط كان يرفض البيات معهم... فهو من الكادر الإداري الذي مكان مبيته مختلف.. إنه داخل مستشفى قديم مهدم كان يستخدم في الحرب العالمية الثانية مقرًّا لعلاج جرحى جنود الحلفاء في معاركهم مع ثعلب الصحراء روميل... الكل يشيع أن المكان مسكون وجثث الموتى تسير في أروقته بعد المغرب... ويظل السائق ومساعدوه يتحايلون على سعد للمبيت معهم...

لكنه لن يخرق اللوائح أبدًا... يجلس بالقرب منهم وهم يتسامرون، وعقب هبوط المغرب... يحمل حوائجه ويتجه ناحية باب المستشفى... ويظلون ينادون عليه.. لكنه لا يستجيب... يدخل إلى الطرقة الكبيرة التي كانوا يكومون عليها الجثث كما يروي بدو هذه المنطقة، ينظف مكان نومته ويضع المصحف بجوار وسادته... ويدير مؤشر مذياعه الصغير على إذاعة البرنامج الموسيقي وينام طويلًا بلا قلق ولا كوابيس...

تجرأ سعد الدين حسن وطالب هيئة سكة الحديد بتسوية حالته الوظيفية فنقلوه إلى أسوان، لحظتها قدم استقالته إلى الهيئة وتحرر منها أخيرًا.

لسعد قصة بديعة عن مشواره بسكة الحديد عنوانها «الانصهار في اللحظات المتعاقبة» سأتلو عليكم جزءًا منها:

«في كهف نصف مظلم أقعد القرفصاء وأرقب، وثمة كائنات غريبة تقرص جسدي كله.. دسست يدي في صدري. هاه. أمسكت ببعضها... هأنتذا قد صحوت ولن تستطيع النعاس... اعتدلت في جلستي... أشعلت عود ثقاب وتأملت الكائنات الغريبة بين أصابعي.هاه. براغيث!! كنت اتبرغثت إذا! بغتة اخترق أذني صوت العطشجي: «أنت تعرف أن السبنسة مليئة بالقش، والقش مليء بالبراغيث. قم يا أفندي.. أنت نائم في سابع نومه والقطار عرباته مفصولة!... لولا ملاحظ البلوك لذهبنا جميعا إلى السجن! الحق وضع كبسولات التحذير على القضبان بسرعة قبل أن تحدث كارثة، الخط مفرد وليس مزدوجًا وأنت تعلم أن قطار الركاب وراءنا من أسوان بنصف ساعة!»

كان المطر يزخ زخًّا.. غادرت السبنسة وجريت في المطر كيلومترًا إلى الوراء حسب التعليمات.. كبسولات التحذير المشحونة بالبارود في يدي وقلبي في أخمص قدمي.. أسرعت ووضعت الكبسولات على القضبان حتى

إذا ما وصل قطار الركاب خلفنا وفرقع الكبسولات توقف على الفور حتى لا يستمر ويصطدم بقطارنا»...

انتهى الاقتباس الذي يعطينا فكرة بسيطة عن حجم معاناة سعد الدين حسن في أثناء عمله بسكة الحديد.

نعود إلى حكاية سعد مع المرأة وحلمه البسيط بواحدة تلتقط روحه ويحبها وتحبه... هو مفتون برواية العطر لـ«باتريك زوسكيند» ويعتقد أن مشكلته هي هروب العطر عند الوصول إليه... ليس قاتلا كبطل الرواية الذي يقتل النساء ويحتفظ بروائحهن مكونا عطره الخاص... سعد نبيل ومشكلته هي هروب النساء منه قبل أن يستلب عطرهن... وفي مصارحة شجية معي همس لي بأن مشكلته الحقيقية أنه يتوهم أن كل واحدة تبتسم له أنها تحبه، ويبدأ في التصرف بناء على هذا الإحساس... وعندما ينتبه تكون الفتاة قد اختفت.

أخذنا الشجن والتحليل بعيدا عن روح سعد المرحة في موقف آخر طريف... كان شاعر صديق من شلتنا يعرف آنسة بلغت سن الأربعين ولم تتزوج بعد أن انشغلت بعملها وأبحاثها ففاتها القطار... وكانت هذه الآنسة صديقة لزوجة صديقنا الشاعر... أحس الشاعر بحاجة الآنسة الملحة إلى الزواج، ففكر في سعد وصارحها بالأمر... فرحبت جدّا وقالت إنها مقتدرة ولديها شقة مؤثثة وهي لا تريد من الزواج غير لقب «متزوجة».. المهم ألّا يهينها الزوج... رد عليها الصديق وصورة سعد الدين حسن في ذهنه: «لا من الجهة دي اطمني المهم إنتي ماتهينيهوش...». ذهب الشاعر إلى سعد ورشح له الآنسة زوجة وظل يعدد مميزاتها.. لكن سعدا قاطعه: «قلت لها إني نباتي»... لم يفهم الشاعر في أول الأمر وقال لسعد: «يا جدع

أنت بتستهبل؟! دانا لسه شايفك على عربية الكبده من نص ساعة»... أخذ سعد سمات المفكر وقال يفهمه: «يعني مش حيبقالي علاقة جسدية بيها خالص...». اندهش الشاعر وتركه وذهب، لكن الغريب أنه عندما أخبر الآنسة بالأمر.. لم تبد اعتراضًا ووافقت، فاللقب بالنسبة لها أهم من الممارسة فهي محرومة منها منذ مولدها وهذا قدرها....

في الموعد المحدد لسعد بأن يرى عروسه في الأتيلييه... لم يذهب في الموعد كعادته... ولف عليه الشاعر كل المقاهي والبارات حتى وجده... وقال له بحدة: «هو مش فيه بينا ميعاد يا سعد؟!».. نظر إليه سعد كمن يراه لأول مرة وقال له بصوت عال يسمعه كل من بالبار: «هو أنت قلتلها إني ماليش في الجنس؟».

جلس الشاعر على المائدة وقال بهمس: «قلت لها يا سعد ووافقت وقلتلك ده في التليفون».. رفع سعد نغمة صوته أعلى من المرة السابقة: وقال كأنه يشهد كل الموجودين على الواقعة: «وأنا بقه مش عايز أتجوز... هو الجواز بالعافية يا ناس...!».

وكانت قطيعة بينهما استمرت طويلًا... وعندما انتحيت بسعد وقلت له: «هو فيه حد يشرد لنفسه كده قدام الناس؟»، ابتسم سعد وقال: «الناس مش عايزة تفهمني.. الأصدقاء والأعداء... أنا مش عايز أتجوز... أنا عايز أحب... أحب الأول وبعدين أتجوز...».

هو يراهن على المستقبل وواثق بأنه سيجد حبيبته... ولا يهمه تحولات الزمن وتروسه الفتاكة... وعندما يتجرأ أحدنا ويقوله له: «يا سعد أنت بتكبر سيبك من فكرة الحب دي»، يبتسم ويسترجع الحكايات الجميلة من رأسه ويتلوها أمامنا كأنه يحفظها غيبًا: «دانتي كان عمره ٤٥ سنة وأحب بيتاريس

اللي كان عمرها ٢٠ سنة... وبيكاسو اتجوز وعمره ٩٠ سنة حبيبته اللي كان عمرها ٢٨ سنة... وشارلي شابلن وعمره ٥٨ سنة أتجوز أونا بنت يوجين أونيل اللي كان عمرها ١٨ سنة».

«يا تبر سايل بين شطين.. يا حلو يا اسمر»





بمجرد دخوله إلى أي مكان نكون مجتمعين به، يخفت الصوت جدًا ثم يهبط الصمت.. يتجاهله تمامًا الكبار من جيله نفسه... كأنهم لم يلحظوا صخبه في الدخول وكأنهم لم يسمعوا صوته العالي وتلقيحه بالكلام عليهم... أما الجرسونات فحالهم حال... يتمنون أن يطردوه ويلقوا به خارج مقاهيهم أو كافترياتهم لكنهم يخشونه لسبب ما... يقترب منه أحدهم وينحني بالقرب من أذنه ليهمس له محذرًا: «يا أستاذ محمد عندنا تنبيهات من صاحب المحل لو عملت زي المرة اللي فاتت حانطردك بره المحل!».. يشخر الأستاذ محمد ثم يسب المحل وعماله وصاحبه بأشنع الشتائم... فيغضب الجرسون ويمد يده تجاه إبط الأستاذ محمد ليرفعه من على الكرسي تمهيدًا لطرده!..

في تلك اللحظة بالضبط يستكين الأستاذ محمد ويقول بمسكنة: «خلاص حاشرب قزازة البيرة وأروح!».. يقاطعه الجرسون بحدة: «وكمان مافيش ليك بيرة ولا كحوليات»، فينصاع الأستاذ محمد ويطلب فنجال قهوة.. يأتي به الجرسون بسرعة وقبل أن يضعه على الطاولة يفتح كفه ويقول له بصوت عال: «الحساب!». يمد محمد يده إلى جيبه ويعطيه الحساب. بمجرد أن يفرغ الفنجال يجد الجرسون فوق رأسه: «مش شربت قهوتك يا أستاذ مستني إيه؟». يظهر الغضب جليا على محمد فيرفع صوته مرة أخرى: «إيه الكافتيريا

الزباله دي؟! أنا الوحيد اللي بتاخد منه الحساب قبل ما ينزل المشروب، ومش عايزني أقعد شوية بتمن اللي طفحته؟!»...

يتململ الجرسون في وقفته ومحمد ينظر تجاه الجالسين كأنه يناشدهم التدخل. يفاجأ بوجوه سلبية.. وحتى عندما يعيد النظر إلى المكان الذي كان يجلس به أبناء جيله يجدهم قد تسللوا واحدًا إثر الآخر.. يضطر إلى أن يدفع ثمن مشروب آخر وهو يقول بأعلى صوته: «قزازة فيروز بس تجيب معاها كوباية فيها تلج»... تأتي الفيروز فيصبها في الكوب كأنه يصب الويسكي، ويمضي يقلب الثلج بإصبعه ويرشف ببطء وهو يترنم بصوت خفيض: ياهواي عليك يامحمد!

ينشغل الجرسون بأحوال مكانه ومحمد يتحرك بكرسيه بمعدل ثابت كل فترة حتى يلاصق مكاننا نحن الشباب.. يتدخل قليلًا في الحوارات ويقول آراء صادمة جدّا عن كبار الكتاب... ثم يطلب من أحدنا خلسة أن يملأ كوبه ببعض البيرة من وراء ظهر الجرسون.. غالبًا ما لا يراه الجرسون أو قد يكون يئس منه تمامًا، وقرر أن يتجاهله ويريح رأسه من الصداع.. تمتد الجلسة فترة لكن سي محمد لا يستتر على نفسه.. يبدأ في الانتشاء من كئوس البيرة المتتالية فيغني بصوت جهوري أو يسب بأقذع الألفاظ أو يلعننا إن استفزتنا آراؤه... هنا يمسكه الجرسون من ياقة بدلته الصيفية ويصمم على إخراجه ولا يأبه بتدخلنا أو بتهديدنا بعدم دخول هذا المحل مرة أخرى، وينظر إلينا بتحد وكأنه يقول لنا: الباب يفوت جمل... وفجأة نجد أنفسنا أمام الكافتيريا نواجه الحر الفظيع ونلعن في سرنا من أخرجنا من جنة التكييف بالداخل...

في أثناء الجلسة يكون سي محمد قد طلب منا أكثر من مرة أن نكمل السهرة ببيته القريب من الكافتيريا لأنه يمتلك حتة حشيش قد الكف وزجاجة

براندي كاملة.. وتجاهلناه جميعًا، لكننا ونحن بالخارج الموقف اختلف وسي محمد يصر على أن نذهب معه ويضيف إلى قائمة إغراءاته جهاز التكييف إسبليت ٤ حصان في كل غرفة من غرف شقته... الذي وافق على الذهاب معه أنا وصديقان آخران... كان البيت بالفعل قريبا من الكافتيريا... لكن لسوء الحظ وجدنا لافتة معلقة على باب المصعد تشير إلى أنه معطل. صعدنا السلم وهو أمامنا يكاد يهرول على السلالم ـ رغم أنه يكبرنا بسنوات كثيرة ـ ويجيبنا ونحن نلهث: خلاص قربنا، ولم نكتشف أن شقته بالدور الثامن إلا ونحن بردهة الدور... المبنى مميز كأغلب مباني وسط البلد وباب شقته عادي لا يفصح عما خلفه.. عندما دخلنا كان المكان مظلمًا تمامًا، ثم طلب منا أن نشعل ولاعتنا كي تنير له مكان «الكوفريه». قربنا منه شعلات اللهب الصغيرة لنجده يمسك بيده سلكين رفيعين من أسلاك الكهرباء يضعهما داخل فيشة الكهرباء فينبعث الضوء.. ليس ضوءًا كالذي نعرفه لكنه ضوء باهت ضعيف...

كانت الشقة تكاد تكون خالية تمامًا... أدخلنا غرفة النوم لنجد كنبة بلدي يتخذها سريرًا ولا وجود لكرسي واحد... كان المكان ينار عبر لمبة صغيرة مبروم سلكها حول مسمار السقف ككل غرف الشقة الثلاث.. أمرنا أن نأخذ من المكتبة مجموعة من المجلدات الضخمة لنجلس عليها.. كنا ننظر لحالنا ونضحك ثم اختار كل منا ما يناسبه من مجلدات ليجلس عليها... فالشاعر اختار المجلدات الشعرية الكاملة وفوقها وتحتها كتاب الأغاني، والروائي اختار مجلدات دوستويفسكي وأعمال تشيكوف، وخريج الفلسفة اختار الأساطير اليونانية القديمة وبعض شروح أرسطو والمدينة الفاضلة (لأفلاطون)...

عاد سي محمد وبيده سخان كهربائي صغير وبراد صدئ وأمرنا بلهجة

حادة بأن نحضر الأكواب من المطبخ. لم يكن مطبخًا بأي حال فليس به إلا حوض كبير مليء بأكواب بها بقايا كحوليات أو شاي، وليس به بوتجاز أو حتى نملية لحفظ الأواني والأطباق... جاهدت لغسل الأكواب بقدر الإمكان بالمياه لتعذر وجود الصابون واختلست نظرة إلى أرضية الحمام ففزعت، فالحشرات تملكه بالكامل، ولكي تدخل لا بد أن تأخذ إذنا منها... وطبعا لم أجد بالمطبخ أثرًا لباكو شاي أو عبوة قهوة... وعندما واجهته بذلك ضحك وقال: «هو أنا عازمكم على شاي؟... هو أنا جبت سيرة الشاي يا جماعة؟»، ومضى يستشهد بأصدقائي... وعندما نفوا، ابتسم وقال لي: «شفت»، أشرت إلى السخان الصغير وأنا أقول بغيظ: «أمال السخان ده ليه، عشان نسخن عليه البراندي؟!»، أعجبته السخرية ولكنه قال بعند: «لا يا فالح عشان لو حد منكم في جيبه باكو شاي وحب يشرب يتفضل.. عشان تعرفوا إن أنا مش مانعكم من حاجة»...

انسحبت من لساني وسألته: «أمال التكييف الإسبليت راح فين؟»... لكنه أجابني ببرود: «تكييف إيه وإسبليت إيه... دا مافيش أحسن من الهوا الرباني... أنت ناسي إن إحنا في الدور الثامن ولو فتحت الشباك ده حتحس أنك على شط إسكندرية»... ثم مضى يدندن: «شط إسكندرية يا شط الهوا»... انبرى أحدنا وطلب منه فتح الشباك لأننا حنفطس من الحر، قام من على الكنبة وفتح الشباك على مصراعيه وشبك زواياه في الحائط... كان الشباك عريضًا جلب علينا فعلا نسمات رطبة...

كانت هناك قطعة أثاث نجت من الدمار أو البيع في هذه الغرفة، وهي قطعة كومودينو من خشب الأبنوس.. فتح درجها وأخرج زجاجة البراندي.. كان الموجود بالزجاجة هو الربع فقط! نظرنا بعضنا إلى بعض ولم نعلق وقلنا في

سرنا: «نشربهم حتى تنتهي هذه الليلة الكحلي»... غير أن صديقنا أراد فقط أن يطمئن على الحشيش، فسأله: «أمال فين الكيف؟». جذب سي محمد علبة كبريت من الدرج وفتحها، ثم أخرج منها دبوسًا صغير في آخره فتفوتة حشيش في حجم حبة العدس...! استغنينا طبعا عن تدخين الحشيش، وصب هو ما في الزجاجة في كئوسنا وألقى بالزجاجة الفارغة على الأرض...

كان يرشف بتمهل وبلذة، وكنا نتمنى أن ينتهي بسرعة.. بعد أن رشف رشفتين بكى وهو يشير إلى المكان الذي يجلس فيه زميلنا، وقال إن هذا المكان كان يجلس عليه دومًا صديقه ابن البواب الذي كان يسامره كل يوم، وإن الشاب تعرض لمحنة عاطفية عندما تخلت عنه حبيبته وتزوجت بآخر... وليلتها ظلا يشربان حتى الصباح... ولأن الشاب يحب صوت سي محمد جدا طلب منه أن يغني، فما كان من سي محمد إلا أن غنى أغنية «يا تبر سايل بين شطين يا حلو يا اسمر»... وأن الولد «لم يكدب خبر»... في الصباح توجه إلى النيل وألقى بنفسه في أحضانه وانتحر... بعد هذه الحكاية الشجية صمم على أن يغني لنا الأغنية نفسها... ودموعه كانت تنساب طيلة أدائه للأغنية...

كنا قد أنهينا كؤوسنا ونريد أن ننصرف، لكن عندما قلنا له ذلك انقلب وجهه الدامع إلى وجه آخر، وشخر لنا وهو يقول: «حتسيبوني وانا لسه ما سكرتش؟!.. حد منكم ينزل يجيب قزازة براندي كبيرة!»... تعللنا بأننا لا نعرف محلات بيع الخمور في هذه المنطقة. قال: «قديمة! هاتوا من محل "بايرون" اللي جنب علي بابا».. اعتذرنا بحجج مختلفة... هز رأسه وقال: «طب لموا من بعضكم حق القزازة وسيبوا الفلوس وامشوا!»... أحسسنا بالابتزاز وكل واحد منا مد يده إلى جيبه وادعى أنه لا يملك مالًا. ابتسم وقال برجاء: «طب استنوا شوية بس أوضب المكان»...

ونزل بهدوء من فوق الكنبة وعبرنا متجها إلى باب الغرفة وأغلقه بالمفتاح، ونحن في حيرة من أمره، ثم قفز إلى الناحية الأخرى من الغرفة حيث الشرفة العريضة ووقف أمامها يلوح بالمفتاح وهو يقول: «يا ولاد الكلاب تشربوا خمرتي وتاكلوا مزتي وعايزين تمشوا كده بالراحة؟!»... طبعا لم يكن هناك أي مزة على الإطلاق وربما القافية حكمت معه. ثم أكمل يهددنا: «لو مطلعتوش العشرين جنيه دلوقتي حارمي المفتاح في الشارع وحاخليكم هنا لغاية لما تعفنوا!!»...

كنا نظن أنه يمزح، فأهملناه، لكنه فعلا رمى المفتاح في الشارع!.. توترنا قليلا ثم تماسكنا واتجهنا نحو الباب نحاول كسره... هنا جن جنونه تمامًا وصعد إلى الشرفة وهددنا بإلقاء نفسه....

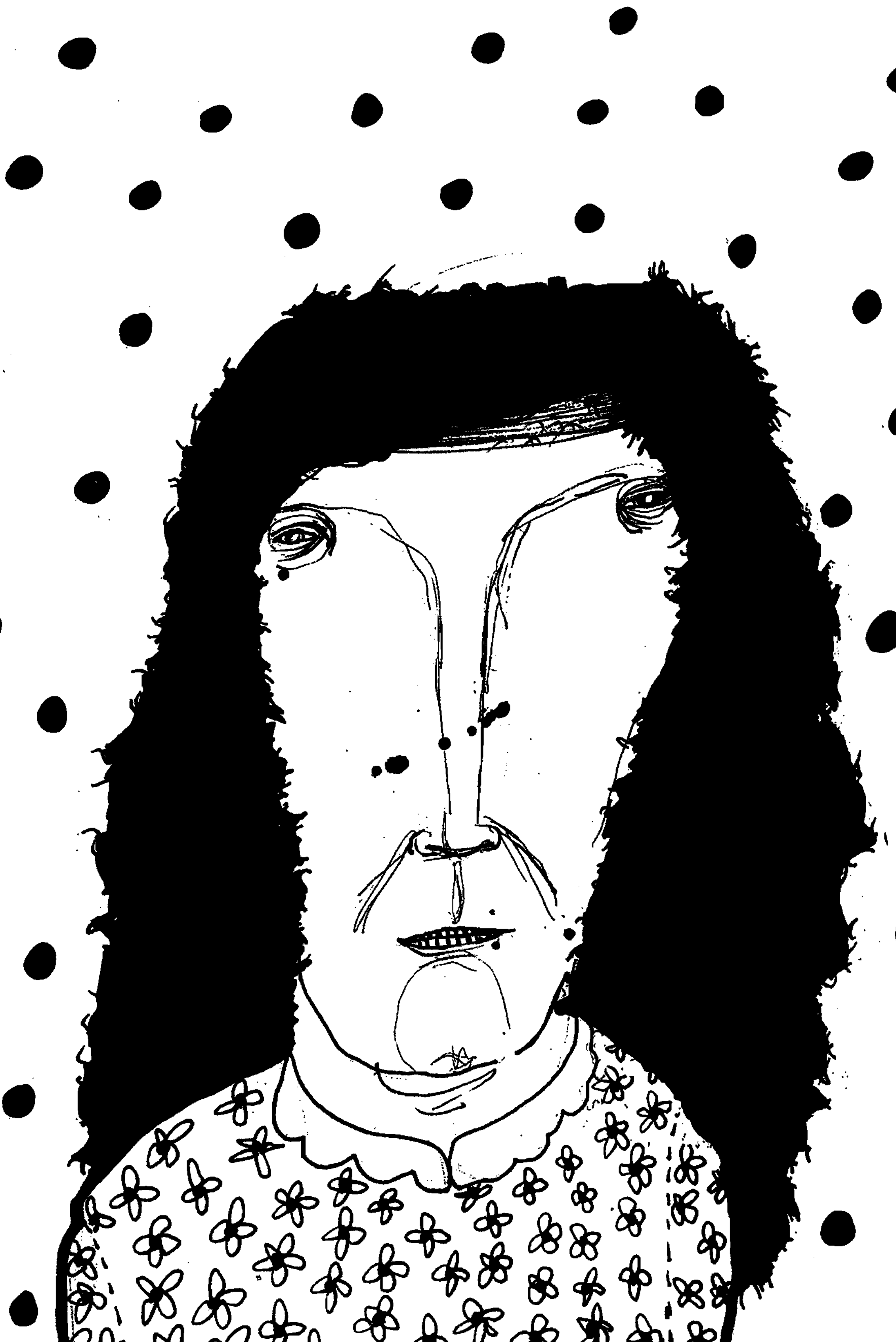
كان يتأرجح على الشريط الضيق للشرفة، وهو في حالة من السكر البين... وتجمدنا جميعًا من الرعب فأخرجنا ما في جيوبنا بسرعة ورميناه على الأرض... فجأة بخفة غير عادية قفز إلى أرض الغرفة، ومضى يلتقط النقود بسرعة وعلى وجهه سعادة غامرة.. طلبنا منه بحدة شديدة أن يكسر الباب لنخرج، ضحك طويلًا وأخرج من جيب بنطلونه الصغير مفتاحا آخر فتح به باب الغرفة بهدوء وتركنا نخرج....

أصبحنا نتجنبه بعد ذلك كالكبار تمامًا.... ثم نسينا هذه الحكاية بعد فترة وجعلناه يشاركنا قعداتنا. كان ممرورًا جدًا؛ فهو مترجم رائع ونقابي متميز والمؤسسة التي يعمل بها لها موقف مع أخيه الشاعر الكبير وهو الذي يدفع الثمن... وهو له موقف نفسي أكبر مع أخيه الأصغر الذي أصبح شاعرًا كبيرًا بينما هو الذي علمه الشعر وتابع محاولاته الأولى وسانده كما يدعي... كأغلب عائلات المشاهير عندما تتقزم المواهب الوراثية لصالح شخص

واحد في العائلة ويصبح الآخر الموهوب بالموهبة نفسها كالظل الباهت... وكان مشدودًا بخيط رفيع ضد ومع الناس... الذين يتهمون الشاعر الكبير بالهرب إلى الخارج بدعوى النضال، بينما النضال الحقيقي في الداخل... ويظل يدافع عنه بحرقة ويعدد منجزاته في الخارج... لكن في أحوال أخرى عندما يلتمس البعض الأعذار للشاعر في هجرته من الوطن بدعوى أن المناخ كان غير مناسب لإبداء الرأي... كان يهز رأسه متفقا معهم ثم تغالبه دموعه ويبكي بحرقة متهما أخاه بأنه تخلى عنه وأن قراره بالهجرة قرار سيئ مهما كانت الدوافع...

في نهايات حياته تقمص شخصية أخيه تماما، يتعرف على المبدعين الجدد ويدعي أنه الشاعر، ويخرج من جيبه صورة الشاعر المنشورة في الجريدة على أنها صورته. كان يحب أخاه بحق ودفع الثمن راضيًا ومات دون إشارة واحدة لموته بالصحف... يا هوايا عليك يا محمد!...

سيدة الممر





دقات رتيبة تصل إلى آذاننا بالكاد ونحن منهمكون في لعب الطاولة.. ثم تتصاعد الدقات حينما تقترب، فينتبه أحدنا ويومئ إلينا.. نزيح كراسينا التي تشغل رصيف واجهة القهوة حتى تمر.. تمشي ببطء بفعل سنها وغيظا فينا.. تسبنا سبّا مهذبًا من فمها الأعجمي لأننا غير حضاريين نشغل الرصيف بألعاب تضيع الوقت.. نبتسم وينزل كلامها «بردًا وسلامًا» على أكثرنا شراسة وعدوانية.. تغادرنا فنعود إلى ما كنا عليه..

سنوات كثيرة والحال لم يتغير.. لا تسير إلا فوق الرصيف ولا تنزل نهر الطريق أبدًا.. إذا شغلنا اللعب ولم ننتبه إليها، تدق على أرجل كراسينا الخشبية بعصاها بعصبية، والكلام القاسي ينهمر من فمها بلكنتها الأجنبية الجميلة مصحوبا بالبهجة مهما كان اللعب يوترنا.. دائما يعابثها صبيان المقهى، يدعون في البدء بأنهم سيحملون عنها شنطتها الشبكية المليئة بالخضراوات المتنوعة والفواكه، ثم يمد أحدهم يده لأخذ برتقالة أو خساية.. فتحرن في مكانها والغضب يملؤها رغم سكوتها التام حتى يخجل الصبي فيعيد إليها ما أخذه.. في أيام روقانها تشكو للجالسين بصوت عال من غلاء الأسعار الذي يداهمها كل يوم، ويضحك الناس من لكنتها.. فتقلب شفتيها امتعاضا وتتكئ على عصاها وتمضي.

هي تسكن في الدور الأرضي في العمارة المواجهة للمقهى.. لها بلكونة على الشارع وأخرى على الممر، ولها عادات يومية تضبط عليها الساعة... في الصباح الباكر تروي الأزهار التي في بلكونتها المواجهة للشارع.. ثم تجلس تشرب شايها وتقرأ جريدتها الأجنبية. عندما تضايقها الشمس تدخل قليلا، ثم تعود إلى بلكونة الممر.. ذلك الممر العبقري الذي سماه أمل دنقل «العمق الإستراتيجى لمقهى ريش»، والذي كان يجلس فيه نجيب سرور ومحمد مستجاب ويحيى الطاهر عبدالله، وكوكبة من مثقفينا الكبار.. وأثراه الشباب بغنائهم، وألحانهم، ومناقشاتهم، وصخبهم وبوستراتهم التي تملأ كل الجدران..

كانت تفضل أن تجلس بشرفتها تراقبهم ولا تزعجها أصواتهم وحدتهم.. وعندما بدأت البنات في ارتياد المقاهي لأول مرة.. كانت تنهرهن من أعلى، على الأخص لو وجدت بيد إحداهن مبسم شيشة... ثم صاحبت بعضهن وكانت تمدهن بزجاجات المياه المثلجة لو عطب كولدير المقهى.. وأحيانا تقذف إليهن بأصابع الموز وحبات البرتقال.. تبدو كأنها لا تحب الذكور؛ إذ كانت لا ترد علينا إلا مضطرة... وأحيانا تحدجنا بنظرات استياء إذا ما ترازلنا في هزارنا معهن.. دائما هي تهيمن على الممر من أعلى بوجهها المسن الذي جاوز الـ ٧٠ عاما من العمر وشعرها الكستنائي المجعد ونظراتها القاسية. تبدو كالحاكم بأمر سلطة سماوية..

كنا لا نخشى صاحب المقهى أو الجيران أو السكان لكننا نقدر صمتها، وسكونها، وغضبها، وبشاشتها.. في ذلك الممر الجهنمي الواصل بين شارع طلعت حرب وشارع البستان السعيدي، والمقابل للمقهى الصغير الذي كنا نجلس عليه، وأصبح علما حتى إن أصدقاءنا كتاب الأقاليم كانت رسائلهم

تصل إليه ولو لم يكتب على الأظرف إلا اسم المقهى.. هذا الممر طالما احتضن كاتبات ريفيات، وكتابًا هبطوا القاهرة لأول مرة، ولم يجدو ملاذا غيره حتى الصباح، واحتضنهم ووقف معهم وساندهم إلى أن اعتلوا مناصبهم المهمة الآن.. واستقبل فرحتهم بأول أعمالهم المنشورة وواساهم في إحباطاتهم.. هذا الممر كان بالنسبة لنا وطنًا وسيدته هي تلك الأجنبية المسنة..

عندما توفي أستاذنا المستشار المفكر التقدمي وقريب النحاس باشا مصطفى عبدالعزيز.. لم نكتف بالعزاء الرسمي في جامع عمر مكرم، وعملنا له سرادقًا بالممر حضره كل الأصدقاء.. وأخلى صاحب المقهى الممر من رواده ليقيم العزاء. وعندما توفي الكاتب النوبي الموهوب «إبراهيم فهمي» قبيل الليلة التي سيعرض فيها فيلمه التليفزيوني الأول «في العشق والسفر» بطولة حنان ترك ومحمود مسعود.. أقمنا له سرادقا بالمكان نفسه في الليلة نفسها التي سيعرض فيها فيلمه الذي لم يره وكان يترقب عرضه ويحدثنا طويلا عنه.

هذا الممر استقبل عائلات ملثمة تأتي إليه بعيون حذرة مترقبة، تنزوي في أركانه في انتظار الفريسة.. وعندما تدخل بنتهم أو قريبتهم الممر ينقضون عليها ويحملونها قسرًا داخل سيارة منتظرة، ويعودون بها إلى قريتهم ولا نرى هذه الفتاة مرة أخرى.. هذا بالإضافة إلى المزاح الثقيل الذي كنا نمارسه على الكتاب القادمين من الأقاليم لأول مرة.. وكانوا يتحملونه بصبر، ثم عندما يشتد ساعدهم لا يتركون ثأرهم.. صرخ فينا أحدهم عندما تثاقلنا عليه: «طبعا يا ولاد الكلب ما انتوا بتروحوا تناموا على سراير وتلاقوا ملوخية سخنة مستنياكم!».. أفهم حكاية السراير دي لكني لم أفهم حكاية الملوخية.. فالملوخية الجميلة هي الملوخية البايتة وليست السخنة..

كبر الزمن أكثر بالسيدة وتثاقلت حركتها ثم أصبحت لا تنزل إلى الشارع مطلقا.. وطالت فترات وجودها بالشرفتين.. وداعبت فكرة الزواج منها أحلام البعض.. فالشقة كبيرة جدّا والأسقف عالية والبيت على ناصيتين.. والزواج منها استثمار انتهازي ناجح.. لكنها لم تمكن أحدًا منها.. لا تخاطب إلا البنات بطيبة الجدات ولا تأبه للأولاد مطلقا.. وكانت لها قدرة كبيرة على التأثير فينا ونحن في أماكننا... بمجرد ظهورها في البلكونة نزيح كراسينا إلى الأمام ونترك حيزًا بالرصيف يسمح بالمرور كأنها ستعود إلى المشي وراءنا كالمعتاد.. بقي لها الآن موعدها المقدس الذي تجلس فيه بالبلكونة بخلاف وجودها في الصباح الباكر لري النباتات.. كان الموعد هو الخامسة مساء حيث تخرج بفنجال شايها الليبتون وتضعه على سور البلكونة وتحتسيه بعمق.. شيء ما أقرب إلى afternon tea المعروف عند الإنجليز.. وعلى الرغم من أنها لم تكن إنجليزية بل إيطالية، فإنها لم تتخل عن عاداتها قط..

وتغير الزمن أيضا وامتلأ الممر بالرواد المختلفين عنا.. بنات من كل الأعمار يشربن الشيشة بجرأة وتحد.. هي أيضا تغيرت ولم تعد تأبه لهن.. فقط تنظر إليهن بأسى كأنها تودع الدنيا من نفاياتها.

ماتت سيدة الممر في ليلة شتوية كالحة ولم يعرف أحد إلا القليلون.. ولم يستلفت موتها نظر أحد كأنها طيف.. وظلت الشرفتان مغلقتين والأتربة تتكوم على شيش البلكونة وأصص النباتات تحجرت نباتاتها وبدت كأنها حفائر من الزمن الغابر وجدها المستكشفون.. وفيما يبدو أن شقتها تم تأجيرها من الباطن لأحد محلات الأزياء بوسط البلد.. واشترطوا على المؤجر عدم فتح البلكونات مطلقا حتى لا يلفت أنظار أحد إلى الشقة.. الآن في الليل يهرب بعض الضوء من داخل الشقة ويتخلل شيش البلكونات.. وإذا دققت النظر

فستجد «مانيكانات» تتحرك جيئة وذهابا بشكل سري وسريع.. لو أخذك الخيال بعيدًا فستظن أن الشقة لم تؤجر وأن السيدة بعد تخلصها من أعبائها الدنيوية، عادت شابة ودبت في قدميها الحيوية وتصطحب صديقاتها في جولة ليلية بشقة العمر. وأحيانا تطير طيرا داخل شقتها التي صاحبتها ٨٠ سنة، وستظن أنها افتقدت الممر كثيرا وستهم بفتح البلكونات وتفقد الناس.. لكنك ستنتظر طويلا..

كوكب الطرشي





لو أنت متابع جيد لمسلسلات «السيت كوم» الأمريكية فسيلفت نظرك ممثل جيد اسمه مايكل ريتشارد في مسلسل «ساينفلد» يؤدي دور كرامر سنيدا لبطل المسلسل جيري وصديقه جورج كوستانزا... وكرامر له لزمات كوميدية في دخوله إلى المشهد.. حيث يدخل بانفعال وبصرخة أو بصوت عال ويصطدم في الأشياء وهو طويل بشكل ملحوظ وشعر رأسه هايش وخشن وله خصلة طائرة في الهواء...

على مستوى الشكل الظاهري، صديقنا نبيه يكاد يتطابق مع كرامر... بطوله وشعره وحجم جسده... لكن الحركة والنشاط والاندفاع التي يتميز بها كرامر على العكس تمامًا عند نبيه... فهو هادئ... صامت إلا إذا جررته إلى الكلام ساعتها لن يتوقف حتى تنبهه... هو كاتب مسرحي ومثقف من أسرة كان لها اهتمامات بالمسرح وأدت أدوارًا فيه بجوار يوسف وهبي وجورج أبيض... له عدة أعمال مسرحية بالبرنامج الثاني بالإذاعة، ثم توقف لأنه من وجهة نظره لا يستطيع إلا أن يقدم أعمالًا مسرحية هادفة ولن ينصاع أبدًا للجمهور الغوغائي الذي أصبح يريد الهزل الآن...

يبدأ نبيه يومه بعد الظهر بالمرور على مكتبة هيئة الكتاب للاطلاع على أمهات الكتب، ثم الذهاب إلى قاعة الاستماع الموسيقي بالأوبرا فهو مفتون بالموسيقى الكلاسيك... ثم يلتقي بنا بوسط البلد... مع العلم بأن هذه المسافة

الكبيرة التي يقطعها من بيته بشبرا إلى الأوبرا إلى وسط البلد تكون مشيًا على الأقدام.

يحب روسيا جدّا، لا يتكلم إلا عن الأدب الروسي والمسرح الروسي والباليه الروسي والموسيقى الروسية. وقد تعلم قليلًا من اللغة الروسية في المركز الروسي بالقاهرة.. (على الرغم من أنه لم يسافر إلى روسيا مطلقًا ولم يكن منضمًا أبدًا إلى أي منظمة من منظمات اليسار... فإنه إلى الآن يعتقد أن الاتحاد السوفيتي لم ينهر وأن كل الذي سمعنا به خطة تكتيكية وستفاجئنا الأيام بما يذهلنا..).

هو نبيه اسمًا ونبيل حقيقي.. نقي.. شريف.. وديع.. مهذب... وأضف ما شئت من خصال حميدة... لكن له أفكارا وأفعالا تحير العقول... ففجأة تجده اشترى نوعا من الورق المسطر تسطير النوت الموسيقية، وتوجه إلى أي مطبعة طالبا منها قص هذه الأوراق وإعادة جمعها على هيئة نوتة موسيقية ويكتب على غلافها الخارجي اسمه... لمجرد أنه تعلم كتابة النوتة الموسيقية كما يدعي... مع أن هذه النوت الجاهزة تباع في العتبة بأرخص كثيرًا مما تكلفه...

حيره أمر ما فانتحى بي وسألني: «هو أنت لما بتدخل السوبر ماركت بتلاحظ اللي بيشتروا الطرشي؟!». ابتسمت وأجبته: «لا يا نبيه»... قال وهو يهز رأسه: «أنا لاحظتهم بقه... ولقيت إن كلهم نسوان قصيرة ووشهم أصفر.. يعني شاحبين تفتكر ليه؟»...

لم أجب.. وعندما ألح علي، قلت محاولًا التخلص منه: «شوف يا نبيه أنا عايز أقولك حاجة المفروض ماقلهاش... وكالة ناسا الأمريكية مرة أعلنت من سنة خبر وماكررتهوش... إن فيه كوكب مش معروف أرسل سفينة فضاء

إلى الأرض، ودخلت السفينة المجال الأرضي واستطاعت وكالة ناسا التحفظ على سفينة الفضاء، لكن ركابها هربوا وماحدش لقاهم لغاية دلوقتي... تعرف يا نبيه سفينة الفضاء دي كانت إيه؟ برطمان طرشي خشب ضخم... عشان كده سموه كوكب الطرشي... ويظهر يا نبيه أنهم تكاثروا واللي بتشوفهم في السوبر ماركت هم من ركاب السفينة!»...

لم يبد عليه أي رد فعل، لكنه فقط قال: «يعني شغل أمريكان بقى!».. وقلب شفتيه...

فتاة أعجبت بنبيه في كافتريا الأوبرا وهامت بثقافته فعزمها في اليوم التالي على زيارته ببيته للاطلاع على مكتبته... استعد نبيل جيدًا بورد في الفازة ومجموعة أسطوانات قيمة... وهو ينوي بعد الزيارة دعوتها للغداء في مطعم بشبرا، قالت الفتاة إنها تحبه... نظرت الفتاة نظرة عابرة تجاه المكتبة، لكن نبيه لم يعلق.. انطلقت الموسيقى الكلاسيك ونبيه منتش يحكي لها ذكرياته المسرحية في الإذاعة.. زهقت الفتاة، فأمسكت بيده وهي تقوم وشدته لينهض معها: «سيبك بقى من الخبط والرزع ده وقوم ننزل!»... ثارت ثورة نبيه عندما وصفت الموسيقى الكلاسيك بالخبط والرزع وطردها شر طردة...

كنا في جلسة سمر وكل واحد منا يحدثنا عن حيوان أو حشرة يكرهها... عندما جاء الدور على نبيه فاجأنا بأن ما يكرهه هو السلحفاة... وعندما قلنا له إنها وديعة وغير مؤذية... قال إن أول مرة رأى فيها سلحفاة كانت عندما أحضرتها له خالته وهو طفل، وكان نبيل يحب خالته جدًّا... وكانت الخالة تداعبه وهي تقول إن هذه السلحفاة تعيش ٤٠٠ سنة (أي أكثر مننا كلنا) وهي الوحيدة التي ستظل بالبيت... بعدها بسنة توفيت خالته وحدثت له فوبيا السلحفاة من لحظتها...

نبيه يعيش في عالم خيالي من صنعه ـ يرتدي نظارة سوداء بالليل ولو ناديت عليه اندهش وسألك: «عرفتني ازاي؟»... ثم يسألك أسئلة غريبة ومفاجئة وغير متوقعة... تشغله أشياء لا يهتم بها أحد... وأشياء كثيرة مهمة لا يأبه لها...

كان سهرانا عند صديق لنا منذ فترة يشاهدان التلفزيون الذي يعرض فيلم «غرام في الكرنك» بطولة فرقة رضا... وجاء الاستعراض الذي تغني فيه الفرقة «هلا هلا ع الكرنبة... يابا يابا ع الكرنبة... ودي رقصة بنت العمدة..يابا يابا ع الكرنبة»... مد نبيه أصبعه يزغد الصديق وهو يقول: «مش سامع الرمز؟!»... سأله الصديق بدهشة: «رمز إيه يا نبيه؟».. أجابه نبيه بثقة: «الكرنبة.. تقدر تقولي دلالة الكرنبة في الأغنية»... بص له الصديق وتعجب وقال: «عادي بنت العمدة وصحتها كويسة وتختوخة زي الكرنبة... أكيد ده اللي بتقصده الأغنية»... انفعل نبيه متهمًا الصديق بالسطحية ثم قال بهدوء كأنه يعلمه: «على فكرة الكرنب ده الإنتاج الزراعي الأول في الإتحاد السوفيتي والأغنية دي أيام ما كانت علاقتنا جيدة بالإتحاد السوفيتي وهي ترمز لمتانة هذه العلاقة وتغلغلها داخل الريف المصري!».

لم يقتنع الصديق بهذا الرمز فانطلق نبيه يشرح باستفاضة: «إنت فاكر افتتاح السد العالي في سنة ١٩٦٢؟»، قال له الصديق بسخرية: «طبعًا مش فاكر كان عندي ساعتها ٥ سنين وإنت أصغر مني ويمكن ماكنتش اتولدت ساعتها»... فقاطعه نبيه: «مش شرط أكون مولود ساعتها عشان أعرف، بس أنا حقولك على معلومة... الدولة ساعتها دعت فالنتينا توشيكوفا أول رائدة فضاء سوفيتية للمشاركة في الافتتاح... واستقبلناها بأغنية من كلمات صلاح جاهين وتلحين وغناء سيد مكاوي... تعرف الأغنية كانت بتقول إيه؟»... سكت الصديق ولم يجب، لكنه فوجئ بنبيه يغمض عينيه ويسترجع اللحن بدندنة

جميلة.. وأضحت ملامحه نورانية من فرط السعادة وهو يترنم: فالنتينا.....
فالنتينا....... أهلًا بيكي نورتينا

إسباسيبا يعني شكرًا... وشكرًا يعني إسباسيبا[1]...

(١) إسباسيبا (Spasiba) كلمة بالروسية تعنى شكرا..

أوركيس مسكيولا[١]

(١) أوركيس مسكيولا.. عشب معمر من الفصيلة الأراشيدية، موطنه دول غرب آسيا وشرق أوروبا.. يتكون هذا النبات من درنتين صغيرتين تحت سطح الأرض. بعد تمام نضج الدرنات يتم غسلها وتقشيرها ثم تُقطع إلى شرائح، وتُجفف في أفران خاصة وتُسحق لتتحول إلى بودرة (بودرة السحلب).. يتم إعداد مشروب السحلب، مع السكر واللبن، ثم أُضيفت إليه مواد أخرى ترفع من قيمته الغذائية.. وتجعله أقرب ما يكون إلى الوجبة الكاملة وتجعله أشهى طعما وأحلى مذاقا.. وأشهر هذه الإضافات التي تُضاف إلى سطحه: السمسم وجوز الهند والفول السوداني واللوز والبندق والجوز.





فجأة يهبط لص ملثم من السطح إلى بلكونة غرفة نوم علال، يفتح باب البلكونة بقفازه الأسود الفاحم دون صوت... يدخل إلى حرم غرفة النوم... لكن لسوء حظه تصطدم قدمه بأصيص نبات ظل أسفل المكتبة فيحدث صوتا مسموعًا... ينتفض علال من نومته فينتبه اللص، وبسرعة يخرج سكينه الحاد التي تضوي شفرته عند التقائه بالضوء... قبل أن يهم علال، بطلب النجدة يقفز عليه اللص ويضع حد السكين عند رقبة علال ويشير إليه بأن يخرس تمامًا... يلتزم علال بالأوامر وجسده كله ينتفض.. يخرج اللص من حقيبته حبلا ضخما يوثق به يديه وقدميه ويضع في فمه إسفنجة عريضة حتى لا يصرخ...

يومئ علال برأسه تجاه الخزانة، بمعنى أن الخزانة بكل ما بها تحت أمره وأن علال مسامحه في أن يأخذ منها ما يشاء ويتركه ينجو بحياته... عندما تتكرر حركة هز رأس علال وتسبب للص العصبية يمسكه من كتفه بشدة ويظل يهزه حتى يسكت ويقول له: «أنا مش جاي آخد حاجة من الخزنة!».. يندهش علال جدّا وتمنعه الإسفنجة من الكلام.. بينما يخرج اللص مقصّا معدنيا من حقيبته ويقربه من وجه علال... ثم يبدأ في قص شارب علال

الضخم... هنا يصرخ علال صرخة مدوية تقذف بالإسفنجة في وجه اللص ثم يستيقظ من النوم...

هذا كابوس شبه يومي يأتي لعلال لكن بأشكال مختلفة... فمرة يشعل سيجارة فتدب النار في الشارب وينتهي في ثوان... ومرة تقبله فتاة جميلة وتنتهي القبلة بالفتاة وقد بلعت شاربه وهربت... وهكذا... مما جعله أخيرا يتجه لأكثر من طبيب نفسي...

علال هذا هو أكثر شخص مميز بمنطقة وسط البلد بشاربه الكثيف الجميل.. شاربه كستنائي كث، ويستخدم علال أنواعا معينة من الزيوت والدهانات لزوم تقويته وتلميعه... وأهم هذه الزيوت... زيت اللوز المستورد رأسًا من سوريا... ويقال إن علال أفنى على شاربه محصول عشرة أفدنة لوز على الأقل... وعندما سخر منه صديق صيدلي وقال له بأن هناك كريما اسمه لوزماتيك يباع في كل الصيدليات يجعل الشارب منتصبًا في الهواء لا تهمه رياح ولا زوابع، اتهمه بالجهل، وقال إنه لا يستخدم أي مستحضرات صناعية على وجهه وبالأخص على شاربه.

يقضي علال نصف ساعة يوميا في الصباح الباكر وهو يبرم شاربه حتى يرتضي شكله، وقد تعلم برمة معينة عبر السنين تجعل الشارب يجمع ما بين المرونة والصلابة (يجمع ما بين المستحيلين الاثنين... إنه علال..!). أما في حالة تشذيبه لشاربه فهذا وضع محتاج إلى وصف... إنه يشذب شاربه مرة كل أسبوعين... ويستغرق الأمر يوما كاملا في التشذيب (يأخذ له إجازة خاصة)... أولا يستجمع شجاعة اتخاذ قرار التشذيب... ثم يوضب ماكينة الحلاقة ويلمعها ويختار لها الشفرة المناسبة... ويستخدم ثلاث مرايا أثناء

التشذيب... مرآة حوض الحمام التي أمامه، ومرآة أسفل ذقنه، ومرآة يمسكها من أعلى رأسه... بالإضافة إلى أن ماكينة الحلاقة والمقص يكونان بيده (طبعا هو وضع أخطبوطي لا يمكن تخيله لكن علينا تصديقه).

يملك علال كافتيريا من أهم كافتيريات وسط البلد، كانت لها سمعة مدوية في الستينيات والسبعينيات ومنذ ورثها علال لم يضف إليها جديدًا... غير بعض الإضافات الهزلية، كأن يجعل الدور العلوي صالة للبلياردو أو تنس الطاولة، ثم تفشل الإضافة... هو قانع بها هكذا... بضعة كراسي ومناضد وبعض المشروبات ويجلس عليها زبائن معروفون... وجيل جديد من الكتاب والفنانين...

وميزته الكبيرة أنه رفض بيعها في أثناء هوجة الشراء التي اجتاحت منطقة وسط البلد في التسعينيات لقاء مبالغ خيالية... وحافظ على هذا المكان الجميل حتى الآن الذي يتميز بوقوعه على ناصيتين لشارعين من أهم شوارع وسط البلد... هو قانع برزقه وإنسان نبيل.. دائمًا مبتسم ومهتم وعلى صلة جيدة بالناس ويصاحب كل الطوائف بلا استثناء... تجده يحتفي بفتيات الليل يستمع إلى قصصهن وحكاياتهن ويساعدهن إن اقتضى الأمر بلا غرض ودون إقامة علاقات معهن... كما يصادق مجموعة من المثليين ويعاملهم بود دون أن تكون له علاقة معهم...

ومن الطريف أن صديقا لنا تعرض لعملية نصب من أحد مستوردي بضائع الصين وكان المبلغ المنصوب عليه فيه ٣٠ ألف جنيه رفض التاجر دفعه حتى بعد تدخل الشرطة وصدور أكثر من حكم عليه بالسجن.

ويئس الصديق جدًا... وعلم علال بالأمر فأخبر أحد أصدقائه المثليين

بالأمر، طلب الصديق المثلي عنوان الرجل وتقصى عنه... ثم اتفق مع زملائه واستأجروا سيارة نصف نقل وأحضروا معهم بدل رقص حريمي، واختاروا زمن بعد المغربية... كان التاجر يسكن في الدور الأول... نزلوا من السيارة وهم يرقصون ويطبلون ويزفون التاجر باسمه... جميع من بالشارع أصابتهم الدهشة فوقفوا صامتين يراقبون... خرج التاجر من البلكونة... ادعى أحدهم أن التاجر زوجه وأنه أهمله، وظل يشنِّع عليه في الشارع ويفضحه فضيحة بينة...

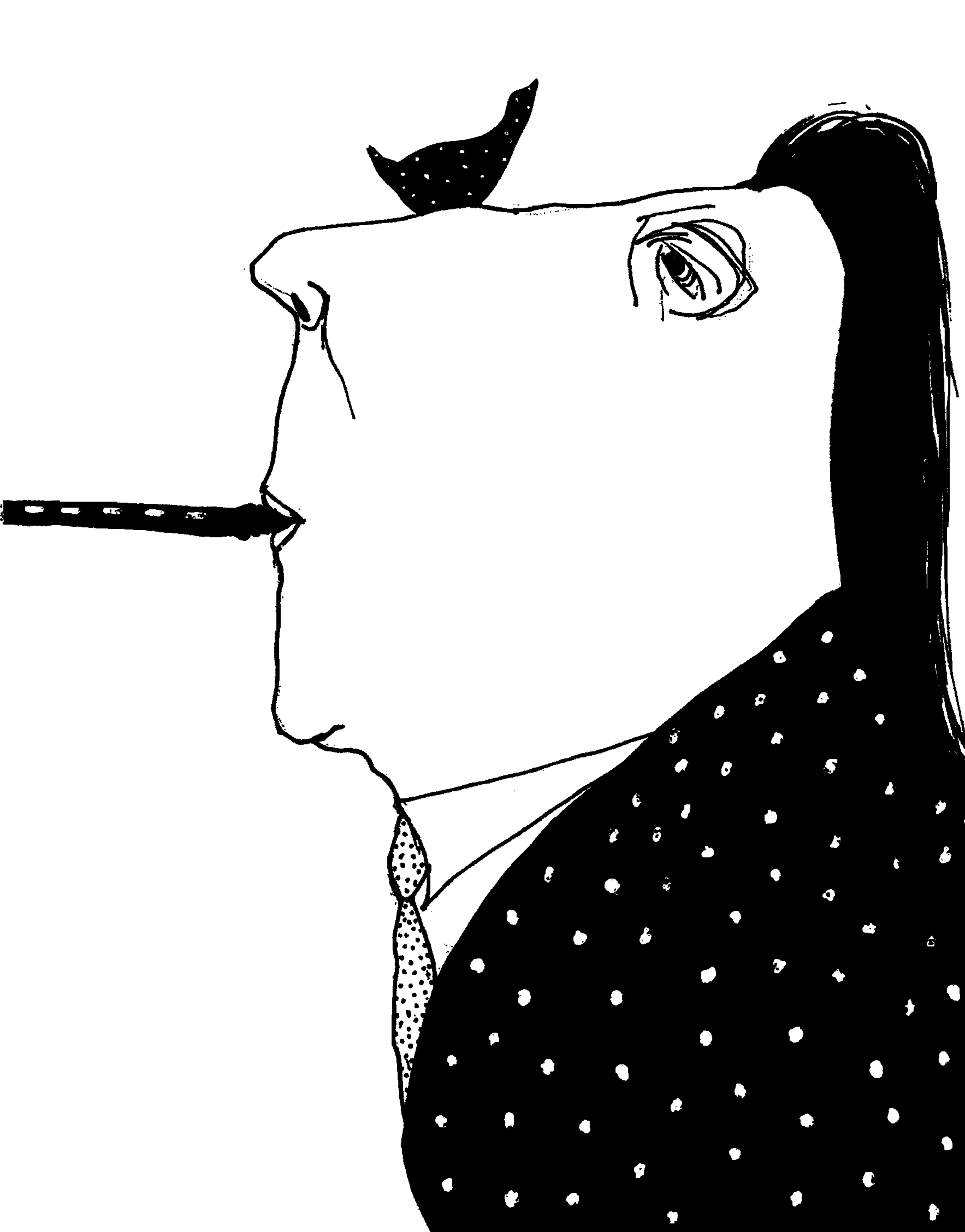
هددهم التاجر بالبوليس... فلم يرتدعوا... خرجت زوجة التاجر تنظر من البلكونة فدفعها التاجر للداخل...فظلت تضربه على ظهره فأدخلها بعنف وهو يهددهم بوحشية بالقتل... زادوا في رقاعتهم وفي سبه ولعنه... كيف يترك زوجته (وهم يشيرون إلى زميلهم) بدون نقود ويدعي أنه مسافر...؟! نزل التاجر بسرعة إلى الشارع وبيده مسدس... ركبوا سيارتهم وألقوا له بورقة عليها اسم الشخص الذي نصب عليه... في الصباح الباكر كانت هناك حقيبة بها الـ٣٠ ألف جنيه في بيت الشخص المنصوب عليه، أخذها وأعطى حامل الحقيبة مخالصة وانتهى الأمر...

علال له أيضًا متعة كبيرة في إلقاء الشعر... ليس أي شعر على إطلاقه... وهو يحتفظ بورقة طويلة مطوية عدة طيات ومهلهلة من جهة الطية من كثرة الاستعمال... الورقة بها قصيدة عصماء بالعامية يدعي علال أنها للشاعر بيرم التونسي «يرثي فيها ذكورته» والقصيدة فاحشة جدّا ويستمتع علال بإلقائها ومراقبة انفعالات جمهور المستمعين لها...

إذا ما أحبك علال ـ وهو غالبًا ما سيحبك لأنه شخص استثنائي، فإنه

سيعزمك على أوركيس مسكيولا... لا تفزع ولا تهرب.. إنه الاسم العلمى للسحلب، لكن علال يعتقد أنه بحكم الشارب الضخم ومهابته لا يصح أن ينطق «سحلب» هذه الكلمة التافهة التي تتكون من ثلاثة أحرف فقط؛ لذا فهو ينطقه باسمه العلمي زيادة في الوقار!!

آخر النبلاء





في ركن ببار «إستلا» كان يجلس وبرفقته رجلان وسيدة... وهم يتخاطبون بالكلمات والإشارات بصوت عال وبهمس أحيانًا... لكنه كان منفصلًا عنهم تماما وعيناه مسافرتان إلى المطلق... وعندما كانوا يوجهون إليه الكلام مباشرة أو يلكزونه لكي يتابع حديثهم... كان ينتفض فجأة وينظر إليهم بحيرة كأنه فوجئ بوجوده بينهم، ثم يهز رأسه بضعف ويطفو شبح ابتسامة فوق شفتيه ويتابعهم لوهلة ثم يعود إلى سيرته الأولى...

كان البار هادئًا على غير العادة تلك الليلة... ثم بدأ يصطخب بمرور باعة الفول السوداني والمناديل الورقية والصحف بين المناضد... ثم هدأ مرة أخرى برحيل الرجل والسيدة اللذين كانا برفقته، ولم يبق بصحبته غير شخص واحد... ظل هذا الرجل يهامسه بعد رحيلهما، وتظهر على وجهه انفعالات شتى بينما صاحبنا ما تزال عيناه كما هما سابحتين في الأفق... دقائق معدودات ومل الرجل الذي يجالسه وانصرف، وظل هو وحيدًا بملامحه المميزة التي أضفى عليها الأسى قدسية، وشعره الكستنائي المجعد الذي ترسم حدوده شعيرات بيضاء يتحدى الريح المتربة الضعيفة التي تتسلل من خلال ثقوب النافذة الخشبية التي يجلس بجوارها والتي تطل على الشارع... رشف رشفتين ثم بدأت عيناه تقودانه بعجالة إلى ماض قريب، وكلما أهمله تذكره، وكلما تذكره غابت عنه بعض التفاصيل...

في اللحظات الحرجة من عمر الرجال، عندما تتصارع التجاعيد مع فتوة الجسد ونضج التفكير... عندما تقابلك المرآة بوجهها الساخر كل صباح... فتزيد تضاريس وجهك ضراوة... وتمضي تتلمس بإصبعك تفاصيل وجهك ثم تركن إلى شباب قلبك فتعلن لها بكل جرأة وتحد: أنا ما زلت صغيرًا... أنا ما زلت صغيرًا.. في تلك اللحظة لن يوقفك شيء عن فعل ما تحبه.. خصوصا لو كنت مثله...

وجد نفسه مدفوعًا بحبها، دائرا في مجالها المغناطيسي، كفته العالم واكتفى بها حلمًا مستحيلًا لكنه قادر على تحقيقه... لم يحفل بحسابات الربح والخسارة... لم يعبأ بأفكار العقل والهوس والجنون... لم يستشر أحدا، ولم يستفت حتى قلبه الواقع في أسرها تمامًا... قال لنفسه: أنا أحب فلا بد أن أواجه...

سار والشوق يقوده إلى المسرح الكبير الذي يلعب على خشبته أوركسترا سيمفونى كامل (لا يقل عدد عازفيه عن ٦٠ عازفًا).. وكان الذي يقود الأوركسترا أحد زملائه... وفي الصالة جمهور كبير من الطلبة والأساتذة وأقارب العازفين... جلس يرقب ما يحدث من مقاعد الجمهور بينما كان كل من فوق خشبة المسرح ينظرون إليه بلا استثناء... المحترفون منهم وطلبة الامتياز... فهو أستاذهم وعميد معهدهم والموسيقار العظيم... من فرط حماستهم ارتقى عزفهم هذه الليلة إلى الكمال...

انتهت المقطوعة الموسيقية التي يعزفونها... وقبل أن يعطيهم المايسترو إذنا بالراحة... نهض من مقعده متجهًا إليهم... ظلوا يصفقون بمجرد وقوفه حتى صعوده إلى خشبة المسرح... انتظر طويلًا حتى خفت صوت التصفيق ثم توقف... رأوه على وشك الحديث فسكتوا جميعًا... تأملهم جميعًا

بدقة كأنه يستعيد ملامحهم... تحرك تجاه أصغر عازفة فيولينا بالأوركسترا (١٨ سنة)... أمسك بيدها فاقتربت بجسدها منه... ترقب الجميع إعلانه عن إعجابه بعزفها ومباركته لها ونبوءته بمستقبلها الموسيقي العظيم... غير أنه لم يقل أكثر من هذه الكلمات:

«أشكركم على ترحيبكم بي... بس أنا جاي مخصوص عشان أقول قدامكم كلمتين... على فكرة يا جماعة... (ثم رفع يد الفتاة عاليًا) أنا بأحب فلانة (عازفة الفيولينا صغيرة السن) وباطلب منها قدامكو كلكم الجواز (هنا قبلته الفتاة على وجنتيه)... وعلى فكرة بالنسبة للدكتورة فلانة (زوجته الأستاذة أيضا بنفس المعهد)... أنا اتفقت معاها على كل حاجة..»! ثم أحنى رأسه قليلًا أمام الفتاة وقال: «فلانة.. تقبلي تتجوزيني؟»... ابتسمت الفتاة بسعادة وقالت أمام الجميع: «أنا موافقة!»...

مرت لحظة صمت طويلة بدت وكأنها إلى مالا نهاية... كانت يداهما متعانقتين والناس في شغل شاغل... بعضهم شعر بالذنب لاضطرار أستاذهم إلى المجاهرة بحبه، وغالبيتهم انتظر بفارغ الصبر الخروج من القاعة لمناقشة هذا الأمر مع الزملاء أو للحديث عبر المحمول مع آخرين، ليكون أول من يبلغهم بهذه الواقعة...

إعلان هذه العلاقة كان بمثابة كرة النار التي ألقيت وسط الساحة الفنية بالأكاديمية، وكان يذكي نار هذه الكرة بعض محبي متابعة الكوارث ومشاهدتها والتلذذ بنتائجها بسادية... صديقنا قطعا وهو يعلن قراره كان يعلم بأن هناك حربًا سيشعلها هذا القرار... لكنه لم يتخيلها أبدًا بهذه القذارة... اعتراضات وهمسات من خلف ظهره... استياء مقموع في الوجوه التي تقابله... أصدقاء يدعون أنهم يعبرون إليه من فوق جسر المحبة، يلومونه ثم يطلبون منه ببجاحة

أن يفعل مثلهم، ويدخل في علاقات متتالية سرية سريعة يستغل فيها سطوة منصبه، وعندما ينتهي منهن يظهر لهن «العين الحمرة»...

لكنه لم يعبأ بردود الأفعال وتصرف كـ«جنتلمان» مقدما استقالته إلى رئيس الأكاديمية... حفظها الرئيس داخل درج مكتبه وهو يقول له بابتسامة: «أنت لم تفعل شيئًا شائنًا... أحببت وتزوجت حسب الشرع والشريعة!»...

لم تهدأ الأمور بل ازدادت اشتعالًا بذهاب بعض من يدعون أنهم أصدقاء إلى والد الفتاة ليقذفوا في وجهه بسؤالهم المستفز: «إنت إزاي تعمل كده؟!... ترمي بنتك لواحد أكبر منها بـ٤٠ سنة؟!»... لكن الوالد الموسيقي المخضرم المحب ابتسم في وجوههم وظل يعدد لهم محاسن زوج ابنته حتى اضطرهم إلى الانصراف في خزي وغيظ.

صديقنا واجه كل هذه التحديات بشجاعة ونبل لكن الأرض كانت قد اهتزت تحت قدميه... وكل الأشياء التي كان يعتقدها ثابتة في حياته لم تعد الأشياء نفسها... الأصحاب الذين كان يظنهم أصحابا... والمبادئ التي كان يعتقد في رسوخها فوجئ بأنها سراب... وفوجئ بمستنقع كبير من القاذورات يتمدد تحت قدميه... حتى إن العازفين العاديين الذين كان يفكر فيهم كثيرًا وهو يكتب موسيقاه، ويصر على اصطحابهم معه إلى الإستوديوهات من أجل أن يفتحوا بيوتهم ويزيد إيرادهم... حتى هؤلاء كانت تصله كل سخرياتهم التي يطلقونها خلف ظهره.

عزاؤه الوحيد كان في الحب الطاهر البريء الذي بدل حياته بسرعة غير عادية وجعله يتحرك بهذه الشجاعة ويواجه بمثل هذا الصمود...

لا يعنيني انطفاء جذوة الحب مبكرًا وتجمد المشاعر سريعًا... لا يعنيني فشل الزيجة أو استمرارها... ولا يهمني خطأ أو سلامة اتخاذ القرار... يعنيني

أنه موقف شجاع ونبيل... اتخذه وجاهر به وتحمل تبعاته... ولم يرتض غير أن يتسق مع نفسه ونأى بها عن ممارسة ألاعيبهم في السر، وأن يصير مثلهم في العلن عندما يواجهون الناس بوجه زائف ولسان مدع...

تلقى تليفونا فتورد وجهه وحاسب على مشروباته وخرج... كانت رفيقة عمره الطويل في انتظاره بالسيارة... ركب بجوارها بعد أن قبل وجنتيها وربتت هي على ظهره بمحبة. انطلقت به تلك النبيلة الأخرى التي تقبلت هفوة زوج محب ورفيق حياة، ولم تشترك أو تشارك في المولد المنصوب حول حكايته... مضيا معا في طريق المحبة...

الفُسْكُول زين



الساعة تقترب من الثانية بعد نصف الليل، وقد هدأ هذا القطاع السكني في أطراف مدينة ١٥ مايو بحلوان. تمركزت القوات الخاصة بالميدان.. استطلع قائد التشكيل المكان.. الوحدات السكنية متماثلة كل التماثل.. حالة الشرفات تنبئ عن كونها مسكونة أو شاغرة.. الشقق المسكونة قليلة وتشي بها بعض الأضواء المنفلتة أو عناقيد الثوم والبصل المعلقة أو السلوفان الذي يغطي خشبها مانعًا دخول الأتربة.. عاد مساعد القائد ليخبر قائده بأن رقم المبنى صحيح.. طبقًا للخطة الموضوعة تم تسكين الجنود أمام المبنى وخلفه.. وفي بهوه وعلى الدرج.. والجزء الأكبر من الجنود صعد مع القائد ونائبه تجاه الهدف المنشود..

كان زين داخل الشقة الصغيرة يكاد يرتعد في منامته الحقيقية.. وهو يقرأ أسفل ضوء الأباجورة الوحيدة المنيرة في طول الشقة وعرضها مقتصدًا من مصروفات الكهرباء.. رن تليفون المنزل فارتعد وظل يتأمله بغضب.. لم يسكت الرنين فارتبك أكثر.. لن يرد حتى لو رن إلى يوم القيامة.. أعطى لصديقه صاحب الشقة وعدًا بذلك..

قبل ثلاثة شهور من هذه اللحظة في بداية قبوله استضافة الصديق له للإقامة في الشقة.. أخطأ مرة ورد على التليفون وكانت المتصلة خطيبة صديقه التي ظلت تستفسر منه عن سبب وجوده بالشقة في هذا الوقت، وأين خطيبها؟

ولماذا تركه في الشقة بمفرده؟.. وسخفت على زين جدًا.. وعندما أنهت مكالمتها.. بعد عشر دقائق بالضبط تلقى اتصالًا أسخف من صديقه ملخصه ألا يرد على الهاتف مطلقا وسيفهمه الأسباب عند حضوره.. وفعلا حضر الصديق بسرعة ولام زين كثيرًا على تبرعه بالرد، وأخبر زين بأن رده هذا سبب مشكلة كبيرة؛ فالخطيبة غيورة جدًا، وتعتقد أن خطيبها يستخدم شقته في النوم مع النساء.. وأنه لم يكتف بذلك بل يدعو أصدقاءه للصرمحة في شقة الزوجية المستقبلية..

تماسك زين كثيرًا من الرد بعنف على صديقه، فهو لم يطلب منه أن يستضيفه في شقته بل الصديق هو الذي ألح عليه في الاستضافة.. ومنع زين نفسه من أخذ متعلقاته والفرار من هذا المكان.. فالظروف هذه الأيام.. بل على مدار حياته كلها تسير عكس ما يريد.. أحس الصديق بما يعتمل داخل صدر زين وشعر بأنه قسا على زين فطيب خاطره وطمأنه بأنه أقنع خطيبته بأن زين من بلدة نائية وقد استضافه ليلة فقط حتى يدبر أموره.. وتوسل الصديق إلى زين بألا يرد على الهاتف مطلقًا، وإذا ما أراد أن يكلمه في شيء مهم وعاجل فليتصل به من أي كابينة هاتف عمومي..

خبط عنيف على باب الشقة أجبر زين على فتحه.. اندفع الجنود داخلها فوقع أرضا.. جرى تفتيشها في دقائق معدودات.. كسر القائد باب غرفة النوم الموصد فوجد السرير والمفروشات والدولاب كأنها لم تمس في انتظار العروس ليلة الدخلة.. وفي الصالة وقعت عين القائد على كليم مهترئ ووسادة صغيرة تعلوها بطانية خفيفة، وبجوار الكليم كتب متناثرة أغلبها في فن صناعة الفيلم وبعض الروايات الكلاسيكية.. وهناك سخان صغير للشاي ويستخدم أحيانا للتدفئة.. ظل القائد فترة جالسًا على رصة الكتب ويتركه الجند ويعودون بأكوام أخرى كلها من الشاكلة نفسها، إما كتب أدبية وإما خاصة بالسينما والمسرح تتخللها بعض الكتب الفكرية القليلة.. لم يجد كتابًا

مشبوهًا.. وعندما استفزه دوسيه تكاد تخرج من بطنه الأوراق.. قلبه فوجده يحتوي على مقالات زين التي كان ينشرها في جمعية نقاد وكتاب السينما..

كان زين قد أفاق من إغمائه.. وظل ينظر إليهم بوجه ممتقع وعين زائغة وقلب غير قادر على السيطرة على دقاته، وحس عميق ويقيني بأن هذا هو آخر يوم في حياته.. شخطة المساعد في وجهه وترته أكثر بينما ابتسامة القائد وزجره لمساعده طمأناه قليلًا.. فمد يده ببطاقته وبكارنيه جمعية النقاد.. دردش معه القائد قليلًا ورق لحاله.. ثم أخبره بأن الجيران شكوا في هيئته المزرية، وفي لحيته النابته قليلًا، وفي مكوثه بالشقة طويلًا دون خروج، وفي الأنوار المطفأة وفي تحركاته المريبة داخل الشقة، فتصوروا أنه إرهابي يدبر أمرا جللًا..

أعطى زين مفتاح الشقة لصاحبها ليهنأ به مع زوجته القادمة.. وغادر هذه المنطقة ولم يعد إليها مرة أخرى.. كان هذا فصلًا من فصول البيات والنوم لصديقنا الناقد السينمائي المتميز زين..

عرفته في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي في المنتديات الثقافية بوسط البلد.. في كافتيريا علي بابا وأسترا وسوق الحميدية.. والمقاهي التي كانت تضمنا.. حبه للسينما حب حقيقي ورؤيته لها عميقة وتحليلاته صائبة ودقيقة.. مثقف حقيقي كان من أكثرنا قراءة للكتب الأدبية، والكتب التي تتناول صناعة السينما وتقنياتها... وكان يكتب بانتظام في نشرة جمعية نقاد وكتاب السينما... وكان موظفًا بشركة تأمين كبرى.. كان مستقرا ماليّا وسكنيّا، وكثير من أصدقائنا كانوا ينتظرون أوائل الأشهر ليقترضوا منه قروضا صغيرة لا يردونها على الأغلب..

هو نموذج مثالي للوحدة.. أصله من الريف المصري ودرس بالإسكندرية واستقر بالقاهرة سعيًا وراء حلمه بالعمل في السينما.. رهيف الحس ورقيق المشاعر وصادق في زمن متوحش.. جعلته هذه المزايا حساسًا إلى أقصى

درجة.. وكانت هذه الحساسية هي الجدار العازل بينه وبيننا.. كان يكبرنا بسنوات قليلة.. ويصر على أن نسبق اسمه بلقب الأستاذ لأننا يجب أن نراعي فروق الأجيال.. وإذا ما أخطأ أو سها أحدنا وناداه باسمه مجردًا أو تجاسر فرد من شلتنا ودلعه تكون الطامة الكبرى.. يرفع يده في الهواء أولًا مودعًا لنا.. ثم يعود بعد قليل متجهًا إلى هذا الشخص المتجاوز ليوبخه ويؤنبه على أنه تجاوز في حقه.. ولم يراع فرق السن...

كان ناقدًا أدبيًّا بامتياز من واقع خبرتي الشخصية.. لم أقدم له قصة أو مجموعة قصصية أنا كاتبها إلا وعاد بعد أيام بمجموعة من الأوراق تضم تحليلًا ورؤية نقدية لكل قصة في المجموعة.. هذا الاهتمام لم أجده من النقاد المحترفين ولا الأصدقاء الملازمين.. وإلى الآن كلما كتبت عملًا جديدًا أتمنى أن يقرأه وأن أعرف رأيه حتى بعد أن تفرقت بنا السبل.

بدأت هوايته السينمائية الحمقاء (على حد قوله)، وهو في أولى سنوات دراسته بالمعهد وأخرج فيلمًا قصيرًا بديعًا (٨مم) اسمه «لاشيء ينتظر المسافر».. والاسم مستوحى من قصيدة للشاعر عبد الوهاب البياتي: «لا شيء ينتظر المسافر، غير حاضره الحزين، وحل وطين»...

وعلى فكرة يهيم زين بالشعر والشعراء وأغلب كتاباته يتضح فيها هذا الهيام فهو يحب البياتي خصوصا في ديوانه «المجد للأطفال والزيتون» وصلاح عبد الصبور في «أحلام الفارس القديم» وعبد المعطي حجازي في «مدينة بلا قلب». وهو متيم أيضًا بالمخرج «لوي بونويل» أحد فناني السينما الكبار (١٩٠٠ ـ ١٩٨٣) وواحد من رواد تيارها الحداثي السيريالي..

فيلمه الأول والأخير لفت إليه نظر بعض النقاد وأدى إلى دعوته لحضور مهرجان قرطاج السينمائي بتونس مما جرأه على فركشة الجمعية التي كان قد كونها مع زملائه وخطيبته غير الرسمية لكي يسافر إلى تونس مما أجهض أيضًا

مشروع خطبته لها.. نشرت جريدة الجمهورية خبر سفره بفيلمه إلى تونس في صدر صفحتها الأولى مما جعله يشتهر في شركته في أول حياته العملية.

بعد هذه السفرية المفاجئة تغير حال زين تمامًا من اهتمام طبيعي بطبيعة عمله في شركة التأمين والطموحات المشروعة في الترقيات والحوافز الإنتاجية إلى دخول موغل في الحياة الثقافية السينمائية.. حضور ندوات.. متابعة فعاليات.. كتابة شبه منتظمة في نشرات السينما.. ثم اهتمام بالإخراج السينمائي مع كثير من المنغصات.. تقدم إلى معهد السينما ولم ينجح في الدخول رغم أنه أحق بالدخول من كثيرين..

تحول بعد ذلك إلى فكرة الكتابة للسينما والتليفزيون، وهذا شيء مشروع جدًا، إلا أن زين كـدون كيشوت مثالي.. قرر ارتكاب واحدة من أعمق حماقات قفزات المجهول في حياته في عام ١٩٩١ حين قرر تسوية معاشه مبكرًا وهجر وظيفته المستتبة وتوءمها أمنه المادي من أجل وهم احتراف الكتابة (السيناريو والنقد السينمائي)... وحقيقة كنا جميعًا زملاء وأصدقاء قد حذرناه بشدة من اتخاذ هذه الخطوة، عدا شخص مازحه بشر مقصود أو غير مقصود ـ الله أعلم ـ وقال له: «نعم القرار يا أستاذ زين هل ستظل طول عمرك قنا وعبدا من عبيد الوظيفة؟!».. وابتسم زين وأعجبته هذه المساندة.. ولم يأبه لنصائحنا...

بل إن زميلا لنا عندما ذهب إلى زين في المصلحة التي يعمل بها، وكان في مأمورية عمل.. طلب مدير زين رؤية هذا الزميل وناشده أن ينصح زين بالتروي والعدول عن قرار تسوية معاشه، وأن يتقدم بطلب إجازة لمدة أربع سنوات أو خمس.. وأكد المدير للزميل بأنه سيوافق على اعتبارها إجازة بدون أجر حتى يستقر زين في حياة التأليف.. فإن نجح الأمر معه فليتقدم مرة أخرى بطلب تسوية معاشه. وإن فشل فليعد إلى وظيفته ويا دار ما دخلك شر.. أيضًا صديقه الأثير بالشركة ـ والذي سيستضيفه بشقته مستقبلًا ـ فشل فشلًا تامًا

في إثناء زين عن فكرته.. والأنكى من ذلك أن زميلنا عندما أخبره بما قاله له المدير.. احمرت عينا زين من الغضب واتهمنا جميعًا بأننا نريد عرقلة طريقه إلى الشهرة ولا نريد له الخير ونتمنى أن تكبله الوظيفة حتى لا يزاحمنا في الواقع السينمائي، خصوصا أنه أكثرنا موهبة واطلاعا..

سكتنا كلنا وتركناه يتخذ قراره ويسب الشركة ومسئوليها الذين عرقلوا قرار تسوية معاشه تحت وهم أن يراجع نفسه حتى أرهقهم فأذعنوا.. وأيامها لم يكن قانون الخصخصة قد ظهر بعد، فحصل على أقل مكافأة ومعاش ضئيل لا يتجاوز الـ ٤٠ جنيهًا..

ولم يكتف زين بذلك.. بل أحرق مراكبه كلها كطارق بن زياد وقرر بيع شقة الوايلي التي كان يمتلكها ووضع النقود كلها في البنك، وظل يستأجر في كل الأماكن بداية من الأحياء المتوسطة وانتهاء بالأزقة وأطراف المدن...

وبدأت الأيام تباعد بينه وبين طموحاته حتى أصبح يعيش على الكفاف وكتب يقول.. «الحق أقول لكم هذا حال لا ينفع معه الغيظ.. لأنني غامرت بوظيفتي وأمني من أجل احتراف الكتابة (كما هو معلوم لحضراتكم هو أمر نادر الحدوث في بلدان عالمنا العاشر أعني الثالث سابقًا) فإذا بي أجد نفسي في نهاية المطاف لا أستطيع نشر سطوري حتى كقارئ».

له وقائع طريفة في كل الأماكن التي استأجرها أو سكن بها ليته يكتبها يومًا في كتاب كما حكاها لي أو سمعتها منه.. أذكر مرة أنه أخبرني بأن سمسارًا في مكان من الأماكن العشوائية المحيطة بحلوان.. كان يعرفه لكثرة تردده عليه طلبًا للسكن.. ولكثرة تغييره الأماكن غير الآدمية التي لا يراها زين ليلًا عندما يستأجر المكان ويفاجأ في الصباح بكم الحشرات التي تهاجمه من المنور، أو باستحالة دخوله الحمام المشترك، أو بالجيران المزعجين بأصواتهم وتسجيلاتهم، أو باقتحامهم غرفته في غير وجوده وتقليبهم في حوائجه..

يبدو أن السمسار زهق أو صعب عليه حال زين.. فنصحه بدلًا من البحث كل فترة عن مكان للمعيشة لا يستقر فيه طويلًا، أن يبحث عن زوجة تكون لديها شقة ليسكن معها ويرتاح.. عندما قال له زين مداعبًا.. «ياريت».. أظهر السمسار مخبوءه وقال إنه يعرف سيدة جميلة أربعينية كانت لها تجربة زواج وحيدة لم تسفر عن أطفال.. وهي تعاني من الوحدة وممكن أن توافق على الزواج من زين... وطلب من زين أن يمهله يومين لمعرفة رأيها.. بعد يومين ذهب زين إلى السمسار الذي بشره بأن السيدة وافقت وطلبت أن يزورها في المساء بصحبة السمسار.. وقد كان...

بعد المغربية مباشرة اصطحبه السمسار إليها.. البيت قديم متهالك من ثلاثة أدوار والدرج مكسور وضيق.. عندما ظهر الاستياء على وجه زين.. زغده السمسار في يده متباسطًا وقال: «ما تقلقش شقتها مطرحين وعفشة ميه وبعدين هي كمان تملك ربع البيت ده»... كان الدور عبارة عن شقتين ومساحة كل شقة لا تتعدى الـ ٤٠ مترا والسيدة المصون شقتها بالدور الثالث.. لا يدري زين كم العرس والقطط التي اصطدمت بقدمه عند الصعود، ولم تجبره على التراجع، فهو معتاد عليها، ولا كم القاذورات التي وطأتها قدماه، والروائح التي هاجمت أنفه..

كان باب شقتها مفتوحًا.. وهي متربعة على كنبة في الصالة.. زعق السمسار «دستور».. أتى صوتها من الداخل.. خش ياعم صابر.. جذبه عم صابر من يده للداخل.. كانت الصالة معتمة تمامًا إلا من ضوء خفيف من شاشة التليفزيون الذي تتابعه السيدة باهتمام وهي جالسة تشاهد فيلمها المفضل.. «اقعدوا».. جاءهما صوتها خشنا.. فجلسا صامتين.. أدارت رأسها إليهما وقالت: «لامؤاخذة يا أستاذ أصل الكهرباء مقطوعة!».. نظر زين إلى تلك الكومة التي توجه له الكلام وهو غير متأكد من هيئتها وشكلها في ظل الضوء الباهت المنبعث من التليفزيون.. تجرأ زين وقال لها.. «الكهرباء مقطوعة

إزاي والتليفزيون شغال يا هانم؟!»، انتفضت تلك الكومة السوداء من فوق الكنبة وصرخت فيه: «انزل يا.. لما أقولك الكهرباء مقطوعة.. تبقى مقطوعة.. بلاوي وبتتحدف علينا!»..

هذه واحدة من التجارب المريرة التي مرت على زين في أثناء احترافه الكتابة.. وهناك غيرها كثير لكني أحيانًا كنت أعتقد أنه يستلذ بهذه العراقيل التي تواجهه ولو لم تكن موجودة لاخترعها...

أذكر أننا كنا في ضيافة صديق مخرج في عيد من الأعياد الإسلامية، وكان من عادته استضافتنا ثاني يوم عيد الفطر أو ثاني يوم عيد الأضحى لكي نتناقش في أمور ثقافية، ثم نأكل وجبة من السمك والأرز.. كان صديقنا هذا لديه غرفة كبيرة في حوش بيت قديم للجلوس، والغرفة بها مكتبة ضخمة مليئة بالكتب السينمائية والثقافية المهمة.. وكان هذا المكان جميلا وحميما وأعتقد أنه لا يوجد مثقف أو سينمائي من جيلنا في تلك الفترة لم يزر هذا المكان أو يبيت به يوما أو يومين أو يقيم فيه لأشهر أو سنوات.. المكان خن من الأخنان المدهشة.. فهو مهدم الأركان ومنزوع البلاطات في أجزاء، والأتربة والغبار سمة أساسية من سماته.. لكننا كنا جميعًا نحبه ونحن إليه ونفضله عن الأماكن الفخمة، حتى صاحب المكان نفسه الذي رفض الإقامة مع أهله في مسكنهم القريب.. مفضلًا هذا الخن.. وكان أغلبنا حريصا على تلبية دعوة الغداء هذه لكي نتلاقى ونطمئن على أحوال بعضنا البعض.

كان زين أيامها في ضيافة المخرج.. وكان المخرج يشكو من أنه لا يشاركه الطعام أو حتى المسامرات.. في اليوم المعهود.. ذهبنا إلى المكان بالتتابع وكان زين موجودًا يشاركنا الحوارات والمناقشات، بينما المخرج وبعض الأصدقاء ينظفون السمك وينقون الأرز وكل منهم في عمل.. قبيل تجهيز الطعام بدقائق استأذن زين في الخروج لشراء سجائر.. انتهى التجهيز

ولم يحضر زين.. أكلنا وشاهدنا فيلما أو اثنين عبر جهاز الفيديو إلى أن حضر زين في المساء.. وبيده لفة صغيرة.. أشار له صديقنا المخرج إلى نصيبه من السمك والرز.. لكنه رفض بإباء وشمم وأخرج رغيفًا وقطعة جبن صغيرة وقرص طعمية ظل يأكلها باستمتاع، وكأنه يقول لنا غوروا مع أكلكم الطبقي.. مع أن السمك الذي كنا نأكله من سمك الجمعية الرخيص الذي في عرف حتى متوسطي الدخل طعام فقير..

هذا هو حال زين.. يستمتع بوضعنا في خانة الأعداء.. أو يسميهم في كتابه «أعدقاء».. مستخدما لذته في اللعب والتلاعب بالكلمات.. كتابه الذي أرى رغم كل شيء أنه سيرة ذاتية بديعة لولا تحذلقه اللغوي وتلاعبه اللفظي.. وهو كتاب طبعه ووزعه بنفسه وأسماه «قبل اختفاء (ز)».. وقسمه إلى فَسَاكيل يعني فُسْكُول أول وثان وهكذا..

والفُسْكُول هو الفرس الخائب الذي يجيء آخر الحلبة حسبما جاء في المعجم الوجيز.. كما ذكر زين في مقدمة كتابه المليء بانتقاد الذات في شجاعة ونبل.. خذ مثلًا قوله الذي كرره أكثر من مرة داخل الكتاب «.. ما دامت شهيتي للحماقة لم ينل منها الكبر!... كنت آنذاك شابًا مفعمًا بحماسات نضيرة غدت خيبات مريرة بعد ذلك.. وهكذا دواليك!»...

زين ما زال يأتي كل فترة إلى منطقة وسط البلد كالطيف، يقابل صديقًا أو زميلًا في أماكن بعيدة عن تجمعات المثقفين.. أخبرني آخر صديق التقى زين، أنه ترك الغرفة التي استأجرها أخيرًا بعد شهر واحد من إقامته فيها.. لأن المالك بدلا من أن يكتب على إيصال الإيجار مائة وخمسون جنيهًا.. كتب العبارة في الخانة هكذا «ماءة» بهمزة على السطر.. وهنا لم يجد زين مفرًا من ترك هذا المكان لمالكه يرتع في جهله!

السينمائي





أصبح الآن كاتبا سينمائيا وعضوا بنقابة السينمائيين ومنتجا لا بأس به للمسلسلات التليفزيونية، ومن أصحاب السيارات، وتتشعلق بيده البنات... وكل أحلامه التي كان يطلقها علينا كرشاش المياه والتي كانت تجعلنا لا نتوقف عن الضحك عليه والسخرية منه... كل هذه الأحلام تحققت... وشوارع وسط البلد التي كان يتسكع بها ليلًا ونهارًا في محاولاته المستمرة لصيد ممثل شاب أو مطرب جديد ينوي عمل «كليب» أو مهووس بالسينما يرغب في إنتاج فيلم.. هذه الشوارع الحميمة التي لها ذكريات مريرة في نافوخ «يسري» هجرها تماما.. وأصبح لا يظهر إلا لماما داخل سيارته الحديثة التي تعبر هذه الشوارع بسرعة قياسية، وهو خلف نظارته السوداء التي من المؤكد كانت تبحث عنا في وجوه العابرين...

هو فلاح قراري من الريف المتاخم للقاهرة.. بدأ صعود السلم من عتبته الأولى وهو في أوائل العشرينيات كمشهلاتي بمكتب «تاكفور أنطونيان» المنتج السينمائي الكبير... وتعلم كثيرا من هذا المكتب.. وهو على كرسيه الخشبي بجوار عامل البوفيه.. يسمع حكايات المنتجين الصغار وموزعي الفيديو الراغبين في مقابلة «تاكفور».. والكومبارس وممثلي الأدوار الثانوية الحالمين بأعمال في فيلم من إنتاج العملاق تاكفور... منتج فيلم «خلي بالك من زوزو» الذي سجل «ريكورد» للسينما المصرية بصموده ٤٣ أسبوعًا متتاليًا، وحقق أرباحًا خيالية لتاكفور... هذا بخلاف سلسلة أفلامه الأخرى الموجودة بتاريخ السينما.

وكان تاكفور قد درس طب الأسنان وتخرج بامتياز، وبدا أنه سيتبع خطى والده أشهر طبيب أسنان بالمحلة الكبرى... لكن عيبا خلقيا في يده جعله يصرف النظر عن ممارسة طب الأسنان ويعمل بالسينما التي كانت حلمه الأثير آنذاك.. نجح وفشل تاكفور كثيرا، لكن فيلم «خلي بالك من زوزو» وضعه في بؤرة الضوء وأكسبه أموالا خرافية. تعامل تاكفور مع هذه الأموال بطيبة تصل إلى حد السذاجة... وصرف ببذخ على احتياجاته الإنسانية..

وفشل له تجاريا أكثر من فيلم بعدها، حتى أوشك على الإفلاس إلا من ٣٠ ألف جنيه تحفظ عليها اتقاءً لظروف مرضية، ولخرجته ولمصروفاته حتى نهاية حياته، ودفتر شيكات يغري به الممولين الذين لم يعلموا بعد بإفلاسه حتى يشاركوه إنتاج أفلام أخرى...

كان هذا هو الوقت الذي التحق به يسري بمكتب تاكفور ودخل مكتبه المكون من ٥ غرف، غرفة لتاكفور مرصعة بأفيشات الأفلام وشهادات التقدير وكئوس التفوق.. غرفة لنوال مديرة المكتب.. وغرفة استقبال وغرفتان مغلقتان يستخدمهما تاكفور مخزنا لأصول الأفلام وأشرطة الفيديو وأصول الإسكربتات المختومة بأختام الرقابة... وعين يسري مساعدا لمدير الإنتاج بهجت، وهو شخص ضخم الجثة لا يفهم في السينما كثيرا رغم أنه عمل في مئات الأفلام صبيا ومساعدًا ثالثا ثم ثانيا ثم أول... وكانت كبرى ميزاته أنه قادر على تقليص ميزانية الفيلم إلى أقل حد ممكن...

أما مديرة المكتب نوال فحدوتة أخرى... (يقال إنها حاصلة على دبلوم تجارة، ويقال أيضا إنها لم تحصل عليها، بينما تدعي هي أنها حاصلة على ليسانس حقوق وتعد لماجستير في القانون)...

هي فتاة ناشفة جدا.. ليست لها معالم أنثوية واضحة، ولها وجه إذا قلبته تجمد كل من بالمكتب خوفا ورعبا... والغريب أن تاكفور المنتج العظيم وصاحب المكتب الذي يشغّلها كان يخاف أيضا منها.. وهي شخصية

مسيطرة فعلا وتشخط في الجميع وأولهم تاكفور... ولا يرتاح أحد في المكتب إلا في فترات غيابها بالجامعة كما تدعي لمراجعة الماجستير.. وتعود دائمًا منهكة.. وموعد عودتها معروف يترقبه بقلق الجميع، وينصتون لصوت صعود الأسانسير الحديدي الضخم ويشيرون بعضهم إلى بعض بإشارات حتى لا ترتفع أصواتهم وتسمعهم نوال، التي تدخل إلى مكتبها وبيدها مجلدات كتب ضخمة، لم يجرؤ أحد على فتحها ـ في غيابها ـ والتأكد من أنها كتب قانون.. تجلس على كرسيها والكل يهرع للاطمئنان على دراستها فتجيبهم بقرف: «ماجستير إيه وزفت إيه... أنا إيه اللي ورطني فيه».

ويقاطعها صوت متزلف: «عقبال الدكتوراه يا نوال»..

وآخر يعقب: «هانت يا أستاذة وقريب تبقى المستشارة القانونية بتاعة الشركة».

تهب فيه نوال وهي تقول باستهزاء: «الشركة دي..؟! هي الشركة دي محتاجه لمستشار قانوني؟ دي عايزه محامي من تحت الربع!»..

ويسكت الجميع على مضض ولا يجرؤ أحد على أن يقول لها: «عيب يا نوال! ليسانس حقوق إيه وماجستير إيه وبتكتبي ورقة السلفة بالصاد بدل السين!»..

تاكفور أيضا كان يقف كالمسكين أمامها، كالعسكري المجند حديثا أمام الضابط.. وكذلك بهجت، فعلى الرغم من أنه هو الذي أتى بها إلى هذا المكتب بعد أن قرف عيشتها زوج أمها، وعلى الرغم من أنه كان يعرف عائلتها بالكامل فردا فردا.. فإنه لم يكن يقدر أن ينبس بحرف وهي تحكي لتاكفور ولجميع الموجودين: «رحت مع مامي إمبارح العزبة ومسخرنا الجنايني اللي قطع شجر البرتقال!»..

كان تاكفور ينسحب من أمامها وبجواره بهجت يهمس في أذنه: «أنا عارف أمها كويس بنت الوسخة!.. بس مش قادر أتكلم!!»...

للحقيقة حاول بهجت قمعها قبل أن يستفحل أمرها، وعايرها بأنه هو «اللي جابها» المكتب وهي «عامله زي» المثل الفلاحي «تزرعه يقلعك!»... بيتت له نوال مصيبة.. وفي الصباح دخلت المكتب متأخرة ورقعت بالصوت أمام درج مكتبها المكسور، وأشارت إلى أوراقها المتناثرة وادعت أن ١٥٠٠ جنيه اتسرقت من درجها ولا بد من استدعاء البوليس! وكان تاكفور يموت رعبا من تدخل البوليس فهذا سيعطي صورة زي الزفت لشركته، وكذلك بهجت عنده فوبيا الشرطة لأن سجل سوابقه مش ولا بد.. توسل إليها تاكفور أن تكف وسيعوضها عن النقود التي سرقت.. لكنها انقلبت نمرة هائجة ولم تهمد إلا عندما قبل بهجت رأسها واستعطفها بحياة «مامتها».. ساعتها فقط هدأت ولم تقبل أن يتجبى أحد عليها، حتى تاكفور صاحب المال وقالت بإباء: «خلاص أنا استعوضت ربنا فيهم وحكلم مامي تبعتلي شيك حالًا!»..

هي بالضبط كما صوروها في الآداب الكلاسيكية العالمية.. الخادم الذي خطوة بخطوة يتسيد البيت.

حيرني تاكفور جدا من استسلامه لهذه الطاغية لدرجة أن صديقًا لنا قدم له سيناريو من تأليفه في وقت لم تكن فيه نوال بالمكتب. أعجب تاكفور بالسيناريو وفكرته، وهمس لصديقي: «أنا هاخد منك السيناريو بس علشان خاطري ماتقلش لنوال!»...

صديقنا يسري الذي كان غضا بريئًا أيامها كانت نوال هي دراكولا حياته. فإذا كانت نوال تفعل كل هذه الأفاعيل ببهجت مديره وبتاكفور صاحب الشركة، فما بالك بصبي إنتاج صغير؟!.. كانت تسخره لمشاويرها الخاصة، وتعد عليه دقائق التأخير وتخصم من راتبه الكثير، وتوقفه أياما عن العمل لمجرد أنها رأته مبتسما أو مبتهجًا.. حتى الآن بعد أن فتح الله على يسري وأصبحت اليقظة

بالنسبة له حالة من حالات الجنة والرفاهية... فإن نومه كان كوابيس متتالية بطلتها نوال... مرة يراها عشماوي الذي سيأخذ روحه بعد موافقة المفتي، ومرة يفاجأ بها في الحلم زوجته التي تسمم طعامه تحت بصره...

تدهورت صحة تاكفور وتوقف عن الإنتاج؛ ومن هنا بدأ يسري أولى مشروعاته باصطياد رءوس الأموال الصغيرة وإقناعها بأن ربح السينما أكثر من ربح بيع البودرة، وأنه يملك علاقات متميزة مع موزعين بالخارج يستطيع أن يحصل منهم على سلف توزيع كبيرة بشرط البدء في تصوير الفيلم... وبعلاقاته الحميمة ـ كما يدعي ـ مع نجوم السينما فإن له قدرة كبيرة على إقناعهم بالتنازل عن جزء من أجورهم في سبيل إنتاج الفيلم..

للحقيقة والتاريخ لم ينجح يسري في جذب أي ممول لمشروعاته، ومضى يتكسب من اصطياد أولاد الناس الحالمين بالتمثيل.. كان يقنعهم بسهولة بقدرته على منحهم أدوارًا مهمة في الأفلام التي على وشك التصوير.. وينجح أحيانا في الدفع بهم كمجاميع أو كُمبارسات صامتة..أو يعرض خدماته واقتراحاته على صغرى شركات الإنتاج.. ومن هنا التقيته في مكتب شركة إنتاج لمنتجة صديقة كان يسري قد أقنعها بإنتاج مسرحيات كوميدية وتصويرها وتسويقها دون عرضها على الجمهور العام كالسائد في تلك الفترة التي سميت بسينما ومسرحيات المقاولات.. وقد أخفق كثيرا في جلب ممولين يساهمون مع صديقتنا في إنتاج المسرحيات، وأخفق كذلك في جعل الممثلين يتنازلون عن نصف أجورهم كما وعد.. وكان على وشك الطرد من المكتب الذي اتخذه مسكنا بموافقة المنتجة التي كانت تعطف عليه هي وزوجها.

وكان قد ضربه السلك تماما في تلك الفترة، وانفض من حوله طالبو الشهرة ولم ينقذه إلا ما تجود به عليه السيدة من شهرية، وبعض اليوميات التي كان يعمل فيها «ريجيسير أو كلاكيت أو مساعد رابع إنتاج» في بعض أفلام

المقاولات.. لكنه كان طيب المعشر جدّا وخبيثا الخبث الفلاحي الظريف.. وباسما وحالما على الدوام، ولا يتملكه اليأس أبدًا..

وبدأب وبزن غير طبيعي في أذن صديقتنا المنتجة استطاع إقناعها بأن موجة أفلام المقاولات ستنتهي، وأنها من الأفضل أن تبدأ إنتاجها السينمائي بفيلم كبير وأبطال من نجوم الصف الأول بحيث تغري الموزعين بدفع سلف إنتاج ضخمة تعين على إنتاج الفيلم.. وفعلا اقتنعت صديقتنا بفكرته، واشترت حق إنتاج رواية «امرأة عند نقطة الصفر» لنوال السعداوي.. وطلبت مني كتابة سيناريو لها توفيرًا للنفقات.. وكانت هذه أول محاولة لي في كتابة السيناريو.. وتوقفت أكثر من مرة لأن العمل كبير مما جعلها تستعين أيضا بصديقة شاعرة لتكتب معي.. وكانت المنتجة أيضا تدلي بدلوها معنا كل يوم، وكذلك زوجها وهو مثقف كبير، ولا تقتنع المنتجة بمشهد إلا بعد أخذ رأيه فيه.. وكان زوج الشاعرة وهو كاتب أيضا كثيرا ما يجلس منتظرًا زوجته فترات طويلة مما أغرى المنتجة بإشراكه في الكتابة أيضا...

المكتب كان عبارة عن غرفتين وصالة.. الجمع الغفير الذي يكتب السيناريو في غرفة، ويسري في الغرفة الأخرى لا يترك سماعة التليفون من يده، مدعيا أنه يكلم الممثلين والموزعين وبتوع الصحافة.. بينما هو في واقع الأمر يكلم «المزز» ويوهمهمن بأدوار البطولة.. وعندما تنتبه له المنتجة وتشخط فيه يتقرب منا بصينية عليها أكواب الكركديه أو يقطع لنا اتنين كنتالوب وهو يقول بخبث: «عشان تطري على قلبكم!»..

أربعة أشهر مرت بخناقات متوالية وصخب غير عادي وجدال عقيم.. ولم نستطع كلنا الاتفاق على صلاحية خمسة مشاهد.. ويبدو أن يسري ضج منا واستبيع.. أو خلعت منه «المزز» اللواتي وعدهن بفرصة التمثيل.. دخل علينا يسري فجأة وأشار إلينا باستهزاء وقال بقرف: «خمسة يسدوا عين الشمس مش عارفين يكتبوا فيلم؟!»..

شخطت فيه المنتجة: «اخرج ياللا.. إحنا عايزين تركيز!».. شخر يسري معرضا نفسه للفصل أو على أسوإ تقدير لبطش المنتجة وهي ست قادرة.. ثم قال: «تركيز!.. هو انتوا بتعملوا كوفاديس؟!... دانا ممكن اكتب كل ٢٤ساعة فيلم وأبيعه ويتصور بعد شهر!»..

كانت نكتة جامدة أضحكتنا جميعا وجعلتنا نترك الورق والمناقشات وندور عليه بالسخريات والتريقات والتهزيء.. تمادى يسري برد السخرية بإهانة أشد: «عاملين فيها متعلمين وبتفكوا الخط وكل يوم خناقات وضرب نار زي اللي بيتخانقوا على حتة أرض!.. طب يمين تلاته أنا أقدر أكتب السيناريو ده في ست ساعات!»..

هنا استفز جدا صديقنا زوج المنتجة وأمسك به من قفاه وأجلسه بيننا ووضع في حجره الورق وقال له «اكتب»...

لكن المنتجة اعترضت وقالت: «طالما جاءت له أعراض الكتابة يكتب أي فيلم تاني».. نهض يسري متخلصا من الورق وابتسم لها وقال: «عفارم يا ستي.. ممكن بقه حد ينزل معايا لمحل الفيديو يأجرلي كام فيلم أجنبي؟»..

نزلت معه أنا وزوج المنتجة، واتجهنا مباشرة لمحل الفيديو القريب... سبقنا وقال للبائع مباشرة: «عايز أحدث أفلام أمريكاني بس تبقى الصورة زي القزاز..». وناوله الرجل فيلما.. طلب يسري أن يجربه له في جهاز الفيديو.. شغل البائع الجهاز.. أثنى يسري على الصورة وقال: «فعلا أصلية زي القزاز».. لكن الفيلم لم يعجبه.. قال له البائع: «ده فيلم رومانسي جامد»... أشاح يسري بيده معترضا وقال: «رومانسي إيه يا حاج!.. أنا عايز فيلم أول ما أشغله ألاقى بونيه في وشي».. وهنا فهم البائع المطلوب..

استأجر يسري ثلاثة أفلام من إنتاج السينما التجارية الأمريكية الحديثة.. ولم يدفع ثمن إيجار الأفلام بالطبع وتكفل صديقنا بدفع القيمة.. أغلق يسري غرفة المكتب المقابل عليه وعلى جهاز الفيديو وحفنة من الأوراق..

وكلما مرت ساعة كان يخرج إلينا مبتسمًا طالبا أوراقا جديدة، وأحيانا أقلاما ومشروبات..

غادرنا المكتب كعادتنا بعد منتصف الليل إثر نقاش محتدم فيما بيننا.. هل نكتب سيناريو الفيلم على طريقة الملاحم الكبرى، وهو رأي صاحبة الشركة التي كانت متيمة بفيلم الوصايا العشر، من دون أن تمتلك بالطبع إمكانات تؤهلها لإنتاج أفلام تتكلف عشر هذه التكاليف.. أو نكتبه في صورة فيلم غنائي، كما كانت صديقتنا الشاعرة تحلم ويؤيدها في ذلك زوجها الكاتب، أو بالطريقة التقليدية كما كنا أنا وزوج المنتجة نرغب.

بات يسري في المكتب... وفي مساء اليوم التالي استقبلنا بابتسامة أعرض من ميدان التحرير ولوح في وجهنا برزم الأوراق التي كتب فيها السيناريو.. جلسنا كلنا حوله مملوءين بالتحفز وممتلئين بالسخرية منه.. التي لم تتوقف طيلة قراءته للسيناريو.. والغريب أنه لم يلق بالا لنا وكأننا هلاميات..

كان الفيلم الذي فبركه عبارة عن صراعات بين بعض مهربي الهيروين، والرجل الكبير في الفيلم هو مدير أحد البنوك الذي يستغل خزائن البنك في الاحتفاظ بالهيروين قبل تسويقه.. والذي لن نعرف أنه زعيم العصابة إلا قبل انتهاء الفيلم بلحظات كعادة تلك الأفلام....

هذا المسكين الذي تنفس الصعداء بعد أن قرأ سيناريو فيلمه بالكامل وواجهنا كأنه فتح عكا.. وصبر أمام سيل سخافتنا طيلة قراءته.. لم يتحمل بعدها هوسنا الجماعي بالتحقير به والاستخفاف من كتابته.. واتهامنا له بالسرقة والجهل والحماقة.. احمر وجهه الفلاحي الأبيض من الغضب وأمسك نفسه تماما عن شتمنا وسبنا.. وكانت عيناه تطفحان بالدمع وهو يجذب من بين أيدينا أوراقه.. ثم يدخل إلى غرفة المكتب كالزوجة الغاضبة.. يلملم هدومه ومتعلقاته في حقيبة سفره الكبيرة.. ويقسم لنا بأنه لن يعود إلى هذا المكتب إلا بعد أن يبيع هذا السيناريو ويأتي بعقد البيع ليخزق به أعيننا...

يغيب يسري أياما تعد على أصابع اليد.. ثم يعود وبيده عقد من شركة إنتاج غير معروفة.. يلوح به أمام أعيننا.. ثم عندما يجدنا منشغلين عنه بالكتابة.. يقول في تحد: «طبعا مش عايزين تبصوا عشان عمركم ما حتمضوا عقد زي ده... إنتوا كبيركم تبقوا زي النقاد دول اللي مالهمش لازمة وبيكتبوا كلمتين في الجرايد أحسن من الشحاتة!!»...

استفزنا هذا المعنى.. فشتمناه بقسوة.. وانبرت صاحبة المكتب توبخه بقولها: «خش ياد يا يسري كمل شغلك وسيبك من العقود المضروبة اللي بتجيبها لنا كل شوية دي زي ممثلينك الكسر...».

انتفخت عروقه كأنه اتهم في شرفه وقال: «شغل إيه يا أستاذة..! أنا خلاص بطلت... وعشان العيش والملح قلت لنفسي آجي وأوريكم العقد وأعزمكم على أي حاجه.. بس أنتوا ما يطمرش فيكم الخير.. أنا ماشي دلوقتي.. والفيلم حيتصور بعد شهر وحيتعرض الصيف ده وحاعزمكم عليه بس بالتليفون.. والمحنطين دول (أشار إلينا) اللي انتي جيباهم يكتبولك.. مش حيكتبولك حاجة غير عقد فسخ الشركة دي!!»...

غادرنا يسري.. وعاد بعد ست أشهر.. ليدعونا إلى مشاهدة فيلمه.. فيلمه هذا لم يصمد بقاعة العرض أكثر من أسبوع واحد.. لكنه دخل بفيلمه نقابة السينمائيين قسم السيناريو.. وكتب بهذه الطريقة.. أكثر من فيلم.. وفي السنوات الأخيرة كتب فيلما لزعيم الكوميديا.. ولم يكتف بهذه الانتصارات، بل أنتج أكثر من مسلسل لكبار النجوم.. ونحن لم نستطع أن نكمل الفيلم.. وشركة الإنتاج توقفت فعلا عن الإنتاج... كأنه كان يقرأ الغيب.. وعندما قابلني مصادفة في أحد مهرجانات القاهرة السينمائي.. وعبرني معتقدا أني لم أره.. جذبته من يده..فاحتضنني مبتسما.. أشرت إلى سيدة بآخر رواق الفندق وقلت له هامسا: «مش دي برضو نوال؟!».. مجرد ذكري الاسم كهربه تماما.. وانصرف سريعا ولم أره بعدها..

رجل الشجر





للرائع صلاح جاهين أغنية أو حلم جميل يتمنى فيه تماثيل رخام «ع الترعة» وأوبرا في كل قرية عربية... و«توفيق» حلم عمره أن يشجر أسطح مباني القاهرة بالكامل ويملك خططًا لذلك، ونماذج توضيحية وخرائط بيانية وسيديهات بالأبعاد المجسمة تم عملها من قبل فنانين جرافيك تبين الصورة الخضراء لأسطح القاهرة لو تم تصويرها من الجو.. هو حالة رائعة تتأرجح ما بين الحلم والواقع والخيال المحض يدعمها إصراره القوي الذي لا تحبطه حبال الفشل الممتدة في حياته بلا أمد. يحبه الجميع وقلما تجد أحدا يكرهه، لكنك أيضًا لن تجد أحدا يقبل على التعاون معه، فالخيال يطفح من أفكاره حتى يحيلها إلى نكات متواصلة...

ورغم ذلك ستجد أنه أول من نفذ اللقطات الضاحكة المسماة بالكاميرا الخفية بعد أن شاهدها في الخارج، وكلف مخرجين وفنانين بعملها، وصرف على إنتاجها.. وفي النهاية تم تسريبها إلى الشركات الأخرى التي كسبت منها كثيرًا... وأول من حصلت شركته للإنتاج الفني على توكيل بث الإعلانات على متن طائرات مصر للطيران ثم تنازل عنها بسهولة لشركة إنتاج أخطبوطية يملكها مخرج عالمي وشهير... وأول من أصدر مجلة تتناول أفلام ومسرحيات الفيديو في عز مجد هذه النوعية من الأفلام... وأصدر أول مجلة لرجال الأعمال بعد الخصخصة، وأول مجلة للأدوية والعقاقير والأجهزة

الطبية وأسماها «روشتة»... وطبعًا تحولت هذه الإصدارات لصالح آخرين بسهولة شديدة؛ فغرضه الأساسي من إصدارها الحصول على إعلانات... وعندما يفشل في تحقيق النسبة المقدرة نتيجة عدم تشغيل الأشخاص المؤهلين لجلب هذه الإعلانات... وعند أول تعثر له.. كان يتركها لمرءوسيه أو للمنافسين نظير أقل القليل.

صرف أغلب ما يملكه على هذه المشروعات ومشروعات أخرى أكثر خيالًا، لكنه مازال مرحًا مهندمًا ابن نكتة.. إذا ما أعجزته ظروف الحياة سافر إلى أخويه بأمريكا، وهما من أكبر الأطباء هناك يقيم معهما بالتتابع لأكثر من ستة شهور حتى ينجح في إقناعهما بإعادة تمويله، ثم يعود...

هو مظهرجي جدًّا.. وإذا ما تصادف وجود فتاة يرغب في لفت نظرها إليه، يخترع موضوعات عن مشروعاته.. وإذا ما لاحظ أن هذه القناة مقفولة بالنسبة للفتاة حول المؤشر إلى قناة القوة، ومضى يتحدث عن خناقاته التي استخدم فيها المدفع الرشاش والكلاشينكوف لإرهاب خصومه... ولو فطن إلى أنها تتمنى التمثيل تحدث عمَّن اكتشفهم من ممثلات شهيرات أو عارضات أزياء... ولا يبالي بنا.. ضحكنا أو ابتسمنا... غمزنا بعضنا لبعض أو علقنا بتعلقيات سخيفة... هو ماض إلى هدفه ولا مناص...

يحضر فعاليات المعارض التشكيلية الكبرى سواء في الأتيلييه أو الأوبرا أو مجمع الفنون... يراقب الداخلين من خلف نظارته السوداء بعيون صقر... وإذا ما لمح فتاة جميلة «كلاس» داخلة إلى المعرض بمفردها... دخل خلفها مظهرًا الاهتمام وهو يتفرج على كل لوحة بإمعان... وعندما يستشعر إعجابها بلوحة يسجل رقم اللوحة في بلوك نوت صغير بقلم ذهب... ويهنئ الفنان بشدة ويطلب منه شراء هذه اللوحة بالذات ويشكره الفنان ويشير إلى «الآرت ديللر» للمكان... يذهب إليها بثقة ويخرج محفظته أمام نظر الفتاة ويدفع

عربونًا تحت حساب شراء اللوحة... مائة أو مائتي جنيه ثم يعطي عنوانًا غير سليم بدعوى أنه نسي علبة كروته... يرحل بعد هذا الاستعراض الهائل ولا يسأل عن اللوحة بعد ذلك أو ما دفعه من عرابين... ولا حتى يهتم بأن يتقرب من هذه الفتاة بعد الاستعراض.

يتكلم عن السياسة الدولية بمنطق أنه يعرف الأمريكان أكثر منا؛ فكل السلطة الأمريكية وأعضاء الكونجرس أصدقاء له أو أعداء يكرههم لتعصبهم ضد العرب... ويتحدث عنهم كأنهم كانوا قاعدين معاه في «الفسحة»: «قعدنا مع جورج بوش.. ماقلش جديد»... أو: «اتكلمت مع باراك أوباما لقيته ما عندوش فكرة بمشكلة الشرق الأوسط خالص»...

وفي السياسة المحلية له باع أيضًا... رشح نفسه لعضوية مجلس الشعب عن دائرته، وبنى له أخوته مسجدا في الدائرة تدعيمًا له... وجاءنا إلى المقهى يطلب من الأصدقاء الشعراء كتابة أغاني شريطه الانتخابي... تهرب البعض وتعلل البعض الآخر بالانشغال... ووافق شاعر بشرط كتابة هذه الأغاني نظير مبلغ من المال... دفع توفيق النصف بوصفه عربونا، على أن يدفع النصف الآخر قريبًا... وهكذا فعل مع الملحن.. ودار على المغنين الأصدقاء حتى غنى أحدهم الشريط، وأنتج منه نسخًا كثيرة... لكن للأسف.. لا منشوراته التي تمتلئ بالأحلام، ولا التي تبشر بالعضو الحر، ولا المسجد الذي بني باسمه، ولا شرائطه، ساعدته في الحصول على نسبة معقولة من الأصوات... عاد يسب ويلعن جهل أبناء الدائرة... وعندما طالبه الشاعر ببقية الحساب... اتهمه بأنه السبب في فشل حملته الانتخابية!.. ولما أصر الشاعر على الحصول على حقه هدده بأنه سيذهب إلى السيارة ويرفع مقعدها الأمامي ويأتي بالمدفع الرشاش ويصفيه... ولما لم يجد أحدًا يثنيه عن الذهاب إلى السيارة... قال: «المسامح كريم!..»، وأعطى الشاعر بقية حسابه...

قابلته أخيرا وهو يريني غطاء شعر من القماش بشكل العلم المصري يلبس كالغطاء الذي كان يلبسه الفراعنة، وقال إنه سيعمم هذا الغطاء على جمهور الكرة في مصر لأنه أدق تعبير عن هويتنا... كان الغطاء بسيطًا جميلًا.. وإذا ما ارتداه الجمهور فعلا في أي لقاء كروى فسيصبح شكله مميزًا... قلت لتوفيق هذا الرأي، ففتح اللاب توب وأراني صورًا لنجيب محفوظ وعماد حمدي وجمال عبدالناصر وأنور السادات وهم لابسون هذا الغطاء بعد أن نفذ فكرته بالجرافيك...

سألته عن عدد المشروعات التي بداخل جهاز اللاب توب... قال مفتخرًا: «١٥٢ مشروعا».. وظل يعدد لي معظمها مثل: زراعة ضفاف النيل والترع والمصارف بأشجار خشبية ومثمرة، عمل ٥٠٠ قاعة سينما على ضفاف النيل وتسمى Nile cinema، مشروع إعادة إحياء الموالد السلفية، مشروع الهوية المصرية (٢٠ ألف منتج مصري)، الجبال الفندقية التي تتضمن تهجير عشرة ملايين مصري إلى سينا لتأسيس جبالها الفندقية...

سألته عن خططه لمواجهة الأزمة المالية العالمية... فشخر بصوت عال، وقال لي بثقة: «أنت بتصدق شغل الأمريكان الوسخ ده»... (وأخرج جواز سفره الأمريكي ورماه على المنضدة التي أمامنا)... هو أنا سبتهم من شوية... تعرف الباسبور ده اللي بيموتوا عليه رجال الأعمال؟!... وكل فنانة ولا رقاصة أول ما تحبل تطلع جري على أمريكا عشان المولود بسلامته يبقى أمريكاني... وأنا بأدي قسم الولاء كنت باسب ديك أمهم كلهم في سري... ومن غيظي خرجت الشتيمة غصب عني... ومن حسن حظي إن اللي كان بيحلفني من أصل عربي... بعد ما خلصت وبقيت مواطن... خدني على جنب وقالي: «عيب عليك يا توفيق مش قادر تصبر لما تبقى مواطن؟! أمال عايز تاخد الجنسية ليه»؟! قلت له عشان أبقى زي السوس أنخر فيهم من جوه! ضحك أوي المواطن الأمريكاني وطبطب عليَّ وقالي خد بالك من نفسك!»...

مشكلة توفيق الكبرى ليست فقط في أحلامه الخيالية التي يصعب على أمم تحقيقها فما بالك بفرد واحد... مشكلته الحقيقية في رأيي أنه أصبح يتصور الأوهام والأكاذيب حقائق... وأصبح لا ينتبه لما ورط نفسه فيه... تسأله عن مسئول مهم أو فنان كبير... فيجيبك بأنه كان يسهر معه أمس، أو زاره في البيت عشان يخلص مصلحة أول أمس... أو أنه في مشادة مع زوجته وذهب خصيصًا إلى توفيق ليحلها له... ومن حظوظه السيئة أنه على الأغلب يتكعبل في الممثل والسياسي الذي ادعى أنه يعرفه... ولا يتعرف عليه الشخص المقصود ويتجاهله... فيقول توفيق بصوت عال: «شوف ابن الكلب بعد ما خلص مصلحته ولا كأنه يعرفني!!»...

زادت هذه الحكاية عنده أخيرا وأصبح كالممثلين المحترفين... فمن المعروف أن هناك منطقة بالمخ للحقائق وأخرى للأكاذيب... والممثل المحترف يلقي بمواصفات وقدرات الشخصية التي يمثلها داخل منطقة الحقائق حتى يتقمص الدور جيدًا... توفيق أصبح كذلك يلقي بأكاذيب داخل منطقة الحقائق ثم يتعامل على أنها حقيقة وحدثت.. ولا تستطيع لحظتها أن تكذبه لأنه مقتنع فعليّا بأن ما قاله هو الحقيقة.


الرومانسي





تسافر بعثة خصيصًا إلى المركز لإحضار الأدوية التي كتبها طبيب الوحدة بالقرية من الصيدلية المركزية... وعندما تعود البعثة ببعض زجاجات «السفن أب» وينزلون بها من السيارة التي أقلتهم من المركز إلى حدود القرية... يكون هذا بمثابة إعلان بأن المريض في حالة احتضار... بمجرد أن يرى الأولاد زجاجات «السفن أب» يمشون جماعات تجاه بيت المريض... وحين تلمح النساء الزجاجات لا يكففن عن العويل والنواح...

كان هذا حال بعض قرى الصعيد في نهايات السبعينيات من القرن الماضي حيث نشأ وترعرع صديقنا الرومانسي... الذي وجد نفسه يجلس وحيدًا أمام النيل... لا يشرد ولا يتأمل... لكنه يتلو قصائده قصيدة تلو قصيدة... وكان شعره جميلًا صادقًا بكرًا لم يفسده بعد زيف المدينة... وحين حانت الفرصة جاء من أقصى الصعيد يسعى وراء شعره وقصائده... نظراته نافذة جدًا وحادة ولا يخلو وجهه من وسامة... خدوم ومتفان في خدماته لأقصى حد كطبيعة الصعيدى الجدع...

يحب النساء ويسعى خلفهن... لكن مقاييس الجمال عنده مختلفة ومحيرة جدًا... قد يهمس لك وأنت تجلس بجواره بأنه في انتظار امرأة في غاية الجمال بدأت حياتها راقصة باليه والآن تعمل راقصة في الفرقة القومية للفنون الشعبية... وتتخيل أنت بقدر ما يسعفك ذهنك من صور تخيلية لهذه المرأة الرشيقة... ثم تدخل السيدة المكان... أنت قطعًا لن تنتبه إليها ولن تتوقع أن

تكون هي السيدة المقصودة حتى لو كنت تضع حيزا كبيرًا لمبالغاته... لن تتخيل أبدًا أن تكون هذه السيدة البدينة التي تتوكأ على عصا والتي يمسك بجلبابها البلدي طفلان صغيران هي راقصة الباليه... وعندما تسخر منه لاحقًا سيؤكد لك أنها راقصة فنون شعبية انكسرت قدمها في أثناء أدائها لحركة راقصة عنيفة، وكان الكسر مضاعفًا مما أقعدها بالسرير أكثر من ثلاثة أشهر وهذا ما أدى إلى بدانتها... وسيقسم لك بأنك لو شاهدتها الآن لما صدقت نفسك، فهي تبدو حاليًا كالفراشة وصغرت أكثر من عشر سنوات...

يحب النساء البلدي لابسات «الملس» واللواتي يتزين بأصباغ رخيصة وبحلي مقلدة... يمشي وراءهن بالمشاوير... يعابثهن بأشعار وكلمات موزونة وتعليقات خفيفة الدم... ويعود ظافرًا بأرقام موبايلات ومواعيد محددة للاتصالات... الغريب أنه في حالة وجود فتاة أو سيدة جميلة وحسناء بمقاييسنا... ينقلب حاله ويبدو متوترًا جدًا... يتظاهر بتجاهلها... وإذا ما وجهت إليه الحديث يتشاغل عنها بالنظر في شاشة الموبايل، ويرد عليها من تحت الضرس. وبين الحين والآخر يرمي إليها بنظرات حادة ومتشككة... وإذا ما طالت الجلسة يقاطعها بسخافة... وقد يشتبك معها في نقاش حاد جدًا لو ردت ردًا لم يعجبه... وإذا وجدنا ما زلنا مهتمين بها، أهملنا وغادرنا دون سلام... وبمجرد انصراف الفتاة تنشق الأرض ونجده بيننا كأنه يترقب خروجها... ثم يجلس بيننا متعمدًا عدم الحديث عنها كأنها حشرة مؤذية ضايقتنا وانصرفت... وعندما تنفض الجلسة ولا يبقى غيركما يهمس في أذنك باحتجاج: «إيه القرف اللي كنتم مقعدينه معاكم ده؟!»...

مشاء كبير في منطقة وسط البلد، وستصادفه كثيرًا هناك، لكن منطقته المفضلة الأزبكية بباراتها ومقاهيها وحدائقها الجديدة الممتدة بعشوائية... أيضًا يفضل حي الأزهر والحسين ويتابع أنشطة وكالة الغوري ومسارح العتبة... له مقاه معينة يجلس فيها بالساعات وأمامه دفتره وقلمه... وبعد أن ينتهي من كتابة موضوعاته وتحقيقاته الصحفية... ينشغل بوحيه ويكتب بضعة

أبيات في قصائده الجديدة... ثم ينحي كل هذا الورق ويكتب قصائد ما بين العامية والفصحى يغازل بها النسوة... وهي قصائد تتصف بالركاكة تبعًا لذوق جمهورها... في الحقيقة هي ليست قصائد، إنما قصيدة وحيدة طويلة تبدأ بمدح عينيها ووجهها وشفتيها ومشيها وتبخترها، وتنتهي بالاستسلام لحبها وطلب موعد للوصال... الغريب أن هذه القصيدة تفعل فعل السحر في النساء وتوقع بهن في حباله...

وبمرور الأيام وجد أن النساء يكتفين بقراءة الأبيات الأولى ثم يبتسمن له... فقرر حذف الباقي... ومن أطرف ما حدث له بهذه المناسبة... أنه أهدى القصيدة المختصرة إلى فتاة أعجبته... فقرأتها وابتسمت وقالت له: «أين بقية الأبيات التي سبق أن أهديتها إلى أمي؟!»...

اتقاءً من المخاطر، كان يذيل القصيدة باسم وهمي لكنه يدون رقم هاتفه الحقيقي لكي تتصل به الفتاة... ويختار دائمًا السيدات والفتيات الجالسات وحيدات أو حتى في انتظار الحبيب حيث يتحرك بسرعة لاصطيادهن قبل وصول الحبيب... في إحدى المرات أسقط القصيدة على المنضدة التي أمام سيدة كان قد شاغلها أولًا بعينه فردت بابتسامة... أخذت السيدة الورقة المطوية وفتحتها لتطالعها... طب صديقها فجأة فخطف منها الورقة وجلس يقرؤها... بعد ما انتهى من القراءة سأل صديقته عمن أعطاها الورقة فأشارت تجاه شاعرنا الذي كان دمه قد جف تمامًا وهو يتوقع مصيبة... أشار إليه صديق السيدة بأن يأتي إلى المنضدة التي يجلسان عليها... ذهب إليه وقدماه ترتجفان وذهنه يجتهد لإيجاد مبرر معقول لإقناع الرجل بأن نيته سليمة... ناوله الرجل الورقة وهو يشير إلى صديقته ضاحكًا: علي الطلاق دي مبتعرف تقرأ!!»...

بدخول عصر الإنترنت وجدها صاحبنا فرصة للهزل والمزاح... أنشأ أكثر من موقع باسم فتيات يضع لهن صورا جميلة ومثيرة، ثم يشاغل أصدقاءه الأدباء على أنها معجبة متيمة بإبداع الصديق... وعندما يسقط المبدع في حباله

تمامًا يطلب منا الحضور في المكان الذي حدده له لنراه بالعلامات التي طلب منه وضعها على ملابسه كوردة في جيب البدلة العلوي أو منديل أحمر... وإذا لم يأت المبدع لأي سبب نظر إلينا وسبنا وهو يقول: «حد منكم بلغه يا ولاد الكلب بس مسيري أعملها فيكم!»...

يبقى أنه شاعر حقيقي ومتميز له ديوان أو اثنان ودواوين أخرى تحت الطبع لكنه يعشق حياة التصعلك... يجوب منطقة وسط البلد طولًا وعرضًا وأحيانا تجده في كل أماكنها وكأن منه عدة نسخ متطابقة تسعى في الشوارع وراء فرائسه.



عاشق الحياة





لم أعرف محبّا للحياة ولا عاشقًا للناس بقدره هو... دائما ضاحك، مبتسم، صانع للبهجة رغم كل الفقد الذي ناله... بداية بأمه اليونانية الجميلة وتلاها بأخته التي هاجرت ومعها ابنتها الصغيرة التي كانت ملاكه الحارس، ثم عمله الذي أجبر على التخلي عنه عندما تحللت الشركة الصغيرة التي كان يعمل بها أمام سطوة الشركات عابرة القارات، وأخيرًا أعضاء جسمه التي بدأ يفقدها أيضًا... كان متمسكا بالتفاؤل الجميل لكن التفاؤل أيضًا خذله...

يعرف من أنت بمجرد سماعه صوت خبطتك على بابه، وتصلك محبته قبله، تدخلك إلى غرفته الأثيرة وتريك مكتبته المدهشة، وتأخذ بيدك لكل أركان الغرفة وحشواتها المفضلة له ولأصدقائه.

إنه نديم ميشيل... العضو رقم واحد في كل الجمعيات السينمائية بدءًا من جمعية نقاد السينما، حتى سائر الجمعيات التي تنشط في عرض الأفلام... كان موسوعة متنقلة للسينما، وهذا جانب واحد من جوانب ثقافته...

ولو أنت مهتم بالسينما، فمن الضروري أن ترتاد المركز الكاثوليكي للسينما لاستيفاء معلوماتك؛ فهذا المركز يمثل القاعدة الكبرى لمعلومات السينما في مصر... والذي جعل من هذا المكان مركزًا توثيقيّا عالميّا هو الأب يوسف مظلوم والناقد الراحل والمؤرخ السينمائي فريد المزاوي ثم نديم ميشيل...

نديم أيضا موسوعة في القاهرة ككل، وفي منطقة وسط البلد بالذات،

مبانيها... محالها... شوارعها، وتاريخ كل منها بالتفصيل بما في ذلك ما كان قائمًا واندثر الآن... وبإمكانه أيضًا تذكر كل دور العرض السينمائي البائدة في القاهرة وسطها وأطرافها...

هو قبطي مصري حقيقي... والده مصري وأمه يونانية، لكنه أحب مصر حتى النخاع... رغم أن معظم عائلته بالخارج... وكأغلب عائلات الأقباط الذين هاجروا إلى كندا وأستراليا وأمريكا... غالبًا ما يسقط فرد من هذه العائلة.... لا يستطيع الهجرة مع عائلته... لبيروقراطية الموظفين في إدارة الهجرة هناك... أو لتقاعس هذا الفرد عن الهجرة بحجج متوالية. أو لظروف مرضية يراها القائمون هناك بأنها معوقة عن السفر... نديم كان أحد ضحايا الروتين العفن.

ظروف الذي لن يهاجر ستزداد سوءًا بمر الأيام... سيظل دائمًا وحيدًا في شقته الكبيرة... وسط غرفها الكثيرة... عالية الأسقف والمتدلي منها نجف كريستال أصلي... ووسط الجدران المزينة بلوحات قيمة... وسط التحف الأصلية المنتقاة بعناية... والتي ستصبح محط أنظار رواد المكان والتي على الأغلب ستئول إلى مالك المبنى الذي هو في الأغلب لشركة تأمين....

ينزل نديم إلى المقهى بصحبه كثيرين... ويجلس حول منضدة كبيرة وحوله محبون... ودائمًا يمد يد المساعدة للآخرين... يحضر لهم الإصدارات الجديدة من الكتب بعد أن يشتريها من ماله... أو صورا من الأفيشات السينمائية القديمة أو كتيب الصحافة الذي كان يوزع قديمًا للصحافيين في أثناء عرض الأفلام العربية لأول مرة...

إذا رأيته وحيدًا على المقهى، فهو في انتظار شخص ما، أو يستريح قليلًا ثم سيصعد إلى بيته ليلتقي بالأصدقاء... يستقبلك بابتسامة، ونظرة عينيه تتوسل إليك كي تصعد معه... يشد على يدك ويدعوك بمحبة.. وتعتذر... يتكئ على عكازه ويسرع في خطواته... كأن هذا العجز يخص شخصا آخر لا هو...

في بيته له سرير مفضل موضوع أسفل الشباك... بمجرد أن يستيقظ نديم يجلس على الفراش، ويفتح الشباك على مصراعيه، ويشاغب جيرانه في الشبابيك والبلكونات المواجهة له... ولا تمر لحظة إلا وينادي عليه أحد الجيران... واحدة تريد مشابك غسيل، وآخر يريد مفكًا أو كماشة، وثالث ينادي عليه من الشارع لينزل إليه «السبَت» ليضع له الجرائد والمجلات التي طلبها...

في الأسبوع الأخير حرص على أن يقوم بلعبة مع أصدقائه... طلب من صديق راجيا أن يتصل بهم ليخبرهم أن نديم مات... وعلل ذلك بأنه يريد أن يعرف مدى محبة الناس له... لم يكن يعرف في أثناء بروفة الموت هذه، أن المشهد الحقيقي سيأتي سريعًا... ولم يكن يعرف أنَ المحبة الكبيرة التي غمرته آنذاك وهو يسمع صوت نحيب أصدقائه... أنها عند موته الحقيقي ستكون أضعافا مضاعفة وأنهم سيصدرون كتابا في رحيله، وأنه حتى الآن بمجرد ذكر اسمه ولو كانوا في أوج سعادتهم... يسكتون فورًا وتربد وجوههم وتلمع عيونهم بالدموع.



البرنس

هو شخص استثنائي جدّا، محب للسهر والمرح والليالي الصاخبة بشكل غير طبيعي... نزلت منطقة وسط البلد لأول مرة ووجدته من معالمها المميزة... لم يحدث أن رآه أحد نهارًا، ولم يحدث أن تيقن أحدنا من طبيعة عمله، لكننا عددناه عاطلًا بالوراثة من كثرة أحاديثه عن العزب التي يملكها والأطيان التي يقتنيها ومساحات الأرض الشاسعة التي تجري فيها سيارات السباق لمدة ثلاثة أيام ولا تصل لنهايتها...

أخته الكبرى ممثلة لمعت في العصر الذهبي للسينما المصرية، وكانت فتاة غلاف لكبرى المجلات الفنية وتزوجت مطربًا شهيرًا... وهو صغير كان يشاهد نجوم السينما والغناء ساهرين على الدوام في ضيافة أخته... من ساعتها أحب السهر وحياة الليل وأحب أيضا كتابة السيناريو والأغانى والإعلانات، وكان يحدثنا دومًا عنها، وقد يأتي وبيده رزمة كبيرة من الورق على صدرها يسطع اسمه كسينارست واسم الفيلم، ويريها لنا على سبيل التأكد ثم لا شيء بعدها، لا سيناريوهات أفلامه نفذت، ولا أغانيه شدا بها المطربون، ولا حتى الإعلانات التي كانت تظهر بدون إشارة لكاتبيها وادعى أنها من إبداعه...

هو أنيق على الدوام، يلبس بدلًا كاملة صيفية وشتوية حسب الموسم ويضع في عروتها زهرة صغيرة أو تاجا ملكيّا أو شعارا مبهما، ومن جيبها الأعلى يظهر طرف منديل حرير لونه يتناسق مع رابطة العنق... ويرتدي

باروكة كستنائية متناسبة مع لون شاربه الكبير وهي من الإتقان بحيث تحسب أنها شعره الحقيقي...

في نهاية السبعينيات وحتى أوائـل التسعينيات كان يجوب كل مطاعم وبارات وفنادق وسط البلد الفاخرة بداية من فنادق الناسيونال والكوزموبوليتان والأوديون ووندسور وريفولي، وبارات وكافتريات الأمريكين وجروبي والإكسلسيور وروي ونايت آند داي وإستوريل والجريون ومقاهي سفنكس وريش وعلي بابا وإيزافيتش والحرية والبورصة ومطاعم آرتين وأوديون... هذا بخلاف غزواته في نهاية الليل لملاهي وكافيتريات شارع الهرم..

لم يكن يسير بصحبة أحد، فصحبته ومعارفه دائمًا في كل مكان يدخله... فله شعبية ضخمة... فرغم أنه أرستقراطي الهوى فإنه كان يحب مصادقة اليساريين والكتاب والشعراء ويدافع عنهم ويتدخل لفض منازعاتهم... وحدث يومًا أن بارمان أحد الفنادق وبخ كاتبًا يساريًا ورفض أن ينزل له كأسًا إضافية، ودخل هو بالمصادفة فشتم البارمان وصاحب الأوتيل، وكاد يشتبك معهم وكانوا يفرون من أمامه فهو زبون متميز وقوي... كان يطاردهم وهو يقول: «إزاي تتجرءوا تزعلوا صديقي الشيوعي؟!» (كان لا يعرف اسمه ولا يعرف أن الإعلان بصوت عال عن شيوعية الصديق كان كفيلًا أيامها باعتقال الصديق)... وقف الصديق حائرًا بين التهمة التي يلبسها له هذا الأرعن والاندفاع العاطفي المهووس وهو يجري وراءهم مدافعًا عنه.

البرنس كانت له أحوال عجيبة... فهو دائمًا ما يتغزل بأصدقائه اليساريين، ثم في نهاية الجلسة يسخر من رائحة عرقهم أو عدم استحمامهم (كما يدعي) وينهي جلسته بأنه يحب البرولتياريا الرثة ويشير إلى بعضهم...

كان له أصدقاء كثيرون في العلن وأعداء لا بأس بهم في السر، فوجوده بأي مكان يعني كمّا ضخمًا من الضجة والضجيج والتدخل في شئون الآخرين...

وحكايات أثيرة عن جنينة الفاكهة وخولي الجنينة... ثم يبدأ في أغاني العاملات في الجنينة وكلها أغان جنسية فجة تثير الضحكات أكثر مما تثير الغرائز... ثم يغني أغاني محمد فوزي ويختتم غناءه بالغناء بصوت شجي بأغنيته المحببة للمطرب محمد عبد الوهاب:

مين عذبك بتخلصه مني وذنبي إيه بتعذب فيا
ليه العوازل حاسدني دول حقهم يبكوا عليا

ويرقص كل من بالبار ويتمايل حتى الأجانب على رتم الأغنية... دارت الأيام عليه وعلينا، لكن البرنس رغم اقتراب سنه من السبعين مازال يوجد بوسط البلد، وتخلص من باروكته وازداد رشاقة وجمالًا... وأصبح يوجد الآن ويسهر بالكافيتريات الرخيصة والبارات المتواضعة (إستيلا والكاب دور والهالجيان وجاميكا والأنجلو) ملتحما أكثر مع الطبقات التي يحبها والناس الذين يعشقهم.

سيزينيا



فتاة بحجم طفلة على وشك البلوغ، وبحيوية رياضية تتأهب لتحقيق رقم عالمي يسجل باسمها في الأوليمبياد، وبدورة حياة فراشة تتنقل بين الأزهار والخرائب والصخور... ثلاث سنوات فقط في منطقة وسط البلد شغلت بها الناس وشاغلت الكثيرين، ولم تستقر إلا بمثوى كل دابة على ظهر البسيطة...

اسمها سيزينيا أو هو الاسم الذي كانت تطلقه على نفسها.. كانت تظهر مساءً وفي ذيلها ضحايا وعشاق... أول شروقها في أتيلييه القاهرة حيث تصطحب الضجة والمرح واللهو إلى المكان... لا تستقر بمنضدة، وتشير للجميع بما معناه أنها آتية إليهم...ويدق رنين هاتف المكان برنات متواصلة فيجري ساعي المكان يناديها كي تتلقى اتصالاتها، مع العلم بأنه لا يكلف نفسه بمثل هذه الهرولة لرواد المكان وأعضائه... وتُرْغِي وتُزبد في تليفونها وتطنب وتسهب، والمشتاقون إلى هلتها عليهم ووجودها بينهم في انتظارها المتلهف... وتنتهي من مكالمتها ولا يطول مكوثها بطاولة اختارتها؛ فثمة تليفون آخر يستدعيها، وثمة ضحكات جديدة ستصل إلى أسماع كل الموجودين...

والغريب أنه على الرغم من أنها ليست عضوة بالمكان وعلى الرغم من أن كوكبة من الكتاب والفنانين والتشكيليين الأعضاء بالمكان يكونون في ذات الوقت موجودين... فإنني لم أسمع أبدًا بأحد تضرر من سلوكياتها أو وجودها

بالمكان أو تحركها فيه كأنها الآمرة الناهية... فلها جسر سحري من المحبة والابتسام تمده للجميع... أغلبهم يحب وجودها ويتمنى وصالها، حتى الصغار المنتمين حديثًا للمكان كانت تستقطبهم بسهولة، والمثقفات اللواتي لهن قدرة كبيرة على الجدال كن يقلن عنها مسكينة.

الجولة الثانية لها كانت بمقاهي وكافيتريات وسط البلد... وبخاصة الجزء الذي به كافتيريا ومقهى «علي بابا» ومطعم «زد» ومقهى وكافيترا أسترا... وكلها على رصيف واحد يواجه مجمع التحرير والهيلتون... في الصيف أسفل كوبري المشاة عندما تدق الساعة الثامنة مساءً كان عبد الله جرسون كافيتريا على بابا يخرج بعض الكراسي خارج المحل للزبائن المميزين... كانت لا تجلس بالخارج فهي في حركة دائمة ما بين دخول المحل للرد على الاتصالات التي ترد لها، أو الخروج لتشاكس العابرين بابتسامة، وقد تقف معهم لحظات وتدون أرقام هواتفهم في «بلوك نوت» صغير كانت تضعه في جيب بلوزتها...

تنتقل بعد ذلك إلى كافيتريا أسترا ويبدو أنها لم تكن تحب هذا المكان كثيرًا لأنها تعود منه بسرعة.. وفي أثناء عودتها تدخل محل زد لدقائق لتطلب عشاءها وهو عبارة عن شريحة من المكرونة بالباشميل تسبح على سطحها صلصة داكنة بها قطع صغيرة من الكبد البلدي كان هذا المكان متخصصًا فيها، تطلب من الصبي وضعها على أي منضدة بالخارج حتى لو كانت لا تعرف الجالسين حولها... يطلبون منها الجلوس فترفض، وتدب الشوكة فيها وهي واقفة تأكل بضع قطع منها، ثم تتحرك وتعود، وهكذا إلى أن تنتهي من عشائها.. ثم تدخل لتفتح ثلاجة المكان من أعلى وتنتقي زجاجة كولا، تفتح الزجاجة بالمفتاح المعلق بالثلاجة تحت بصر عم عبد الله معتاد هذا التصرف، وتخرج بالزجاجة إلى الساتر الحديدي المقابل الذي يفصل الرصيف عن نهر الطريق... ترتكن عليه بجسدها وتشرب زجاجتها... ويهتم

العابرون بالسيارات بمنظرها فيتلكئون، وقد يعاكسونها بأيديهم التي تخرج من النوافذ أو بأصوات نفير سياراتهم المتوالي، فتضحك بسعادة... وترجع إلينا مزهوة بنفسها...

هي قادرة على أن تشغلك بها صغيرًا كنت أم كبيرًا... سلسًا كنت أم جادًا... في وقفات الأعياد تسهر معنا حتى الصباح، وحين تدق الساعة معلنة انتصاف الليل وبداية اليوم الأول للعيد... تطلق زغرودة جميلة وتتجه إلى كل المناضد... تقبل أفرادها فردًا فردًا حتى لو كانت لم ترهم إلا اليوم... وتطلب منهم أن يعطوها العيدية التي تحددها بربع جنيه ورق جديد، وبشرط أن يكتب لها كل فرد تهنئة باسمها على الورقة... ثم تخرج ورقة مالية جديدة بالقيمة نفسها وتسأل الشخص عن اسمه وتكتب له على ظهر الورقة أمنيتها له بالنجاح والتوفيق...

لم يكن لها صديق شخصي حميم، إنما كان لها معارف كثيرون... وكانت تقول إنها مخطوبة ولم نر خطيبها إلا أخيرًا... وكانت تتركنا كثيرًا بعد أن يستدعي لها عم عبد الله «تاكسي» تركبه ولا تعود، وقد تغيب أيامًا...

شخص نحيل أطول منها قليلًا يرتدي بدلة صيفية مشابهة للأزياء التي يعود بها القادمون من الخليج، كدرها هذا الشخص وغير حالها... وبدل بضحكتها ابتسامة شاحبة... كانت قد أصدرت تعليماتها بمنعه من دخول الأتيلييه فبدأ ينتظرها في المقهى... هذا هو خطيبها كما كان يقول، وشخص رزل قوي كما كانت تقول عنه... وبدأت مشاحنات كثيرة تحدث، وبمجرد أن يعلو صوته تحدجه بنظرة يستسلم بعدها ويلح في استرضائها... واختفيا أيامًا كثيرة عنا وظننا أنه عاد إلى مقر عمله بالخليج وهي بصحبته...

كانت سراي النيابة تشغي بالناس المحترمين الذين تم استدعاؤهم من بلوك نوت صغير مخضب بالدماء... وكان وكيل النيابة مذهولًا من هذا الحشد الكبير

لأناس ذوي حيثية كبيرة ورجال مهمين... ولحسن الحظ اعترف خطيبها أو من كان يدعي ذلك بأنه القاتل... عم حزن كبير في هذا الشريط الحيوي في ميدان التحرير... على هذه الفتاة النشطة التي قضت سنتين في هذا المكان كأنهما ردح من الزمان...

بعد ستة شهور أتى القاتل بشحمه ولحمه إلى كافيتريا على بابا، وصمم على أن يجالسنا.. وأرانا صورة من حيثيات البراءة... وقال إنه كان يحبها جدًا ويتمنى الزواج بها رغم علمه بتصرفاتها الهوجاء، وإنه أرسل إليها نقودًا كثيرة لتشتري شقة باسمها كما اشترطت عليه مقابل الموافقة على الزواج منه، وإنه طالبها بالوفاء بوعدها فماطلت، وإنه علم أنها تستقبل أشخاصًا بالشقة، فذهب إليها يطلب منها استعادتها... ثارت ثورتها وأسرعت إلى المطبخ وأحضرت سكينًا ضخمًا ظلت تلوح به أمامه وتهدده وتسبه وتلعنه طالبة منه أن يرحل فالشقة ليست ملكه بل ملكها... والقانون لا يحمي المغفلين...

احتد عليها فعدلت وضع السكين من وضع التهويش إلى وضع الإصابة، ووجهت نصل سكينها إلى صدره، فخاف، وأبعد سكينها فرشق في صدرها... تأوهت بوهن ثم ماتت... الذي خلص عنقه من حبل المشنقة التقرير الطبي الذي جاء في صالحه وبصمات أصابعها التي وجدت على السكين وخلت من بصماته، وشهادة الجيران عن سلوكها وفضائحها وسردهم لكل الشتائم واللعنات التي كانت تصبها عليه وقت الحادثة. وصك البراءة تصدرته كلمة دفاع شرعي عن النفس...

تنفس الرجل بارتياح كأنه يلقي من على كاهله بعبء كبير، وغادرنا ولم نره بعدها، ولم نعد نذكره لكن حضورها في حياتنا استمر لسنوات طويلة بعدها.

اختبار البلاطة





أنت لست من سكان وسط البلد، إن لم تدخل هذا البار (بار إستلا) أو تزوره زيارة عابرة دون شرط احتساء أي من مشروباته الكحولية فهو يقدم أيضا الشاي وزجاجات الكولا... هو ليس مكانًا فخمًا على الإطلاق، بل بالعكس هو مكان فقير جدّا لكنه حميم... مساحته محدودة ولا تتجاوز الـ ٤٠ مترًا وحوائطه مجلدة بالخشب وله بابان أحدهما رئيسي يطل على شارع طلعت حرب وهو على الأغلب مقفول ومسدل عليه الصاج، والآخر جانبي يطل على شارع هدى شعراوي وهو الذي يستخدم في الدخول والخروج...

البار له حالتان مختلفتان كلية... في النهار رواده قليلون لكنهم مختلفون عن زبائن الليل... وجرسون النهار متوتر على الأغلب ويسري عن نفسه بجرعات متتالية من البيرة، ويمازح الرواد الأجانب ويشاركهم في أكل المزة، ويسير بهرولة والصينية تكاد تقع من يده بما عليها من مشروبات... وقبيل انتهاء ورديته يكون قد انتقى منضدة وجلس مع الجالسين عليها يشاركهم الحديث... وإذا ما طلب أحد منه مشروبًا تكاسل حتى يسمع النداء عليه أكثر من مرة، ثم سار الهوينى باتجاه منصة البار لإحضار المطلوب...

وإذا ما أتعسك حظك بالجلوس على منصة البار لو كنت بمفردك سيتدخل البارمان ويسألك عما يشغلك وعن مهنتك، وسيحكي لك أسرار حياته... وإن كان معك شريك سيدلي بدلوه في كل الحوارات والمناقشات التي تدور بينكما... مع أن من شروط البارمانات على ظهر البسيطة.. عدم

لبس أشياء تميزه كالساعات والنظارات الفخمة... وعدم التحدث مع الزبون أحاديث خاصة، وإذا ما سكر الزبون وألح في الحكي مع البارمان لا يرد عليه إلا في حدود «... معلهش يا باشا... حتفرج... بسيطة»... أما بارمانات الدرجة الثالثة كحالة هذا البار فإنك تحس أنهم أخذوا تعليمات أو توجيهات بالتدخل في حياة الزبون ومعرفة كل أسراره والتنغيص على حياته....

من زبائن النهار سلوى، وهي سيدة تقترب من منتصف الستينيات الآن... ملامحها أقرب إلى ملامح الأرمن منها إلى ملامح المصريين... ترتدي نظارة بسلسلة فضية، وتعلق حقيبة جلدية بكتفها، بداخلها علبة سجائر معدنية ومباسم زجاجية مع أدوات تنظيفها، وتسير بتمهل وبتأن... وهي في الشارع مختلفة تماما عن البار...

هي على الأغلب مسجلة خطر في جميع بارات وسط البلد لأنها مصدر للخناقات... فليس لها سقف للشرب إذ من الممكن أن تشرب إلى حد الإغماء، وتبدأ في التلطيش لكل الموجودين... تجيد الإنجليزية والفرنسية، وبلوغ حد سكرها أن تنتبه لأي مجموعة من الأجانب تتكلم الإنجليزية أو الفرنسية داخل البار... حين تنتبه ستبادلهم التحية بلغتهم وتحاول أن تمزح معهم.. وأمام ترنح كلماتها سيتجاهلها الأجانب، وهنا ستقوم بسبهم بكل اللغات ولن يوقفها إلا الطرد خارج البار...

وبعد فترة غياب قصيرة سيتوسط لها أحد الرواد لإعادتها إلى البار بشرط عدم التدخل في شؤون الآخرين، وستنصاع ليومين وبعد ذلك تنسى وعودها...

سلوى تدور حولها أساطير... يحكون أنها كانت تعمل لبيسة للنجمة سعاد حسني، ويؤكد آخرون أنها كانت متزوجة من خواجة تاجر ذهب وكان متيمًا بها... يعود ليلًا لينادمها ويقاسمها الشراب بعد أن يهديها هدية كل يوم كان

يتفنن في تشكيلها... وأنها كانت تحبه ولا تخرج من المنزل، وترى الحياة بعيونه... وذات مساء شرب كؤوسه واحتضنها بشدة ومات... يؤكدون ـ رغم أني غير مصدق ـ بأنها ظلت تحتضنه ثلاثة أيام بعد وفاته... وعندما كسر الجيران الشقة صارعتهم كي لا يأخذوه منها... وأنها أصيبت بصدمة عصبية واحتجزت بمستشفى للأمراض النفسية وعندما خرجت بعد سنوات... أدمنت السكر بالبارات...

يقولون... ويقولون.. لكنها لم تحك عن شيء يخصها حتى لو كانت في أسوإ درجات السكر البين..قد تثير جلبة من البذاءة والقباحة داخل البار ثم تختفي لبضع دقائق فيحل الصمت والسكون، ثم يفتقدها أحدهم فيسأل عنها.. فين سلوى؟..ويتكرر السؤال فترد بغيظ من داخل الحمام: أنا في الصومعة يا سمير، تمر لحظات أخرى ونسمع صوت ضحكاتها من داخل الحمام، فيسألها سمير مرة أخرى بانزعاج: فيه إيه يا سلوى؟، تجيبه وهي متذمرة: وإنت مالك يا سمير..باتسلى مع نفسي فيها حاجة دي؟!

سلوى لا توجد في بار إستلا ليلًا... لأن بارمان هذه الوردية حازم ولا يخضع للوساطات ولا يتعاطف معها حتى لو بكت بدلًا من الدموع دما... لكن بارمان النهار متساهل بعض الشيء لذا كثيرًا ما توجد فيه نهارًا...

الأجانب يفضلون بار إستلا لرخص أسعاره مقارنة بأماكن الشرب الفاخرة في وسط البلد، ولأنه يذكرهم بالبارات الكلاسيكية الصغيرة في لندن وواشنطن ودبلن وبرلين... وأغلب الفنانين والكتاب يترددون عليه من الحين للآخر... مما يميز هذا البار أيضا وجود حمام حريمي به، فأغلب بارات وسط البلد التي على درجته نفسها ليس بها إلا مبولة وحمام للرجال.. ويبدو أن هذه البارات لم تكن تستقبل النساء عند افتتاحها...

وتحضرني حكاية طريفة حدثت في بار «الكاب دور»... وهو بار أكبر من بار إستلا من حيث المساحة بالداخل كما به تراس بالخارج يستقبل الزبائن

أيضا... وموقعه بشارع عبدالخالق ثروت... وأغلب رواده من تجار وسط البلد الصغار والصنايعية...

كنا جالسين بالبار وهبط علينا صديق وبصحبته فتاة عرفها علينا وضمها إلى جلستنا... شربت الفتاة زجاجة بيرة وهمست في أذنه بعدها بأنها في حاجة للحمام... وكما ذكرنا من قبل لم يكن بالبار حمام للسيدات، لكن في الحالات الطارئة كن يستخدمن الحمام الرجالي... ذهب الصديق معها ليؤمن طريقها وأدخلها الحمام الرجالي وعاد إلينا بعد أن اطمأن إلى أنها أغلقت الباب من الداخل بإحكام... دقائق قليلة مرت ووجدنا الفتاة بيننا مضطربة ومنزعجة ومغتاظة.. جلست وبعد أن تماسكت تكلمت... قالت إنها بينما كانت بالداخل تقضي حاجتها سمعت صوت خروشة فرفعت رأسها إلى مصدر الصوت... فوجدت رأس رجل ينظر إليها من أعلى، وعندما صرخت قفز وهرب... كان من المستحيل علينا طبعا سماع صوت صرختها وسط كل الضجيج المحيط بنا... أصوات السكارى وأصوات تلامس الكؤوس في الأنخاب وصوت التليفزيون العالي...

ذهبنا معها لنعاين الواقعة... وجدنا فعلا آثار أقدام فوق المبولة التي اعتلاها هذا الشخص للتلصص على الفتاة... لكن كان من الصعب علينا خلع أحذية أكثر من خمسين سكيرًا لمطابقة هذه الآثار... طلبنا منها أن تهدأ وتنظر إلى وجوه من بالبار وتشير إليه ونحن سنعاقبه... أدارت الفتاة المسكينة رأسها في المكان وفشلت في معرفته... اصطحبها صديقها إلى التراس لكنهما عادا أيضا بخيبة الأمل.. طلبنا لها قهوة كي تفيق وتستطيع تذكر وجه الرجل، شربت القهوة وتفحصت الوجوه هذه المرة بإمعان لكنها لم تستطع أيضا معرفته... عندما يئست تمامًا خبطت على فخذيها وقالت لنا بغيظ واستسلام: على العموم منه لله... واللي بان مني زكاة عني!

بارمان المساء في بار إستلا هو سيد حماد وهو حالة فريدة ملتبسة... فهو

البارمان الذي ورث المهنة عن أبيه حماد... لكنه ما زال يعمل بوظيفة حكومية نهارًا، مجرد مرءوس صغير بينما ليلًا هو الآمر الناهي الذي يملي أوامره التي كثيرًا ما تنفذ على دكاترة جامعة وكبار كتاب وفنانين تشكيليين لامعين وأجانب أيضا، إن أحدثوا ضجة في المكان... وهو مشهور أيضا بفرماناته العجيبة التي قد تطرد زبونًا لمدة غير محددة حتى يتوسط له أحد الزبائن الآخرين ممن لهم دلال عند سيد...

مواصفاته الجسدية لا تختلف كثيرا عن العاملين ذوي السطوة على البارات... فهو ضخم الجثة، وكثيرًا ما يتعامل بيديه غير آبه بمناصب الزبائن، فهم بالنسبة له تلاميذ بالمدرسة التي هو ناظرها...

وهو حائر بين تدينه وربحه... يغلق البار يوم الجمعة لأنه يوم مبارك... ويبدأ ورديته هو ومساعده الصبي بالجلوس على أقرب منضدة بالبار يحتسيان الشاي والراديو أعلاهما مفتوح على إذاعة القرآن الكريم والتلاوة تصدر منه بصوت خفيض... لا يتعامل مع الزبائن حتى يأخذ كفايته ويغلقه ولا يفتحه مرة أخرى إلا في ساعة قريبة من نصف الليل على إذاعة أم كلثوم... يجول في البار طوال الليل يأكل من المزات ويشرب الشاي... عندما تظهر أعراض السكر على زبون يظل يتابعه تأهبًا لإسكاته أو طرده... موقع سيد في البار أقوى من السيدة اليونانية مالكة البار التي تعتمد عليه اعتمادًا كليًا في إدارته ومحاسبة وردية النهار...

لأبيه حماد قصة طريفة مع مستشار من زبائن البار... كان كعادتنا جميعا يشرب تحت الحساب... فكل زبون له قدر ائتماني معين لا يتجاوزه، والذي يحدد هذا القدر هو حماد... ويبدو أن المستشار تجاوز هذا القدر بقليل، ثم تغيب لظروف عمله عددًا كبيرًا من الأيام... قلق حماد على المستشار وسأل عنه أكثر من مرة... وقال كلامًا سخيفًا ولم ينتبه لأهمية المستشار.. وعندما ألح في البحث عنه، أعطاه أحد الخبثاء عنوان مقر عمل المستشار...

في الصباح الباكر كان حماد في مقر عمل المستشار... أدخله الساعي إلى بهو عريض وسار به على سجادة قطيفة حمراء كادت قدما حماد تنغرزان فيها... ثم أدخل حماد إلى مكتب فخم لم ير مثيلًا له في حياته، تلبش حماد عندما وجد ضابطا على كتفيه نجوم كثيرة يقف أمام سيادة المستشار الذي يجلس في هدوء... كان بجوار الضابط متهم منكس الرأس والمستشار يكيل له السباب... تمنى حماد لو تنخسف به الأرض أو يكون نسيًا منسيًا... فرغ المستشار من التوقيع على ورقة وأعطاها للضابط الذي سحب المتهم وخرجا... خلع المستشار نظارته وابتسم لحماد وأمره بالجلوس...

جلس حماد مرعوبًا ثم انتبه على صوت المستشار وهو يرحب به ويسأل: «فيه إيه يا حماد؟... خير»... بجهد جهيد أسعف القدر حماد بالنطق: «ولا حاجة يا سيادة المستشار حضرتك غبت شوية (ثم نظر بقلق يمينًا ويسارًا خوفًا من أن يكون أحد يستمع إلى الحديث) عن الشارع»... ابتسم المستشار وقال: «قصدك البار يا حماد»... ابتلع حماد ريقه بصعوبة وهو يقول: «قلقت على سيادتك... جيت أطمن عليك». ضحك المستشار طويلًا وهو يقول: «جاي تطمن عليَّ يا زبالة ولا تطمن على الحساب؟!»... لم ينطق حماد واكتفى بمحاولة رد يد سيادة المستشار وهو يقدم له النقود، ثم هم بتقبيل يد المستشار الذي نهض وربت على ظهره وقال: «لو قابلتك مشكلة ابقى عدي علي... فاهم مشكلة مش حساب».. ثم ضحك المستشار طويلًا.

بعد هذه الحادثة تغيرت معاملة حماد لجميع رواد البار وبات يظن أنهم قيادات مهمة متخفية لأمر جلل، وأنهم لا يسكرون إنما يتدبرون شئون البلاد...

سيد لم يتعلم الدرس من أبيه رغم كثرة وجوه الزبائن التي تطالعه في التليفزيون والقنوات الفضائية... من المشاهد المألوفة التي قد تراها عند دخولك البار... سيد بإشارة من يده من داخل البار يمنع زبونا من الدخول...

الزبون يدخل بمسكنة إلى البار ويبتسم في وجه سيد ويقول: «والله أنا ما سكران أنا ماشربتش النهاردة»... سيد يشير بحزم بيده ولا يتكلم. الزبون يعاود التذلل: «والله لو عملت قلق متدخلنيش تاني»... يصمم سيد على منعه، فالزبون سكران فعلًا ولا يجيد السيطرة على حركاته... هنا يتوسل الزبون أكثر ويقول في ضراعة: «طب ممكن أعمل اختبار البلاطة»؟ (واختبار البلاطة لمن لا يعرف... هو لعبة من اختراع سيد وهو مالك حقوقها الفكرية... تتلخص في أن يقف الزبون المعرض للاختبار في آخر البار ثم يسير بخطوة منتظمة تجاه منصة البار على أن تكون خطواته كالتالي: القدم اليمنى تدب تجاه الشمال والقدم اليسرى تدب تجاه اليمين أي بخطوات معكوسة للتأكد من سلامة الوعي والاتزان...)...

هنا يوافق سيد على عمل الاختبار والبار كله يراقب أداء الامتحان... وغالبا ما لا ينجح الزبون في إكمال المسافة أو يتخبط في المناضد التي بوسط البار... أو يقترب من المنصة بنجاح لكن في آخر لحظة يفقد اتزانه وتصطدم رأسه بمنصة البار... هنا يدعك له سيد رأسه بالكحول ثم يطرده خارج البار...

بار إستلا عال لكن ليس به طابق علوي، إنما مخزن صغير لحفظ المشروبات، وفوق الحمام الحريمى تقبع زجاجة بيرة ضخمة طولها حوالي ١٢٠ سم وسمكها ٤٠ سم وسمك عنقها ٥ سم، وهي من صنع النحات الجميل عوني هيكل من مادة البوليستر، وهي عمل فني جميل ومهم يعطي طابعا مميزًا للمكان...

وبعض زبائن هذا البار حالات جميلة وفريدة ومدهشة... تجد أحدهم يدخل منتشيًا يبدو عليه أنه ربح صفقة تجارية كبيرة... ينادي على سيد ويطلب منه أن ينزل بيرة على حسابه لكل الزبائن... يشكره الجميع، فهذه مجاملة معتادة ومتكررة... لكن قد يكون أحدهم متوحدًا مع زجاجة البراندي غارقًا في أحزانه وتأملاته منفصلًا تمامًا عن البار... عندما يضع له سيد الزجاجة...

يرفضها، وعندما يشير سيد إلى صاحب النفحة... يصر الرجل على رفضها ويكمل ما بكأسه في هدوء... لكن المانح يعتبر أن هذا الرفض استهانة به وتعاليا عليه فتنشأ مشاجرة عنيفة تفسد الليلة كلها...

أو قد يدخل شخص مفتول العضلات قوي البنية... ويطلب مشروبه... ويظل يتأمل البار... يكون البار في تلك اللحظة هادئا ومناضد كثيرة خالية في أول الليل... يشرب هذا الشخص جرعات متتالية... ثم تستفزه منضدة عليها مجموعة من الشباب يضحكون في صخب... عندما تتعالى ضحكاتهم ينظر إليهم شذرًا، ثم يسبهم ويلعنهم ويهددهم بأنه لو صدر منهم صوت فسيضربهم كلهم ويشوه وجوههم الجميلة... ينكمش الأولاد ويبدءون في شرب كؤوسهم بسرعة تمهيدًا للخروج... سكون البار يستفز الرجل أكثر... ينهض من كرسيه... يتوجه إليهم... يموت الشباب رعبًا بينما يندس الرجل بينهم... ينظر إليهم طويلًا ثم يبكي بلا انقطاع ويتوسل إليهم قائلًا: عشان خاطري... أقعد معاكم... ماتخافوش... ويبدأ في سرد حكايته ومعاناته لعدم وجود أصدقاء ولا ندماء يشاركونه الشراب... وينتهي وهو يحكي كيف استفزته ضحكاتهم وكيف جعلته يحس أنه كم مهمل لا يستحق أن يوجد في الحياة... يحتضنه الشباب ويطبطبون على ظهره ثم يشاركونه الشراب وتصبح الليلة سعيدة...

في هذا البار أو في البارات الأخرى أيضا، عليك أن تكون في قمة الحذر.. فهناك فتاة وديعة قد تنضم إلى طاولتك وتشاركك الشراب وتسامرك بكلام مهم وآراء قيمة وتحليلات صائبة... كل هذا بكلمات عامية جميلة... لكن انتبه عندما ينعوج لسانها وتبدأ في الحديث باللغة العربية الفصحى، فهذا معناه أنها سكرت تمامًا وأن ليلتك وليلة كل من بالبار ستصبح منيلة... وعليك بالخروج فورًا....

هناك أيضا مصيبة تسير على قدمين واسمها رحاب وعلى الرغم من أنها ضئيلة الجسم فإن ملامحها فاتنة وجسدها فائر، ووجهها كوجه الممرضات

الفاتنات البريئات اللواتي يظهرن في السينما الكلاسيكية بمجرد أن يفتح مريض الحالات الحرجة عينيه، فيحس أنه في الجنة... ولها وحمة فاتنة على خدها تزيد ومضة وجهها الأبيض بريقا، وابتسامة ساحرة لو ألقتها عليك لشعرت من فورك بأنك رجلها ومنقذها، ولأقدمت على تلبية كل طلباتها المستحيلة... ولن تصدق أبدا أن خلف كل هذه الوداعة، شراسة ليست لها مثيل، وبذاءة لا يحدها حد، ووضاعة تتجاوز الوصف...

عند دخولها المكان تتوقف الحركة لحد السكون ولا يجرؤ سيد أو ألف مثله على منعها من الدخول، فهي حالة خاصة والشجاعة في مواجتها تهور، فهي قادرة على سبك ولعنك وإهانتك إلى ما فوق الجنون... قادرة على قذفك بالزجاجات والأكواب والشبشب مهما تكن... قادرة أيضا على الوقوف بخارج المكان تصرخ وتسب بأقذع الشتائم والحجارة تنهمر من يدها مهشمة المكان...

ولا يفيد تدخل الشرطة أو حتى الإنتربول؛ فستغيب بعض الوقت ثم تعود أكثر جنونا وتهورا وشراسة...

الجرسونات العقلاء يقابلونها بابتسامة ويهمسون في أذنها يطلبون منها الهدوء ويهددونها بعشم بعدم التجاوز... أغلب رواد البار يعرفونها ويتجنبونها، وإن جلست وسطهم يتحسسون كلامهم ويشربون حصتهم بعجالة ويرحلون... من يقع في كمينها هم الرواد الجدد، الذين يرونها تتحرك بين المناضد وهي تضحك وتغني فيتمنون أن تجالسهم، ويتحرك جني المصباح بسرعة لتحقيق أمنيتهم... يبتسمون في وجهها فتبتسم وتسحب كأسها وتجلس معهم... مجرد ليلة واحدة بينهم كفيلة بترك علامة لا تمحي داخلهم تجعلهم لا يأتون إلى هذا البار مرة أخرى، أو على الأقل يتجنبون هذا الكمين...

حكى لي صديق حكايته عندما وقع في براثنها لأول مرة. خرجا من البار سويا وقالت له إن بيتها في المعادي وتقيم فيه بمفردها، فركبا المترو سويا...

كانت غائبة عن الوعي تقريبا تكلمه بصوت جهوري داخل المترو كأنهما في خلوة، وركاب المترو ينظرون إليهما بدهشة، فالحديث الذي اختارت له المترو موقعا هو من هذه العينة: «ماتخافش أنا ساكنة لوحدي.. وعندي ويسكي وبانجو وشوية جبن وزيتون.. مش حنحتاج مزة.. لوحبيت تجيب شيبسي نجيبه من المحطة عشان البقال اللي جنب البيت مبيطقنيش وبيقول عليا رقيعة!» (وهنا أطلقت ضحكة ماجنة لتثبت رقاعتها)... كان صديقي يتمنى لو يقفز من المترو أثناء سيره أو تنفجر العربة به، وكان يتجنبها ولايشاركها الحديث، ومن حسن حظه أن الركاب كانوا يكتمون ضحكاتهم وينظرون إليه بشفقة بعد أن أحسوا بورطته... وكانت المسافة تتباعد وهي مستمرة في غيها وصديقي لم تعد بعروقه أي دماء.. وحاول الهرب منها عند وصولهما إلى المحطة، لكنها في تلك اللحظات بالذات كانت متيقظة جدا، وأحس منها الغدر فاستسلم وصعد معها... في الصباح أحست به يتسلل خارجا، فنهرته وأمرته أن ينزل بعد نزول الموظفين لعملهم، فهي ست محترمة تخشى كلام الناس... ثم دخلت لتستحم وباب الحمام مفتوح. وعندما انتهت خرجت عارية تماما تدير شئون البيت وكل فترة تسأله:أعملك شاي؟ أحطلك حتة جبنة تغير ريقك؟

الذي أذهله تماما أن غرفة فتحت وخرج منها ابنها الصغير (٨ سنوات) فقبلته واحتضنته وقالت للطفل وهي ماتزال عارية تماما: «سلم على عمك».. هنا نزل صديقي فورا مشبعا بالقرف من نفسه. لحسن حظ هذا الصبي أن والده صمم على حضانته وحصل عليها.

وهناك واقعة أخرى رأيتها بنفسي... كانت جالسة بيننا في حديقة مطعم «الجريون».. وفجأة تركت محمولها واتجهت ناحية الحمام وغابت كثيرا.. رن جهازها المحمول أكثر من مرة ولم يجرؤ أحدنا على تناوله والردعلى المتصل.. لكن عندما زادت مرات الاتصال وتواصلت حتى أجبرتنا على التوقف عن الحديث، نظرنا بعضنا إلى بعض.. وتطوع أحدنا بتفقدها في

الحمام، وعاد بعد قليل يخبرنا بأن عامل نظافة الحمام أخبره بأنه ليس هناك أحد بالداخل... كان جهاز المحمول ما يزال يواصل رنينه بلا انقطاع وتصورنا أنها هي المتصلة متصورة أن محمولها سرق أو ضاع... أخيرا رد أحد الجالسين على المتصل، وفوجئنا به يسمع بدهشة وإنصات ويهز رأسه بحركة رتيبة... عندما أعاد المحمول إلى مكانه نظر تجاهنا وقال مبتسما: «حضرتها حبست صاحبها في الشقة، وجت تسهر معانا والراجل بيعيط وبيقول لازم يروح بدري قبل مراته ما تسود عيشته!!».

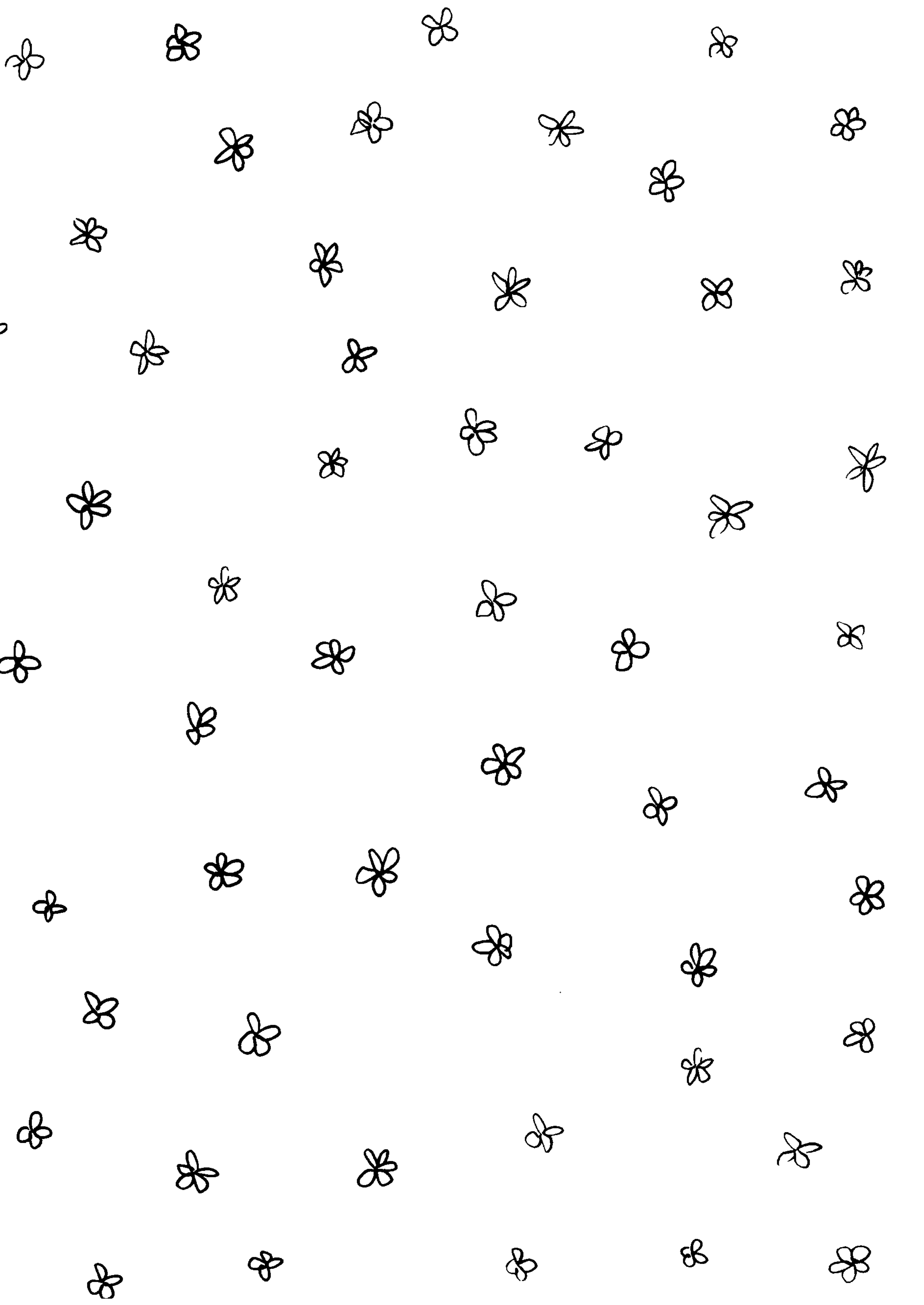
بحثنا عنها في بار إستلا وأوستريل وكل الأماكن القريبة، ثم وجدها أحدنا في المطعم اليوناني... عادت إلينا بكل براءة تقول: «أنا أصلا نسيت إني كنت قاعدة معاكم»... أخبرناها بحكاية صاحبها فضحكت أكثر وقالت: «ابن الكلب قلتله حانزل أجيب عشا خفيف.. انسحب من لسانه وقالي أجيبله سجاير وسمك فيليه مشوي.. قفلت عليه باب الشقة عشان لو جاع يصطاد سمك من البانيو!!».

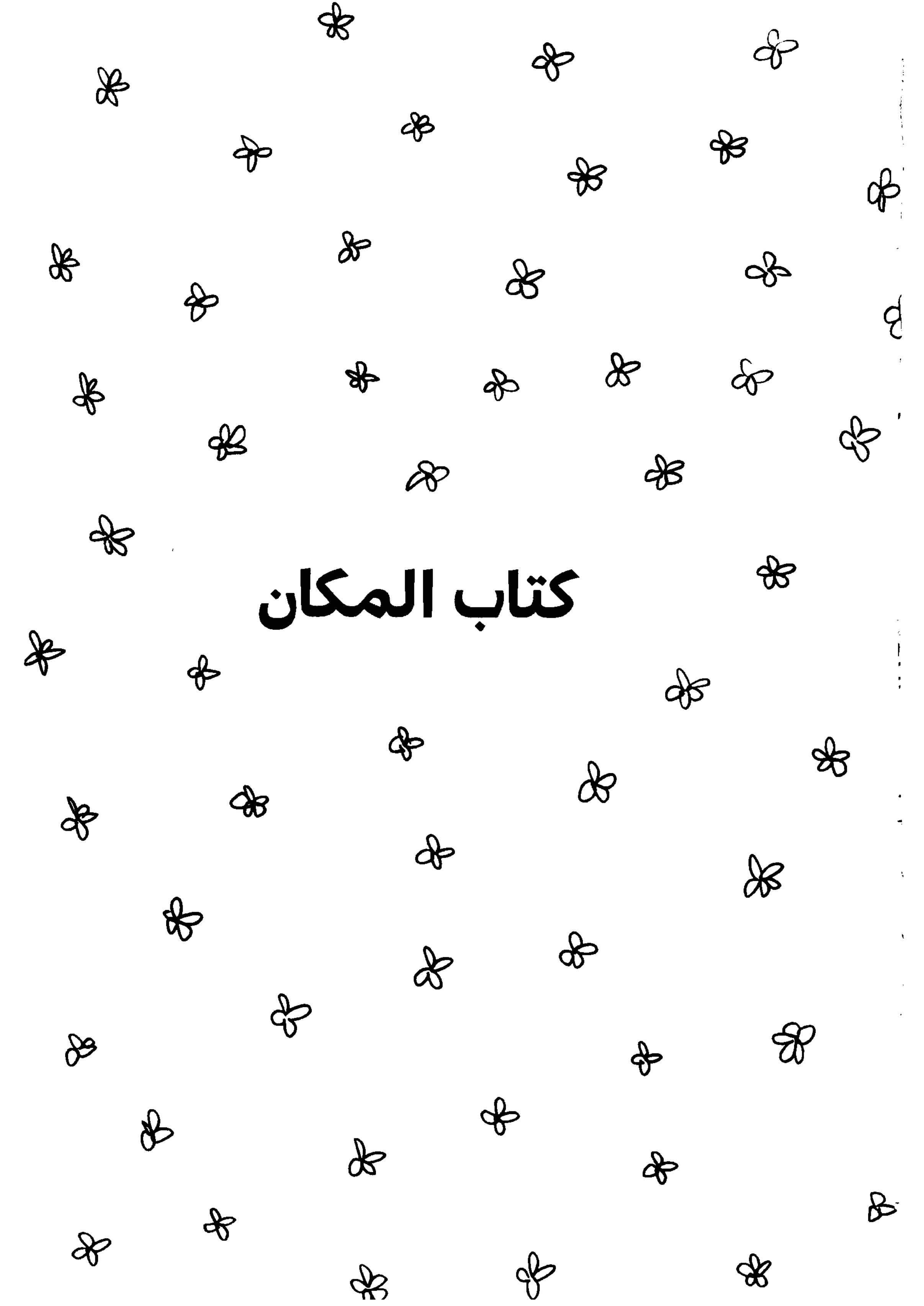
هي لغم متحرك ووجودها مثير للمشاكل... وإذا قابلتها وجها لوجه فحاذر أن تدير وجهك أو تعبس في وجهها أو تتجاهلها، فكثيرون فعلوا ذلك وندموا أشد الندم.. منهم كتاب وفنانون ورجال أعمال وشخصيات عامة، فهي لن تخجل من أن تقول وسط الجمع الغفير لمن تجاهلها: «هو إنت فاكر نفسك مين يا روح أمك؟! إنت ناسي الورد اللي كنت بتحطهولي قدام باب الشقة عشان أرضى عنك وأقبل أشوف خلقتك؟!». ثم عندما تلمح أحدهم يكتم ضحكاته بيده تستدير إليه وتقول: «وإنت راخر ناسي لما قفشتك في حمامي بتشم كلوتاتي!».

يحملها الجرسونات ويخرجون وما يزال صوتها يصل إلينا قويا واضحا بسباب أفحش وشتائم أقذر وأوصاف لا تليق... ثم تغيب أياما وتعود بعد أن تعلم الجميع من درسها القاسي.

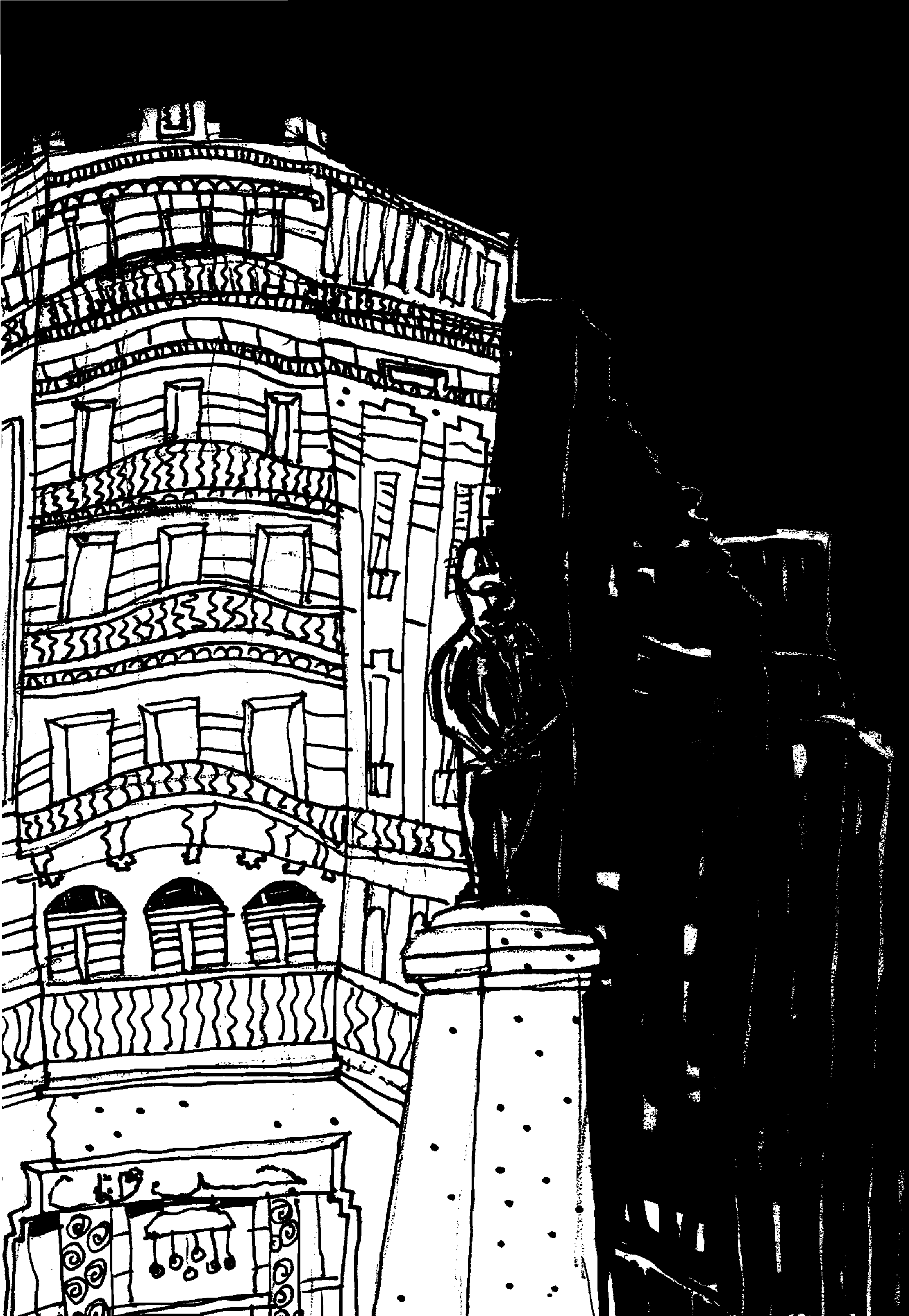
بداخل هذا البار الصغير... شاهدت علاقات حب تنمو بين أجانب ومصريات ومصريين وأجنبيات... رأيت أجنبيّا يبكى بدموع حقيقية لرفض فتاته المصرية الزواج به ويقرر مغادرة القاهرة نهائيا، رغم أنه خبير فنى في الإلكترونيات ويتقاضى مبلغا مهولا في مصر، وحبيبته فتاة عادية جدّا لكن بساطتها المثيرة للغرب جعلته يهيم على وجهه كقيس بن الملوح... ورأيت فرنسية رفض زوجها المصري العودة معها إلى مصر رغم أنهما كانا متفقين على ذلك... لكنها عادت بمفردها تجول في المنطقة التي أحبتها وتطوف بالأماكن التي أسرتها وتقسم بأنها لن تعود إلى فرنسا...

بعد الواحدة ليلًا، وقبيل الإغـلاق... تتجمع المناضد بالبار وتصبح منضدة واحدة عليها الأجانب والعرب والمصريون... المثقفون والخرتية والعاديون... وتجد عودًا قد ارتفع وبدأ أحدهم في العزف عليه... ثم يغني الجميع بمن فيهم الأجانب الذين يسترقون السمع لحظات حتى يعتادوا على الرتم، ثم يرددوا الكلمات التي قد لا يفهمونها لكن مشاعرهم تتحد معها تمامًا..





كتاب المكان





الشوارع والميادين والأسواق

ـ إن في القاهرة ومصر اثنين وخمسين ألف جمل يحمل عليها السقاءون الروايا، وهؤلاء عدا من يحمل الماء على ظهره في الجرار النحاسية أو القرب، وذلك في الحارات الضيقة التي لا تسير فيها الجمال.

ـ وفي المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار. وفي قصر السلطان بساتين لا نظير لها، وقد نصبت السواقي لريها، وغرست الأشجار فوق الأسطح فصارت متنزهات.

ـ وكانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول إنها بنيت من الجواهر لا من الجص والآجر والحجارة. وهي بعيدة بعضها عن بعض، فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر. ويستطيع كل مالك أن يجعل ما ينبغي لبيته في كل وقت، دون أن يضايق جاره.

رحلة ناصر خسرو (السفرنامة).

معلومات لا بد منها.

** **دخول الترام إلى مصر** في عام ١٨٩٦ أدى إلى ربط العتبة الخضراء بالعباسية ثم ربط شبرا بالقاهرة في عام ١٩٠٣ وردم ترعة الخليج المصري لإنشاء شارع الخليج. ودخول الترام في عام ١٩٠٣ أدى إلى ربط حي الظاهر

بالسيدة زينب ومنطقة غرب الأزبكية.. مما أدى إلى ازدهار وسط المدينة بالمباني الإدارية والتجارية والمالية.. بينما أُقيمت في الجنوب الوزارات والمباني الحكومية شرقي شارع قصر العيني.

** **بدأ إنشاء حي جاردن سيتي** في عام ١٩٠٦ بعد تقسيم أراضي منطقة قصر الدوبارة.. وأُقيمت القنصلية البريطانية على النيل مباشرةً.. وشُيدت بجاردن سيتي مجموعة من القصور والبيوت الفاخرة المقامة وسط الحدائق.

** **بدأ تعمير حي الزمالك** في عام ١٩٠٥، وتمت شبكة الطرق في عام ١٩١٠ وإنشاء كوبري «أبو العلا» في سنة ١٩١٢.

** **بدأت ضاحية مصر الجديدة** في عام ١٩٠٦ بعد حصول «البارون إمبان» على امتياز إنشائها من الحكومة المصرية وتسلم منها ٥٩٧٢ فدانا، تلاها ١٢ فدانا إضافية في عام ١٩١٠.

** **ضاحية المعادي** أُنشئت في عام ١٩٠٧ على بعد ١١ كيلو مترا جنوب القاهرة في اتجاه حلوان التي تبعد ٢٧ كيلو مترا عن القاهرة.

** **قصر عابدين** أمر الخديو «إسماعيل» ببنائه فور توليه حكم مصر في عام ١٨٦٣ لنقل مقر الحكم من القلعة إليه في نفس الوقت الذي أمر فيه بتخطيط القاهرة على النمط الأوروبي الذي بهره في مدينة باريس. وكانت مساحة القاهرة الجديدة في مخططات الخديو إسماعيل ٢٠٠٠ فدان وكان عدد سكان القاهرة آنذاك ٣٥٠ ألف نسمة ووضع التخطيط بحيث يستوعب ٧٥٠ ألف نسمة خلال ٥٠ سنة قادمة.

الميـادين

**** ميدان عابدين** يُنسب إلى أمير اللواء السلطاني «عابدين بك» في عهد محمد علي، ومقر سكنه كان قصرًا صغيرًا في نفس موقع القصر الحالي، وقد اشتراه الخديو إسماعيل من أرملته وهدمه وبنى على أطلاله قصر عابدين في عام ١٨٦٣ بعد أن انتزع ملكية مئات من المباني والطرق القديمة التي كانت تحيط بالقصر في دائرة مساحتها ٢٤ فدانا من حوله.. وقد استمر بناء القصر ١٠ سنوات متتالية.

**** ميدان مصطفى كامل**.. عند تقاطع شارع محمد فريد مع شارع قصر النيل.. والزعيم مصطفى كامل هو ذلك الرجل الذي كرس كل حياته لخدمة قضية وطنه مصر.. ولد في ٤ أغسطس ١٨٧٤ وتوفي عام ١٩٠٨.. في عام ١٩٠٠ أصدر جريدة اللواء وهو صاحب الدعوى إلى إنشاء الجامعة الأهلية في عام ١٩٠٥ وندد بحادثة دنشواي عام ١٩٠٦.. وفي عام ١٩٠٧ أعلن عن الحزب الوطني رسميا باعتباره حزبا له لائحة وبرنامج ولجنة إدارية، وبعد وفاته في عام ١٩٠٨ عُهد إلى المثال الفرنسي الشهير «ليوبولد سافان» في عام ١٩١٠ بصنع تمثال للزعيم، وهو أول تمثال اكتتب فيه الشعب.

**** ميدان باب اللوق**.. أرض اللوق هي الأرض التي كانت مياه الفيضان تغمرها ثم تنحسر عنها فتتركها لينة لا تحتاج إلى «حرث» وتصبح صالحة تماما للزراعة.. وهذه الأرض اللينة كانت «تُلاق لوقا «أي تبذر فيها البذور..

ويُضغط عليها بألواح خشبية حتى تغوص البذور في الأرض.. التي لم تكن بحاجة إلى الري حتى تمام نضج النبات بسبب المياه التي تشبعت بها التربة خلال شهور الغمر طوال الصيف. وهناك رأي آخر لهذه التسمية (اللوق)؛ «فاللوق» أو «اللّق» هي الأرض المرتفعة.. وأرض اللوق كانت تمتد من ميدان عابدين شرقًا إلى المجرى الحالي للنيل غربًا.. ومن حي المنيرة جنوبا إلى شارع ٢٦ يوليو الحالي(شارع فؤاد سابقا).. وكان هذا في القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين).

وقد أنشأ الصالح أيوب ميدان باب اللوق ليلعب فيه فرسانه من المماليك البحرية الذين أسكنهم في جزيرة الروضة، ومن هذه الألعاب: الفروسية والرماية.. وكان لهذا الميدان سور وباب لدخول الفرسان واللاعبين والجمهور.. ومن هنا جاء اسم باب اللوق.

** **ميدان الأزبكية**.. نسبةً إلى الأتابك أزبك بن ططخ الذي بدأ في تعميرها عام ١٤٩٠، وأنشأ بها مسجدا كبيرا انتشرت حوله الحمامات والطواحين والربوع.. وهو من مماليك الأشرف برسباي، كما حفر بركة الأزبكية.. التي ردمها بعد أربعة قرون في عام ١٨٦٤ الخديو إسماعيل وأنشأ على أنقاضها حديقة الأزبكية في عام ١٨٧٢ وفيها جبلايات صناعية زُرعت فيها الأشجار النادرة. وكجزء من تعمير هذه المنطقة تم إنشاء دار الأوبرا عام ١٨٦٩ وأقيم تمثال إبراهيم باشا في عام ١٨٧٣.

** **ميدان عرابي**.. هو ملتقى أربعة شوارع مهمة (طلعت حرب، الألفي، عرابي، سيد درويش).. كان اسمه فيما سبق ميدان التوفيقية نسبة إلى الخديو توفيق، ثم تغير اسمه تكريما للزعيم أحمد عرابي.

** **ميدان الخازندار**.. موقعه بالقرب من ميدان العتبة وتصب فيه عدة شوارع هي «كلوت بك وقنطرة الدكة وعلي الكسار والبوستة والرويعي»، ويعود اسمه إلى المستشار أحمد أغا الخازندار وهو الذي اغتيل في صباح ٢٢ مارس ١٩٤٨ أمام منزله بحلوان، فيما كان متجها إلى عمله، على أيدي شابين

من الإخوان، على خلفية مواقف الخازندار المتعسفة في قضايا سابقة أدان فيها بعض شباب الإخوان لاعتدائهم على جنود بريطانيين في الإسكندرية بالأشغال الشاقة المؤبدة في ٢٢نوفمبر ١٩٤٧. وعندما علم حسن البنا المرشد العام للإخوان بالحادث قال غاضبا: لم أطلب اغتيال الخازندار.. وما قلته هو «لو حد يخلصنا منه» بما يعني أن كلماتي لا تزيد على الأمنيات ولم تصل إلى حد الأمر.

الشــوارع

**** شارع الفلكي**: هو أطول شارع يخرج من ميدان باب اللوق حتى يصل إلى مدرسة دار العلوم القديمة بالمنيرة (حديقة دار العلوم الآن). ومحمود باشا حمدي الفلكي هو أحد أعلام مصر وأنبغ علمائها في الفلك والرياضيات، ولد في عام ١٨١٥ وتوفي في عام ١٨٨٥ وقد ابتكر علم التقاويم السنوية مما جعل الناس يعرفونه باسم الفلكي.. أنشأ مزولة تبين ساعات النهار على سطح بيته بميدان الفلكي.

**** شارع قصر النيل**: من أقدم وأعرق شوارع وسط المدينة، وقد تم إنشاؤه بتكليف من الخديو إسماعيل في عام ١٨٨٢، وهو يبدأ من ميدان التحرير قاطعًا ميداني «طلعت حرب» و«مصطفى كامل».. ومارًّا بشوارع شريف باشا ومحمد فريد وعماد الدين، وينتهي شرقا بميدان الأوبرا وشارع الجمهورية عند جامع «الكيخيا».. كما يخرج منه عـدة شوارع فرعية منها: «الشريفين.. جواد حسنى.. الشواربي.. البورصة الجديدة».

وقد احتفظ شارع قصر النيل باسمه دون تغيير منذ تاريخ إنشائه حتى اليوم. وجاء اسم قصر النيل لكلٍّ من الشارع والكوبري (عام بناء الكوبري ١٨٧٢) على اسم السرايا التي بناها محمد علي باشا لابنته «نازلي هانم» على ساحل النيل شمال موقع كوبري قصر النيل.. ثم هدمها سعيد باشا ليبني محلها

ثكنات الجيش المصري التي استخدمها فيما بعد جيش الاحتلال البريطاني في مصر كثكنات لجنوده. وفي عام ١٩٥٠ تم إزالتها وبناء مبنى جامعة الدول العربية ثم فندق هيلتون ومبنى الاتحاد الاشتراكي (الحزب الوطني حاليا) في موقعها.. كما أُدخل جانب من الفراغ شرق المباني في ميدان التحرير.

**** شارع طلعت حرب باشا** (سليمان باشا سابقا): من أشهر وأهم شوارع وسط البلد.. ويبدأ من ميدان التحرير ويتقاطع مع شوارع عبد السلام عارف، قصر النيل، عبد الخالق ثروت، ٢٦ يوليو، ويتفرع منه شوارع هدى شعراوي ومحمد صبري أبو علم ومحمود بسيوني ومعروف وعبدالحميد سعيد وعدلي باشا..

سُمي أولًا على اسم الكولونيل «أوكتاف جوزيف سيف» أو (سليمان الفرنساوي) الذي أسند إليه محمد علي في عام ١٨١٩ تكوين جيش مصري على الأسس الأوروبية الحديثة.. وكان سليمان الفرنساوي الساعد الأيمن للقائد إبراهيم باشا وخاض معه كل حروبه في المورة (١٨٢٤) والشام والأناضول (١٨٢٩) ووصل إلى رئاسة الجهادية (وزير الحربية). ولكفاءته بقي في منصبه خلال عهد محمد علي وإبراهيم وعباس الأول وسعيد.. وقد أسلم واختار له محمد علي اسمًا عربيًا هو «سليمان».. وزوجه من إحدى بنات أسرة محمد علي وقد أنجب ولدًا سماه الإسكندر وثلاث بنات هن «نازلي» و«أسماء» و«زهرة».. ونازلي هي الابنة التي تزوجت «محمد شريف» رئيس وزراء مصر فيما بعد ومنها أنجب توفيقة هانم التي تزوجت عبد الرحيم باشا صبري وأنجب منها نازلي الثانية التي تزوجت من السلطان فؤاد قبل أن يُتوج ملكا لمصر وأنجبا عام ١٩٢٠ ابنهما الوحيد فاروق ملك مصر فيما بعد.. وقد توفي سليمان الفرنساوي في ١١ مارس ١٨٦٠ ودُفن بمصر القديمة بمنطقة الفرنساوي.

في عام ١٨٧٢ صنع له المثال «جاك مار» تمثالًا وضع بميدان سليمان باشا، إلا أنه رُفع فيما بعد ونُقل إلى المتحف الحربي بالقلعة ليوضع محله تمثال الاقتصادي «طلعت حرب باشا» الذي دعم النهضة الاقتصادية في مصر خلال العشرينيات من القرن العشرين.

**** شارع منصور**: هو الشارع الذي يتوسط مبنى الغرفة التجارية وسوق باب اللوق، وهو يبدأ من هذه النقطة وينتهي عند المركز الفرنسي بالمنيرة. وهناك أكثر من رأي عن الشخصية المسمى باسمها الشارع.. الرأي الأول يقول إن اسم الشارع يعود إلى **منصور فهمي** وهو أحد الفلاسفة الأدباء الذين ساهموا بنصيب وافر في حركات الإصلاح في أوائل القرن الماضي.. ولد في عام ١٨٨٦ وتوفي في عام ١٩٥٩.. نال رسالة الدكتوراه من باريس عن أطروحته «حالة المرأة في التقاليد الإسلامية».. تولى منصب مدير دار الكتب المصرية (التي أنشئت بقرار من الخديو إسماعيل عام ١٨٧٠) بعد أحمد لطفي السيد ومحمد أسعد برادة. في عام ١٩٢٠ أصبح عميدا لكلية الآداب، ثم مديرا لجامعة الإسكندرية عام ١٩٤٦، كما عمل بجريدة الأهرام محررا أدبيا.. وفي عام ١٩٥٤ أصدر كتابا يحتوي على مجموعة محاضراته عن الكاتبة مي زيادة.

والرأي الثاني يرجح نسبة الشارع إلى شفيق منصور وهو من الجناح العسكري للحزب الوطني القديم ثم حزب الوفد.. وقد اتهم ضمن المجموعة التي اتهمت بقتل بطرس غالي في عام ١٩٠٤ ثم أفرج عنه، وفي ٢٠ نوفمبر ١٩٢٤ قتل قائد جيوش المملكة المتحدة في مصر وحاكم السودان السير «لي ستاك»(١٩١٧ ـ ١٩٢٤) والذي كان اغتياله ضربة قاصمة للإنجليز.. ونكاية في مصر أقاموا له جنازة مهيبة وأجبروا أفراد العائلة المالكة ورؤساء الأحزاب وشيوخ الأزهر والقساوسة وكبار رجال السياسة والصحافة على السير وراءها.. كذلك أجبروا مصر على دفع غرامة مالية باهظة (نصف مليون جنيه

مصري)، وأن تصدر خلال ٢٤ ساعة الأوامر بسحب جميع الضباط المصريين ووحدات الجيش المصري من السودان، وأن تعدل من تلك اللحظة عن أي معارضة لرغبات الحكومة البريطانية فيما يتعلق بحماية المصالح الأجنبية في مصر.. أعدم شفيق منصور في عام ١٩٢٤ وأطلق اسمه على الشارع عام ١٩٣٨ في عهد حكومة الوفد.

** **شارع محمد محمود**: يبدأ من ميدان التحرير وينتهي عند قصر عابدين، واسمه نسبة لمحمد محمود باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين قبل الثورة.. ولد بأسيوط عام ١٨٧٧ وتوفي بالقاهرة عام ١٩٤١. كان مديرا للفيوم قبل الحرب العالمية الأولى، وعين رئيسا للوزراء في عهد فؤاد الأول عام ١٩٢٨ وأعطته هذه الوزارة لقب صاحب اليد القوية، وشكل أربع وزارات حتى وفاته في عام ١٩٤١.

** **شارع البستان**: أنشأه السلطان الناصر محمد المملوكي.. وفيه كان يقع قصر البستان الذي سكن فيه الأمير فؤاد قبل أن يصبح سلطانا على مصر ثم ملكا عليها.. وهو القصر الذي أصبح مقرًّا لجامعة الدول العربية قبل أن ينتقل إلى مبناها الحالي المواجه لوزارة الخارجية.. وقد تم هدم القصر وتحول الآن إلى جراج متعدد الأدوار (مول البستان).

** **شارع شريف**: نسبة إلى «أبو» الدستور المصري محمد شريف باشا.. وقد تولى رئاسة مجلس شورى النواب في عام ١٨٧٥ ووقع عن الحكومة المصرية معاهدة إلغاء تجارة الرقيق عام ١٨٧٧. ومن المعروف أنه أيضًا جد الملكة نازلي والدة فاروق.

** **شارع الألفي**: أحد مماليك مراد بك الذي أعتقه وقلده الإمارة في عام ١٧٧٨ واشتهر بالعنف والفجور فهابه الناس.. وفي ٢٧ فبراير ١٧٩٨ انتهى من إنشاء أفخم قصور الأزبكية والذي جعله تحفة معمارية رائعة على الجهة

الغربية من بركة الأزبكية. وعندما دخل الفرنسيون القاهرة في يوليو ١٧٩٨ احتلوا القصر واتخذه نابليون سكنا له ومقرًّا لقيادة الحملة الفرنسية.. وقد أبلى الألفي بلاءً حسنا في معركة إمبابة ولم يستسلم بعد الهزيمة وظل يحارب الفرنسيين وعمل مع العثمانيين ثم الإنجليز.. وبسبب حذره الشديد لم يكن ينام في دار واحدة أكثر من ليلتين.. وكانت قواته تمثل نصف قوات المماليك مجتمعة إذ كان يتملك أكثر من «١٠٠٠ مملوك»، وربما لهذا السبب كان اسمه.

**** شارع محمود بسيوني:** يصل بين ميدان طلعت حرب وشارع ميريت باشا قاطعا شارع شمبليون.. وهو واحد من رجال القانون والسياسة المصريين.. ولد في ١٨٧٦ وتوفي في ١٩٤٨. شارك مع ثورة ١٩١٩ وانتخب نقيبا للمحامين مرتين: الأولى في ١٩٢٩ والثانية في ١٩٤١، وعُين وزيرا للأوقاف ورئيسا لمجلس الشيوخ وعُرف بمواقفه الوطنية العميقة.

**** شارع صبري أبو علم:** شغل منصب سكرتير عام الوفد في ١٩٤٣ حتى يوم وفاته في ١٤ إبريل ١٩٤٧، وهي فترة توصف بأنها أخصب فترات العمل الشبابي في الوفد.. صاحب امتياز صحيفة «صوت الأمة».. وكان مشاركا باللجنة التي أعدت مشروع إلغاء الامتيازات الأجنبية.. كان وزيرا للحقانية (٣ أغسطس ١٩٣٧ ـ ٣٠ من ديسمبر ١٩٣٧) ووزيرا للعدل (٢٦ مايو ١٩٤٢ حتى ٨ أكتوبر ١٩٤٤).

**** شارع هدى شعراوي:** رائدة النهضة النسائية في مصر.. انخرطت في الأحداث السياسية التي مرت بها مصر وأهمها ثورة ١٩١٩ واشتركت في المظاهرات ضد الاحتلال البريطاني.. وأسست في ١٩٢٢ الاتحاد النسائي المصري ولها الفضل في تغيير الصورة السلبية التي طُبعت في أذهان الأوروبيين عن المرأة المصرية.. وقد أُختيرت نائبة لرئيسة الاتحاد النسائي

الدولي في ١٩٣٥ ورأست المؤتمر النسائي الشرقي في مصر عام ١٩٣٨ والذي ناقش القضية الفلسطينية ومساعدة الفلسطينيين وضحاياهم. وكان موقع قصر هدى شعراوي في أول شارع قصر النيل من جهة ميدان التحرير وقد هدم تماما وحل محله جراج كبير.

** **شارع عبد الخالق ثروت**: سياسي مصري ولد في ١٨٧٣، درس القانون واشتغل بالقضاء وعين وزيرا للعدل في عام ١٩١٤ ووزيرا للداخلية في ١٩٢٢ ورأس مجلس الوزراء في الفترة من ١٩٢٢ حتى ١٩٢٣ وهو الذي فاوض الإنجليز للتوصل إلى اتفاقية مصرية بريطانية وإصدار تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢.

** **شارع عدلي**: سُمي على اسم عدلي يكن باشا الذي ولد في ١٨٦٦ وهو أول رؤساء حزب الأحرار الدستوريين (أكتوبر ١٩٢٢) وقد شغل منصب الوزير لأكثر من خمس سنوات متصلة في مواقع وزارية مختلفة من ٥ إبريل ١٩١٤ حتى ٢٢ إبريل ١٩١٩ وعُين رئيسا لوزراء مصر ثلاث مرات.

** **شارع عبد العزيز**: ويبدأ من العتبة حتى قسم عابدين، وهو على اسم السلطان عبد العزيز سلطان تركيا (١٨٦١ ـ ١٨٧٦م) تخليدا لزيارته المثمرة لمصر في إبريل ١٨٦٣م خلال فترة ولاية إسماعيل باشا.. وهو أول سلطان عثماني يأتي إلى مصر زائرا بعد السلطان سليم الأول الذي أتاها غازيا في ١٥١٧م.

** **شارع محمد مظلوم**: في عام ١٩٢٠ وفد إلى القاهرة أحمد محمد مظلوم باشا عضو مجلس الشيوخ وقام بتشييد فيلا بالشارع المسمى سابقًا بالبستان والآن عبد السلام عارف. وقد وضع تصميم هذه الفيلا مهندس فرنسي هو رولان واستجلب لبنائها كل مواد البناء والقرميد من فرنسا واستدعى مشاهير الفنانين لعمل ديكوراته الداخلية. وكان المبنى في بادئ

الأمر يتكون من طابقين على مساحة تبلغ ضعف المساحة الموجودة حاليا.. وعندما توفي أحمد محمد مظلوم عام ١٩٢٨ قام أحد ورثته في بداية الحرب العالمية الثانية بتأجير المنزل إلى أحد نوادي الضباط الإنجليز.. وفي ١٩٥٠ بيع المنزل إلى المهندس أنطوان نحاس. ومع جلاء الإنجليز عام ١٩٥٦ تم تأميم المنزل وقامت الحكومة المصرية بتأجيره إلى معهد جوته الألماني عام ١٩٥٧، وبعد توقيع اتفاقية التعاون المشترك بين ألمانيا الاتحادية ومصر عام ١٩٥٩ استطاعت جمهورية ألمانيا الاتحادية شراء هذا المنزل عام ١٩٩١.. تم تسمية شارع محمد مظلوم على أحد الشوارع الصغيرة المتقابلة مع شارع البستان حيث موقع مقهى الحرية.

** **شارع شمبليون**: تخليدا لشخصية «جان فرنسوا شمبليون» (١٧٩٠ ـ ١٨٣٢) الذي نبغ في دراسة تاريخ مصر الفرعونية.. ويعود إليه الفضل في حل طلاسم اللغة الفرعونية عن طريق نقوش حجر رشيد.

** **شارع ٢٦ يوليو**: كان اسمه شارع الملك «فؤاد الأول» وبعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تغير إلى ٢٦ يوليو وهو يوم تنازل الملك فاروق عن العرش في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢.

** **شارع محمد فريد**: يصل حاليا من شارع الناصرية الى ميدان مصطفى كامل، وهو على اسم السياسي المصري المجاهد في سبيل وطنه محمد بك فريد الذي ولد في ١٨٦٦ وتوفي ١٩١٩.. وهو الذي خلف الزعيم مصطفى كامل في رئاسة الحزب الوطني.. وقد أنفق كل ثروته في خدمة القضايا الوطنية. ويسجل له التاريخ أنه وقف إلى جانب تعليم أبناء الشعب ودعا إلى افتتاح المدارس الليلية وساهم في تحريك الطبقة العاملة المصرية نحو ممارسة النضال للحصول على بعض المكاسب الاقتصادية.

** **شارع رشدي**: على اسم حسين رشدي باشا وهو من أقطاب السياسة

المصرية.. كان ناظرا للمالية في ١٩٠٨ ووزيرا للخارجية في حكومة محمد سعيد باشا.. وفي ١٩١٤ عُين ناظرا للنظار مع احتفاظه بوزارة الداخلية.. وظل رئيسا للوزراء في عهد السلطان حسين كامل.. واستمر حتى بعد تولي «السلطان فؤاد».. حيث شكل وزارته الثالثة في ١٩١٧ والتي بقيت حتى ثورة ١٩١٩.. أما وزارته الرابعة فلم تدم إلا أياما قليلة.. من مواقفه الوطنية: مطالبة الإنجليز بمنح المصريين جنسية مستقلة بمعنى تحديد هوية مصرية وجواز سفر مصري.

** **شارع سليمان الحلبي**: على اسم الطالب الأزهري السوري الأصل والمنشأ الذي ولد في ١٧٧٧ وقد أقام ثلاث سنوات بمصر طلبا للعلم في الأزهر الشريف.. وهو الذي اغتال الجنرال كليبر قائد جيش الشرق الفرنسي الذي خلف نابليون بونابرت بعد رجوعه إلى فرنسا.. تم القبض عليه في ١٤ يونيو ١٨٠٠ وحوكم أمام محكمة عسكرية فرنسية فقضت عليه بالموت صلبا على الخازوق بعد أن تُحرق يده اليمنى.. نُفذ فيه الحكم ١٧ يونيو ١٨٠٠ وعُلقت إلى جانبه رءوس ثلاثة من علماء الأزهر.. وقد تم تمجيد البطل الصغير الذي قضى نحبه وهو ابن ٢٢ سنة بإطلاق اسمه على أحد شوارع القاهرة.. بينما احتفظت فرنسا بالخنجر الذي استخدمه في قتل كليبر في مدينة «كركاسون» بفرنسا.. كما احتفظت أيضا برأس الشاب «سليمان الحلبي» محنطا. ومازال حتى الآن يُعرض من خلال دولاب زجاجي على زوار المتحف الجنائي بباريس.. وأسفله لافتة تقول «رأس قاتل.. الاسم / سليمان الحلبي».

** **شارع عرابي**: يصل بين ميدان عرابي وشارع رمسيس قاطعا شارع سليمان الحلبي وينتهي عنده شارع محمد نجيب.. واسم الميدان والشارع على اسم الزعيم أحمد عرابي الذي تزعم ثورة الشعب والجيش المصري في ١٨٨١ ـ ١٨٨٢ للقضاء على النفوذ الأجنبي وإقامة حياة نيابية دستورية.. وهو الذي قاد أيضا الجيش المصري ضد القوات البريطانية عند غزوهم مصر وحقق نجاحات

في بعض المعارك، إلا أنه تعرض للتآمر داخليا وخارجيا الذي تسبب في هزيمة الجيش المصري في معركة التل الكبير واحتلال القاهرة في ١٥ سبتمبر ١٨٨٢.. قدم للمحاكمة بعد الاحتلال وصدر ضده حكم بالإعدام ثم بدل بالنفي إلى جزيرة سيلان.. ظل منفيا لمدة ١٩ عاما، ثم تم العفو عنه وعاد إلى مصر في ١٩٠١ وتوفي بالقاهرة في ١٩١١.

**** شارع الشيخ سيد درويش:** أحد الشوارع الضيقة الفرعية التي تخرج من ميدان أحمد عرابي وتصل بين الميدان وشارع رمسيس.. وتميز هذا الشارع بمحلات البقالة والمطاعم والمباني التي تعود إلى مطلع القرن العشرين حيث أنشئت في عام ١٩١٠ وهي ذات أربعة وخمسة أدوار.. واسم الشارع يعود إلى الموسيقار سيد درويش وهو واحد من كبار الملحنين المصريين الذين ظهروا في مطلع القرن العشرين.. نبغ ولمع في مجال التلحين واشتهر بالألحان الشعبية لمختلف الطوائف وكذلك ألحان المسرح الغنائي إلى جانب الأدوار والموشحات.. ومن أشهر أعماله أوبريت العشرة الطيبة والنشيد الوطني «بلادي بلادي».. توفي في ١٩٢٣ وهو لم يتجاوز الثلاثين عاما.

**** شارع نجيب الريحاني:** يبدأ من ميدان الخازندار ويمتد غربا قاطعا شارع الكنيسة المرقسية وشارع الجمهورية عند ميدان قنطرة الدكة ثم شارع عماد الدين وينتهي عند شارع عرابي.. ونجيب الريحاني هو من أقدر ممثلي الكوميديا الذين ظهروا على خشبة المسرح العربي في النصف الأول من القرن العشرين.. ولد في ١٨٩٢ بحي «باب الشعرية» وتوفي عام ١٩٤٩.

**** شارع عماد الدين:** وهو شارع مشهور بكثرة المحال العامة للهو والترفيه مثل المسارح ودور السينما وصالات الغناء، ويصل من شارع رمسيس بالقرب من ميدان باب الحديد إلى ما بعد شارع الناصرية، مارا بميدان مصطفى كامل وحي عابدين وقد تم تقسيم الشارع إلى قسمين: الأول هو الشمالي ويمثل ربع

طول الشارع تقريبا وهو الذي اسمه عماد الدين نسبة إلى صاحب ضريح بنفس الاسم توفي عام ١٦٦١م في فترة الحكم العثماني لمصر وموقعه بالقرب من تقاطع شارع محمد فريد وشارع الشيخ ريحان. أما الجزء الثاني الحنوبي من الشارع فهو الذي يطلق عليه حاليا شارع محمد فريد.




وق باب اللوق ١٩١٢
يوسف للآلات الموسيقية



سوق باب اللوق

في فبراير عام١٩١١ تم تأسيس شركة الأسواق المغطاة بمبادرة قام بها بنكان فرنسيان من البنوك الأجنبية التي كانت تعمل في مصر آنذاك، برأس مال مقداره ٣٠ ألف جنيه مصري استجابة لإستراتيجية الحكومة المصرية للقضاء على الأوبئة وتحسين مستوى الصحة العامة، حيث كان وباء الكوليرا منتشرا في تلك الفترة، وأيضا تلبية للاحتياجات الجديدة للطبقة العليا في القاهرة التي تفضل الشراء من مكان واحد ولإدخال تكنولوجيا التخزين المبرد التي كانت مستحدثة في ذلك الوقت..

كانت هناك نماذج للأسواق قبل سوق باب اللوق مثل سوق العتبة المغطى الذي أنشأته البلدية وسوق محطة مصر الذي أنشأته شركة خاصة..

فضل ملاك شركة الأسواق المغطاة ومنهم أدولف وجوزيف قطاوي اختيار مكان جديد في قلب القاهرة، ووقع اختيارهم على منطقة باب اللوق لأن بها محطة الترام الكبرى (خط باب اللوق ـ حلوان) التي تملكها عائلة قطاوي عام١٩٠٤ بالإضافة إلى امتلاكها كازينو حلوان الشهير وعدة مرافق وفنادق على طول الخط، كما أن خطوط الترام الأخرى الموصلة لمنطقة الزمالك وجاردن سيتي ووسط البلد والجيزة كانت تتقاطع جميعا في باب اللوق وهي الخطوط التي أزيلت في ثمانينيات القرن الماضي..

تصميم سوق باب اللوق: يعتقد أن من وضع تصميمه هو جوزيف قطاوي

الابن الذي تخرج من كلية باريس للهندسة وشارك في تصميم عدة مشروعات كبرى واشترك في مسابقة عالمية لتصميم محطة ترام الإسكندرية الرئيسية بمحطة الرمل.

افتتح السوق في مايو عام١٩١٢ وأقيم على مساحة تبلغ ٦٠٠٠ متر مربع وهو منشأ على دورين على شكل حدوة حصان وتشتمل مرافقه على محال لبيع البقالة والفواكه والخضر والمطاعم والمقاهي والحانات والمخابز ومكتب للاتصال التليفوني وبنك.. والدور العلوي مخصص للمكاتب التجارية.

والسوق بمعايير تلك الأيام يحتوي على نظام ممتاز للشحن والتفريغ، وهو شيء جديد تماما في هذه الفترة.. هناك أيضا قبو تابع للسوق فيه مخازن مبردة لتخزين منتجات الألبان والفواكه لفترات طويلة حتى إن جريدة الأهرام ذكرت أن المستهلك يستمتع بالمانجو في يناير والفراولة في يوليو كما يجد الزبون البيرة والخمور محفوظة بطريقة سليمة طوال اليوم.. ووضعت للسوق اشتراطات صحية تقارن بأفضل ما كان مطبقا في أوروبا في هذا الوقت.

تدهور هذا السوق الآن تدهورا كبيرا واختفى بدرومه ولعله ردم، واكتظ بالمباني العشوائية وحلت محلات فاخرة سيئة الطراز بدلا من محاله القديمة العربية التي كانت تشكل واجهة ممتازة.

المقاهي

** **القهوة:** يربط «ستيوارت لي آلن» اكتشاف البن (القهوة) بحكاية أسطورية شائعة، مضمونها أنه منذ ألف عام، لاحظ راعي ماعز أثيوبي أن إحدى عنزاته أخذت تتراقص و«تمأمئ» بصورة هيسترية.. ولاحظ الراعي أن الأمر يتكرر كلما تناولت العنزة ثمرة معينة، فما كان منه إلا أن وضع حدًّا لفضوله وقام بتجريب هذه «الثمرة» الغريبة فإذا بنشاط مفاجئ ينتابه كلما تناولها.. وكان للراعي «عم» متصوف يقضي ليله متعبدًا، فقدم له الراعي تلك الثمرة فتناولها المتصوف فإذا بها تبقيه يقظًا وتمنع عنه النعاس، فراح يقدمها لمريديه، فذاعت شهرة هذا الحكيم الذي توقظ حكمته تابعيه طول الليل.

أول من تناول القهوة هو قبائل الأورومون التي عاشت في مملكة «كيفا» بشرق إثيوبيا. وكلمة كوفي Caffée مشتقة من اسم تلك المملكة.. وإذا كان «الإثيوبيون» هم أول من عرف القهوة إلا أنهم لم يشربوها بل كانوا يسحقونها ويخلطونها بالدهن ويتناولونها على هيئة أقراص. ويُعد العرب هم أول من صنعوا منها مشروبا.

وقد شاع اعتقاد بنهاية القرن السابع عشر في تركيا بقدرة القهوة على الشفاء من الأمراض إلى الحد الذي يروى معه السير «هنرى بلونت» الذي زار المنطقة في ذلك الوقت أنه «عندما يقع أحد الأتراك فريسة للمرض فإنه يسارع بتناول القهوة، فإن لم تأت بنتيجة فإنه يكتب وصيته ولا يفكر في شيء آخر».

عام ١٧٧٧ شن فريدريك الأكبر حملة كبيرة لحظر القهوة في بروسيا دفاعًا عن صناعة البيرة التي رأى فيها رمزًا للهيمنة الألمانية، وكان ذلك في وقت ساد فيه شعار «لا تثق بأي شيء غير ألماني».

ويبدو أن المقاهي تمتعت في البداية بسوء السمعة؛ فقد كانت تُعتبر «أوكارًا للبغاء والشذوذ الجنسي»، ففي بغداد في بداية القرن السادس عشر كانت القهوة يقدمها للزبائن غلمان على قدر كبير من الجمال ويرتدون ثيابا غالية. وفي إستانبول يحرص أصحاب المقاهي على استخدام صبية يتمتعون بالحسن والوسامة لكي يكونوا طُعما لاجتذاب الزبائن.

بعد ذلك استُغلت المقاهي كملتقى تجمع جماهيري. ويُنسب لدوهسون الذي زار المنطقة في القرن الثامن عشر إغلاق المقاهي في إستانبول إلى أسباب سياسية بعد أن أصبحت في عهد مراد الرابع أماكن لقاء لأشخاص وجنود متمردين.

وفي القرن التاسع عشر كانت حكومة محمد علي في مصر شديدة القلق من أحاديث التمرد والعصيان في مقاهي القاهرة، بحيث جندت جواسيس لكي يصغوا للأحاديث التي تدور فيها.

وفي لندن ظهرت الميول الديمقراطية الأولى في المقاهي التي كانت قد بدأت تنتشر حديثا (عام ١٦٥٠ افتتاح أول مقهى في لندن والعالم الغربي) فالقهوة بطبيعتها تحفز الذهن على الإفاقة والتركيز ولذلك أصبحت بديلًا للحانات كمكان للتجمع والحديث واللقاء. واختلفت موضوعات النقاش ودرجة جديته. فالحانات لم تكن أبدا أماكن صالحة أو آمنة لمناقشة أمور في الدين أو في السياسة، حيث كان الرواد في الغالب مخمورين ومسلحين، وهي توليفة خطرة، لذلك حرص أصحاب الحانات على تجنب المناقشات الساخنة. أما المقاهي فكانت على الجانب الآخر ساحات للحوارات السياسية.. وهو السبب الذي جعل الملك «تشارلز الثاني» يغلق جميع المقاهي عام ١٦٧٥ ثم اضطر للعدول عن قراره بعد أحد عشر يوما. وفي

أواسط القرن التاسع عشر حرمت الحكومة الإنجليزية على رعاياها شرب القهوة. لأن حبات البن كانت تعرف يومذاك باسم «حبات محمد».. وكان هناك اعتقاد بأن من يشرب القهوة يرتد عن المسيحية إلى الإسلام.

** **«النرجيلة»**.. مشتقة من لفظ «نارجيل» وهو الاسم الذي يُطلق على ثمر جوز الهند، ويمكن القول إن ترجمته الحرفية تعني «الجوزة» وهي الاسم الذي تُعرف به النرجيلة الشعبية في مصر.. لأنها كانت مكونة فعلًا من ثمرة جوز هند مفرغة، وتُثقب مرتين، ثقب يوضع فوقه الحجر، وثقب تُنفذ من خلاله أنبوبة خشبية يتم من خلالها استنشاق الدخان الذي يمر خلال الماء الموضوع في الجوزة نفسها.

** **الشيشة**.. كلمة فارسية تعني الزجاج تبعًا للوعاء الزجاجي الذي يُملأ بالماء إلى قدر معين ليمر الدخان من خلاله. وتنقسم الشيشة في مصر إلى نوعين رئيسيين: «عجمي» وهو نوع خاص من الدخان مصدره إيران أو تركيا، و«الحمي» وكمية دخانها أقل ونوعيته أهدأ وهو الأكثر انتشارًا.

** **«خرمنجي الشاي»**.. مهنة تمت إضافتها منذ سنوات قليلة، عندما أسست إمارة دبي وحدة لتذوق الشاي تضم عددا من «الخرمنجية» على رأسهم موظف كبير ليكون مسئولا عن التفرقة بين آلاف الأنواع والأصناف من الشاي التي تستورد من أكثر من ٣٥ دولة آسيوية وإفريقية. ويضطر هذا «الخرمنجي» إلى تذوق أكثر من ٥٠٠ كوب من الشاي يوميا.ومن المعروف أن تلك المهنة وجدت بوجود مصانع الدخان الكبرى، وكانت تلك المصانع تستخدمه لتذوق نوع التبغ وتحديد نسبة الخلطة بطريقة دقيقة للمحافظة على نكهة السجائر بحيث لا يشعر المدخن بتغير طعم سيجارته التي اعتاد عليها. وهؤلاء «الخرمنجية» يحصلون على رواتب كبيرة تعويضا عن المخاطر الصحية التي قد يتعرضون لها.

** في بدايات القرن العشرين في شارع محمد فريد عند نهاية شارع قصر النيل من جهة ميدان مصطفى كامل كانت هناك حديقة واسعة، تتوسطها

نافورة تدفع الماء إلى أعلى.. وقد حفتها بيوت مقامة من الخشب البغدادي المعروش بالشجر المتهدل، وقد صف في كل بيت من هذه البيوت مائدة واحدة محفوفة ببضعة مقاعد، كان الفنانون والشعراء والعشاق يجلسون فيها.. وكان خير ما يقدم في هذا المكان الشاعري الظلال شراب الشاي... وكان هذا المحل إنجليزي الطابع حتى إن المشرفين عليه كانوا من الإنجليز. واسم هذا المكان هو «مشرب ليبتون» على اسم ملك الشاي في العالم وصاحب العلامة التجارية الأولى في العالم لهذا الصنف. ومن المعروف أن السير توماس جونستون ليبتون من مواليد ١٠ مايو ١٨٥٠، ولد في جلاسكو وتوفي بلندن في ٢ أكتوبر ١٩٣١، وقد كان رجلا عصاميا، وهو الذي صنع شاي ليبتون وأطلق عليه اسمه. وفي عام ١٨٦٥ انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية للبحث عن عمل، ثم عاد بعد خمس سنوات إلى بريطانيا وافتتح أول محلاته في مدينة جلاسكو، وفي عام ١٨٨٨ وصل عدد محلاته إلى ٣٠٠ محل.. وفي تلك اللحظة قرر دخول السوق العالمي للشاي وبدأ يبيع الشاي بأسعار زهيدة للعمال والفقراء، ثم تمكن من زيادة جودة الشاي حتى أصبحت العلامة التجارية لمنتجه من أبرز العلامات التجارية في العالم.

المقاهي الشهيرة

**** مقهى سفنكس** بشارع طلعت حرب أمام سينما راديو في الممر الذي بداخله المركز الثقافي الهندي ودار الشاي الهندي. وكان من المقاهي الشهيرة التي يرتادها المثقفون خصوصا بعد انتقال الأستاذ نجيب محفوظ بندوته إليه عقب رحيله من كازينو الأوبرا قبل التحول إلى مقهى ريش.. تم بيع هذا المقهى في منتصف الثمانينيات وتم تحويله إلى محل أحذية شهير الآن (أولاد يحيى).

**** مقهى ركس**.. بشارع عماد الدين هو المقهى الأشهر والأميز بالشارع.. أُنشئ عام ١٩٣١ وامتلكه الخواجة «داود عدس» ثم امتلكه الخواجة اليوناني «جناكليس» الذي جدده واستورد له الكراسي الخشبية من باريس وأطلق عليه «ركس» إحياءً لاسم بعض أهله.. وهو يملك أيضا محل «أكسلسيور» بشارع سليمان باشا.. ومن رواده نجيب الريحاني وأعضاء فرقته واستيفان روستي.. وصدر قرار تأميم في ١٩٦٥ لشركة النقل النهري التي يمتلكها «جناكليس» صاحب المقهى وحصل على خمسة آلاف جنيه مقابل الشركة التي كانت تساوي ١,٥ مليون جنيه.. واكتأب جناكليس.. وفي يوم عيد ميلاده من نفس العام صدمته سيارة في ميدان التوفيقية. ولم تتمكن زوجته اليونانية من إدارة المقهى واشترطت في أثناء بيعه على أصحاب المقهى الحاليين أن تظل معالمه كما هي.. وبالفعل ظلت صورة المقهى لأكثر من ٦٠ عاما بعدها كما هي.

ومقهى ركس كان بمثابة بورصة للفن خلال الأربعينيات والخمسينيات، وكثير من عقود الأفلام الكبرى الشهيرة تم توقيعها على طاولات المقهى ومنها فيلم «الناصر صلاح الدين».. للمنتجة الشهيرة آسيا.. ومن الطريف أنه في بداية المقهى كان هناك «صالون حلاقة» ملحق به ونفس الأمر في مقهى الحرية.

**** مقهى فينكس بعماد الدين**.. وهو من المقاهي الشهيرة التي أنشئت في النصف الأول من القرن العشرين، وكان يتميز بمساحته الكبيرة وزبائنه متعددي النوعيات؛ فمنهم المواطنون العاديون والممثلون الثانويون والعاملون بالمهن الفنية المتعلقة بالمسارح والغناء والسينما.. وكانت تعقد به ندوة مهمة مساء كل يوم أحد للكاتب والناقد الكبير عبد الفتاح الجمل المشرف على الصفحة الثقافية بجريدة المساء في منتصف الستينيات وحتى أوائل الثمانينيات والذي له فضل كبير في تدعيم ومؤازرة جيل الستينيات من الكتاب البارزين الآن، ومنهم جمال الغيطاني ومحمد البساطي وإبراهيم أصلان، وكان يحضر هذه الندوة أيضا المخرج الكبير محمد كامل القليوبي.. وبالإضافة إلى هذا الدور التنويري الكبير لعبد الفتاح الجمل فله أيضا رواية جميلة اسمها «محب» وكتاب أروع اسمه «وقائع عام الفيل».

وبمناسبة هذه الندوة تحضرني حكاية حدثت في بداية حياتي الأدبية في أوائل الثمانينيات، وكنت قد كتبت قصة قصيرة رمزية فيها تعرض لكامب ديفيد، وأردت نشرها فوجهني الكاتب الصحفي الكبير محمد نجيب إلى دار أخبار اليوم لمقابلة الأستاذ عبد الفتاح البارودي الذي لم يكن من أنصار عقد الندوات بالمقاهي، وكان يكتب فقط زاوية يومية عنوانها «للنقد فقط» بجريدة الأخبار خصصها فترة طويلة لمتابعة أشعار ورباعيات صلاح جاهين التي كان

ينشرها بجريدة الأهرام.. وكان البارودي يسخف من أشعار ورباعيات جاهين ويفضح أخطاءها العروضية.. وكان نقده سليما من تلك الزاوية لكن بقيت وستبقى أشعار الرائع صلاح جاهين واندثرت كتابات البارودي..

قابلني عبد الفتاح البارودي ببشاشة عندما عرف أن الكاتب محمد نجيب هو الذي أرسلني وأخذ مني القصة ووعدني بنشرها في خلال أسبوع.. مرت أسابيع ثلاثة ولم تنشر القصة وأصر محمد نجيب على أن أذهب إلى عبد الفتاح البارودي مرة أخرى لعله نسي القصة أو ضاعت منه، وقال ما معناه إن عبد الفتاح لن يخلف له طلبا.. وبمجرد أن رآني عبد الفتاح حتى اربد وجهه وتغير تغيرا شديدا وصرخ في وجهي بكلمات لم أتبينها واتهامات مرسلة بأني يساري ومدسوس عليه.. وانكمشت في ركن الغرفة أتحين فرصة للفرار بجلدي..

هدأ الأستاذ قليلا ونظر إلي فصعب عليه حالي. أمرني بالجلوس فجلست مرتعدا، وظل يسألني أسئلة مباحثية عن دراستي وكليتي وكيف تعرفت على الأستاذ محمد نجيب ومن هم أصدقائي ومعارفي، وعندما طمأنته سذاجتي نصحني بأن أبتعد عن الكتابة بهذه الطريقة.. ثم أشار إلى البساط الأحمر الذي يتربع فوقه مكتبه الفاخر وأخبرني أن الشيوعيين في الستينيات والسبعينيات حرموه من هذا المكتب ووضعوه في حجرة حقيرة ومنعوه من الكتابة، وجاء الوقت الذي ينتقم فيه منهم.. ثم عندما استمر خوفي وشرودي ابتسم وقال لي بود:

يخرب بيتك كنت عايز تحبسني بقصتك دي.. ولا أقله ترجعني أودة الكرار!

ثم طلب مني أن أكتب بطريقة السباعي أو أمين يوسف غراب وأن أبتعد عن كتابة الشيوعيين الأوساخ. ثم تباسط معي أكثر وقال لي معلومات طريفة

عنه لم أكن أعرفها، منها أنه كان لاعبا كرويا شهيرا في منتصف الخمسينيات وكان اسمه في الملاعب «توتو» وهو اللاعب الوحيد الذي لعب للأهلي والزمالك وأحرز ثلاثة أهداف في مرمى الأهلي وهو يلعب بالزمالك وأيضا ثلاثة أهداف في الزمالك وهو يلعب بالأهلي.. وأخرج «دوسيها» به بعض قصاصات الصحف تشير إلى نجوميته وتميزه في لعب الكرة..انصرفت بعدما وعدته وعدا لم أحققه بأن أحضر له قصة جديدة لنشرها تتفق مع تصوره عن القصة القصيرة. وعندما أخبرت الأستاذ محمد نجيب وهو من مخضرمي الصحافة المصرية ومن عتاة الوفديين ضحك كثيرا وقال لي: على فكرة هو كان لعبه أحسن من كتابته! ثم أضاف لي معلومة أخرى عن عبد الفتاح البارودي وهي أنه زوج الفنانة اليهودية الجميلة نجوى سالم الشهيرة بضحكتها الدلوعة المتواصلة.

** **مقهى الحرية**: أُنشئ سنة ١٩٣٦ على أنقاض منزل الزعيم أحمد عرابي باشا (٣ شارع مظلوم) في ميدان باب اللوق «الفلكي سابقا»، وتم تسميته بمقهى الحرية لدلالة ذلك الاسم في عام ١٩٣٦ وشجنه المخضب بدماء شهداء وأصوات ملايين الرجال والشيوخ والنساء الذين هتفوا طويلًا للحرية.. والمقهى يحتل الدور الأرضي في عمارة مشيدة على الطراز الإنجليزي ومساحته حوالى ٣٥٠ م٢ وارتفاعه ٥ أمتار و٨٠ سم، وبه بابان ارتفاع الواحد منهما ٣ أمتار ويبلغ ارتفاع الزجاج في كل باب منهما مترين، وفيه ركن خاص به بار محاط بحائط زجاجي، وكان قديما يضم «صالون» حلاقة مختصا بزبائن المقهى (وعدد ورثته الآن ٥٢ وريثا).

وكان المقهى ملتقى شهيرا للفنانين والمثقفين في ذلك الوقت أمثال محمد عبد المطلب وتحية كاريوكا وعبد السلام محمد وبشارة واكيم، والشاعر الكبير كامل الشناوي الذي كان يكتب ويقرأ فيه. ومن رواده أيضا بيرم التونسي وزكريا أحمد ورشدي أباظة وحسن الإمام وأنور السادات وأحمد رمزي وفطين عبد

الوهاب وشكري سرحان، ويوسف إدريس ونجيب سرور وسليمان فياض وإبراهيم أصلان وعبد الوهاب الأسواني وعبد الرحمن أبو عوف وأمل دنقل. والمكان لا يزال يفوح به أريج التاريخ فورثته لم يضيفوا إليه جديدا ولا تزال مرايا المقهى عليها إعلانات بيرة ستيلا القديمة وإعلانات المياه الغازية «فيمتو» التي كانت تباع في الأربعينيات والمكتوبة بالفرنسية والعربية والمرسومة بشكل جميل.. وقد حَمَى هذا المكان من استيلاء الرأسماليين الجدد عليه وتحويله إلى «فاست فودز» أن عدد الورثة كبير جدا، والملايين الكثيرة التي ستدفع مقابله بعد تقسيمها عليهم ستصل إليهم بضعة ألوف بينما ما يحصلون عليه يوميا يرضيهم.

الحرية من الأماكن الحميمة بوسط البلد وما زال الكتاب والمثقفون والفنانون القدامى والجدد يترددون عليه.. وينبهر به الزائرون العرب والأجانب المقيمون وهو دائما مزدحم بهم، فهو ما زال رخيصا وبه عراقة ويدفعك للتواصل مع الماضي الجميل.

**** مقهى سوق الحميدية**: موقعه على شارع الفلكي ويطل أيضا على ميدان باب اللوق. واسمه على اسم أشهر أسواق سوريا، افتتحه صاحبه السوري عام ١٩٦٠ عقب الوحدة الشاملة التي تمت بين مصر وسوريا في ١ فبراير ١٩٥٨ وانهارت في ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ وهي واحدة من أهم التجارب الوحدوية العربية.. ويقال إن جمال عبد الناصر افتتح هذا المقهى عند بدء نشاطه (وهي معلومة لم أستطع التثبت منها حتى هذه اللحظة). وهذا المقهى ليس كبيرا فمساحته لا تتجاوز الـ١٢٠ مترا وهو من دورين.. والعصر الذهبي لهذا المقهى في الستينيات حتى نهاية الثمانينيات، حيث كان مقرا مفضلا للكتاب والفنانين والصحافيين ومنهم عباس الأسواني وعبد المنعم رخا فنان الكاريكاتير والصحفي المخضرم محمد نجيب وعبد الوهاب مطاوع ومحمد نوح وعبد الله غيث وحمدي غيث وزكريا سليمان وسعد أردش ومحمد

الدفراوي وعبد الرحمن عرنوس ونبيل الحلفاوي وزوجته السابقة الفنانة فردوس عبد الحميد ومحمد كامل القليوبي.

ومن الطريف أن الشاعر الكبير أمل دنقل كان يطلق على التجمع الصغير الملتف حول مائدة والمكون من شاعر العامية عبد السلام شهاب والكاتب الصحفي عبد الوهاب مطاوع ومحمد نوح وعبد المنعم رخا «جمعية منتظري سعد زغلول» لأنهم كانوا أعضاء بحزب الوفد الجديد وكانوا يكرهون عبد الناصر وعصره (وما من حوار بدور بينهم إلا ويذكرون فيه عبد الناصر بالسوء).. محمد نوح كان يستعرض إمكاناته في التلحين ويجذب الصحف من الرواد ويجلس ليلحنها، مما يستفز الفنان عبد الرحمن عرنوس الذي ينازعه الصدارة الفنية في المقهى، فيسخر منه وهو يقول: «أصل عنده فرقة اسمها النهار ومبتغنيش إلا بالليل»! فيرد محمد نوح بسرعة: «وإيه يعني ما إنت عندك فرقة اسمها أولاد البحر وعمرهم ما عاموا حتى في البر»!

أما السينمائيون الشباب فكانوا يلتفون حول أستاذهم مدكور ثابت في المقهى، حتى بعد تخرجهم من المعهد، ومنهم أحمد الخطيب ومحمد عزيز ونبوي عجلان ومحمد النجار. وقد حضر إلى المقهى ذات ليلة في منتصف السبعينيات مدكور ثابت سعيدا جدا باختيار ماجدة الصباحي له لإخراج «فيلم العمر لحظة»، وعلى مدار أشهر طويلة بدأ مدكور يستعد للإخراج ويجهز «الكاست» واستعان بتلميذه محمد النجار مساعدا له في الإخراج.. ثم نشب خلاف حاد بينه وبين المنتجة والممثلة ماجدة التي أصرت على فرض الوجه الجديد «محمد خيري» بطلا للفيلم، ورفض مدكور أن يتنازل ويكمل الفيلم، فذهبت السبوبة إلى المخرج محمد راضي بتفريغات السيناريو وبأغلب «الكاست» بما فيها مساعد مدكور «محمد النجار».. وقد انطلق بعدها النجار ليصبح مخرجا كبيرا.

ومن الطرائف الأخرى أن الكاتب الصحفي بمجلة روز اليوسف «ناصر حسين» كان من رواد المقهى واستغل الفرصة وعرض على مدكور سيناريو كان قد كتبه باسم «الولد الغبي»، وهو صورة طبق الأصل من مسرحية محمد عوض «أصل وصورة»، وكان سوق التوزيع الخارجي في تلك الفترة منجذبا إلى الكوميديان محمد عوض. واستعان ناصر حسين بسلفة التوزيع الخارجي وأقنع محمد عوض ببطولة الفيلم. تردد مدكور بعض الوقت، ثم قرر إخراج الفيلم. (عرض فيلم الولد الغبي في عام ١٩٧٧ ولم يصمد أسبوعا واحدا. وعرض بعده فيلم العمر لحظة عام ١٩٧٨، ولموضوعه المهم حظي بنسبة مشاهدة معقولة.. وحتى هذه اللحظة ما زال يعرض في المناسبات القومية المهمة). وفي أثناء إخراج مدكور لفيلم الولد الغبي كان ناصر حسين يأتي يوميا إلى المقهى شاكيا من تصرفات مدكور، وكيف أنه يطلب طلبات مبالغا فيها وإكسسورات ليست لازمة، ويعيد ويزيد في تصوير المشاهد! وقبيل انتهاء مدكور من إخراج الفيلم، جاءنا ناصر ثائرا ومحتدا ثم قال في استهانة: «يعني إيه الإخراج ده اللي طالعنلي بيه السما، مانا شفت كل حاجة.. مبيعملوش الذَّرَّة يعني.. طب عليَّ الطلاق لأخرج بعد كده!»..

وقد كان.. أخرج وكتب وأنتج بعد هذه الواقعة أكثر من ٣٠ فيلما من عيون أفلام المقاولات ومن درر تاج السينما المصرية في مرحلتها العبثية، مثل «مشاغبون في البحرية، سطوحي فوق الشجرة، المشاغبات في السجن».. وتولاها كلها مقاولة واحدة وربح من ورائها أرباحا خيالية وسمي عهده (١٩٧٥ ـ ١٩٨٨) بظاهرة ناصر حسين.

وقد يعزي مدكور ثابت الآن أن الممثلة والمنتجة ماجدة الصباحي بعد اعتزالها التمثيل وتوقفها عن الإنتاج، اشترت مجمعا ترفيهيا في مدينة أكتوبر به أكثر من ٤٠ محلا ومقهى وأطلقت عليه «مجمع ماجدة»، وأقامت أمامه تمثالا طوليا لها، وافتتحته في منتصف شهر أغسطس ٢٠٠٩ حتى لا ينسى الناس دورها العظيم في السينما المصرية.

هذا هو مقهى سوق الحميدية في عز مجده.. ويحزنني أنه تدهور كثيرا هذه الأيام، ولم يعد أحد يجلس به إلا الناقد الكبير فاروق عبد القادر وأعضاء ندوته التي يقيمها يوم الأحد، وبعض المثقفين والكتاب الشباب وبعض الرواد العاديين. لكن يحمد لمالكيه أنهم لم يفكروا في بيعه أو تأجيره في أثناء حقبة التسعينيات عندما كان المستثمرون يعرضون مبالغ خيالية على أصحابه، مما حافظ على هذا المكان وتاريخه الشجي.

**** مقهى الندوة الثقافية:** أصحابه كانوا يمتلكون في عام ١٩٢٠ مقهى صغيرا في شارع منصور بالقرب من الغرفة التجارية بباب اللوق، وكانت مساحته لا تتعدى ٣ م × ٣ م.. ثم هُدم المقهى عام ١٩٥٩، وفي عام ١٩٦٢ انتقل أصحاب المقهى إلى مكان جديد في عمارة «البدراوي» بميدان الفلكي (باب اللوق) وافتتحوا مقهاهم الجديد (الندوة الثقافية) وهو إلى جوار سوق الحميدية.. وظل المقهى ملتقى لعدد كبير من الكتاب والأدباء والصحفيين والفنانين.. والمكان يتكون من صالتين في الخارج والداخل بينهما مساحة قصيرة..

وكان الذي يميز هذا المقهى أنه لا يقدم سوى دخان «التنباك» وهو نوع فاخر من معسل النارجيلة لا يقدر الكثيرون على تدخينه.. مما خلق نوعية خاصة من الزبائن.. (وقد تخلوا في الفترة الأخيرة عن تقديمه، وقدموا المعسل العادي وتخلوا عن بعض تقاليدهم الصارمة كمنع الأكل بالمقهى أومنع تحية السيدات للرجال بالتقبيل أو العكس)..

وهو من المقاهي المعدودة التي يقوم أصحابها بالخدمة فيها على الزبائن ومتابعة تلبية طلباتهم.. ثم يتقاضون منهم الحساب.. وهو يعطي إحساسا للرواد بأن صاحب المكان هو الذي يخدمهم ويعطيهم ذلك تقديرا خاصا..

ومن الطريف أن أحد عماله في الستينيات كان اسمه «الجحش» وهكذا كان يناديه الجميع فيرد بكلمة لا تتغير وهو يبتسم: عمي.. ثم ترك العمل بالمقهى

واشترى عربة يد كان يبيع عليها الفول بجوار قسم السيدة وبالقرب من الحرم الزينبي (جامع السيدة زينب). واشتهر الجحش وفوله جدا في السبعينيات والثمانينيات، ووصل صيته إلى النخبة وأولاد الذوات والمثقفين والفنانين فبدءوا يزورونه جماعات ويروجون لمذاق فوله المتميز وسلطة الطماطم المسقية بجوزة الطيب. وكانت مواعيد عمله تبدأ دائما من بعد الغروب حتى بعد صلاة الفجر بقليل، وكانت هذه المواعيد تناسب السهارى.. مات الجحش في أوائل التسعينيات بعد أن افتتح محلاً كبيرا لبيع الفول بالسيدة زينب وهو الآن من أشهر مطاعم الفول بالقاهرة.

ومن أهم رواد مقهى الندوة في الستينيات: نجيب محفوظ.. جمال الغيطاني.. وحيد فريد.. فاروق عبدالقادر.. إبراهيم المعلم.. توفيق صالح.. وحيد سيف.. محمد الدفراوي.. ومن أشهر رواده في السبعينيات: أحمد زكي وسامي السلاموني ومدكور ثابت. ويرتاده الآن جيل جديد من الفنانين والمغنين والملحنين الشباب.

** **مقهى إيزافيتش**: على مقاعده القليلة كان يلتقي مثقفو الأربعينيات الحالمون بالعدل والحرية، وكان يلتقي مثقفو الستينيات الحالمون بالديمقراطية في قلب ميدان التحرير.. وقد تحول الآن إلى معرض للسيارات.

إيزافيتش اسم لعائلة يوغسلافية من الصرب وكانوا يسمونهم اليوغسلاف البيض.. ميولهم اشتراكية جاءوا إلى مصر وافتتحوا في بداية الأمر محلاً للفول والطعمية.. وامتد ليصبح المقهى الشهير الذي كان يحتل مكانه على ناصية شارع سليمان باشا وحتى نهاية مبنى عمر أفندى مطلًا على ميدان التحرير.. وكانت الحكومة المصرية تتحفظ على صاحب المقهى «إيزافيتش» عند زيارة الرئيس اليوغسلافي تيتو لمصر خوفًا على حياة تيتو الذي كان في تلك الفترة يزور مصر كثيرًا..

من رواده أمل دنقل، وبهاء طاهر وسيد حجاب وإبراهيم فتحي وسامي السلاموني، وغالب هلسا، وسليمان فياض، ونجيب سرور..

وقد ارتبط اسم إيزافيتش بحركة اعتصام الطلبة عام ١٩٧١.. بالتحديد في ١٤ يناير عام ١٩٧١ عندما ألقى السادات خطابًا أرجع فيه سبب تأخر عام الحسم إلى حرب باكستان التي انشطرت عنها بنجلاديش في ذلك الوقت. وأثار ذلك المبرر غير المقنع طلبة الجامعة.. وتظاهروا.. وعندما حاصرهم الأمن داخل أسوار الجامعة.. تسللوا إلى خارجها.. وتجمعوا حول النصب التذكارى الذي كان يطل عليه «إيزافيتش» والمسمى بالكعكة الحجرية.. ووقف الشاعر أمل دنقل ينادي عليهم:

«أيها الواقفون على حافة المذبحة.. أشهروا الأسلحة.. سقط الموت وانفرط القلب كالمسبحة.. والدم انساب فوق الوشاح! المنازل أضرحة، والزنازن أضرحة، والمدى أضرحة، فارفعوا الأسلحة واتبعوني! أنا ندم الغد والبارحة، رايتي: عظمتان وجمجمة»!

ومن مواقف التعاطف المذهلة للشعب المصري تضامنا مع الطلبة أن سيارات فارهة كانت تتوقف بالميدان ويفتح أصحابها شنط سياراتهم ويخرجون صناديق بها مئات الساندويتشات ويوزعونها على الطلاب تعاطفًا ومودة..

** **دار الشاي الهندي**: موقعه بشارع طلعت حرب داخل الممر المقابل لسينما راديو، وهو مكان ملكيته تابعة للسفارة الهندية.. وكان يقدم به مشروب الشاي بأنواعه كافة (الأسود والبني والأخضر)، وبنكهاته كافة (الياسمين والنعناع والقرنفل)، وتوزع به مجلة «صوت الهند» التي كانت تصدر باللغة العربية. والمكان كان يشغل الدور الأول وهو مكان فسيح، والجلوس فيه على أرائك والشاي يقدم بالبراد والأكواب الصغيرة المذهبة. وهو مكان

لطيف كان يرتاده مثقفو الستينيات والسبعينيات وبخاصة إذا كان بصحبتهن الجنس اللطيف، ولكن على فترات لغلاء ثمنه بالمقارنة بنظائره. وقد نشط هذا المكان عندما اتخذ نجيب محفوظ من المقهى المجاور (سفنكس) مقرا لندوته الأسبوعية عام ١٩٦٤ قبل أن ينتقل بندوته إلى مقهى ريش.

ومن الأحداث السياسية المرتبطة بدار الشاي الهندي أنه في ١٥ مارس ١٩٦٥ عقد أربعة من زعماء حدتو (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني) ـ وهم أحمد القصير وكمال عبد الحليم ومحمد عباس فهمي وطاهر البدري ـ اجتماعا لتأسيس التيار الثوري، وكان هذا الاجتماع بداخل هذا المكان.. وللعلم فإنه في اليوم السابق لهذا الاجتماع كان الشاعر كمال عبد الحليم قد أرسل برقية إلى جمال عبد الناصر بمناسبة إعادة انتخابه بحل حزب «حدتو».

ظل هذا المكان بنفس الاسم والنشاط حتى أوائل التسعينيات ثم تغير اسمه في يناير ١٩٩٢ إلى «مركز مولانا أبو الكلام آزاد» للثقافة الهندية، وأصبح نشاطه هو نشر الثقافة الهندية بمصر وتوثيق التعاون الثقافي بين البلدين.. ومن أهم أنشطته تدريس اللغة الهندية والأردية وتعليم اليوجا. وتغيرت صالة تقديم الشاي واحتلت مكانها مكتبة فريدة وقاعة للسينما وأخرى للموسيقى.

**** مقهى زهرة البستان..** يقع بشارع البستان السعيدي الموازي لشارع طلعت حرب خلف مقهى ريش.. في الستينيات والسبعينيات كان مجرد مقهى صغير لا يحتمل بداخله أكثر من أربع مناضد، ورصيف واجهته بالكاد تصطف عليه ثلاث مناضد.. وكان في مواجهته زقاق أو ممر ضيق يمتد حتى ظهر مقهى ريش، وفي الصيف كانت هناك بضعة كراسٍ لهذا المقهى تتسرب إلى الممر.. وفي منتصف السبعينيات كان بعض مثقفِي الستينيات يتركون مقهى ريش ليدخنوا الشيشة ويلعبوا الطاولة داخل هذا المقهى.. ومن هنا وضع له الشاعر الكبير أمل دنقل اسما جميلا «العمق الإستراتيجي لريش».

ومن وفود المثقفين الأولى التي ترددت على مقهى زهرة البستان نجيب سرور ويحيى الطاهر عبدالله وشوقي فهيم وسوريال عبد الملك وعفيفي مطر وجمال الغيطاني وعبد الوهاب الأسواني.. ثم تبعهم كتاب ومثقفو السبعينيات الذين اتخذوه مقرا بديلا لريش بعد تردي مستوى الخدمة بريش وتمييزهم لفئة من الزبائن عن الأخرى.. ومن هؤلاء الكتاب والشعراء: عبد المنعم رمضان ومحمد سليمان ومحمد صالح وعبد العزيز موافي وأحمد طه ويوسف أبو رية وإبراهيم عبد المجيد ومحمود الورداني وأروى صالح وعبده جبير وسناء المصري وبراء الخطيب..

ثم توالت الأجيال الإبداعية على هذا المقهى في عقد التسعينيات.. ويرجع الفضل في ذلك للفكرة الجهنمية التي سيطرت على أصحاب مقهى ريش وجعلتهم يبنون هذا الهنجر الحديدي بدلا من التراس الرائع المفتوح، ويستميتون في سبيل فرضه على المحافظة، حتى نجحوا أخيرا بعد أن أنفقوا أكثر من ثماني سنوات من الجهد والتقاضي وبذل المال.. في تلك الفترة كبر مقهى البستان وازدهر وامتلأ بالمثقفين والمثقفات وأصبح مركز جذب كبير للمثقفين والكتاب العرب وبخاصة في أثناء فعاليات المعرض الدولي للكتاب، حيث كانوا يلتقون فيه سنويا الأدباء المصريين وأحيانا يراسلونهم على مقر المقهى..

ومن على مقاعد ذلك المقهى نبغ روائيون وشعراء وصدرت أكثر من مطبوعة ثقافية حركت ماء الثقافة الراكد لسنوات.. لكن في الآونة الأخيرة.. لم يتواصل الجيل الجديد من الكتاب والمثقفين مع هذا المكان لوجود أكثر من بديل ولغلبة الرواد العاديين على المقهى. غير أنه في أول رمضان هذا العام (٢٠٠٩) افتتح صاحب المقهى مكانا إضافيا بداخل الممر يتميز بأنه كبير ومكيف وبذلك سيدخل هذا المكان حلبة السباق مع ريش في اجتذاب زبائن النخبة.

** **قهوة الخرس**: مقرها شارع سراي الأزبكية بجوار مطعم حواوشي شلبي على الجانب الآخر من سوق التوفيقية.. وهو مكان لتجمع الخرس منذ أكثر من ٨٠ عامًا.. وهو المقهى الوحيد الذي يشرف على صندوق زمالة الخرس تحسبا لأي ظروف قد تصيب أحدًا منهم..

أُنشئت القهوة عام ١٩٣٥.. وبدأ تجمع الخرس بحوالي ٥٠ فردا إلا أنهم بدءوا يتزايدون مع الوقت.. وهم يتميزون بالصدق والأمانة.. من إشاراتهم الخاصة عند طلب الشيشة (وضع الإصبع على الفم)، وطلب الشاى السادة (يوضع الإصبع على جلد الوجه، وفي حالة طلب الشاي بالحليب تضاف إشارة ناحية الثدي)، والينسون (توضع اليد على الحلق). أما القهوة، فالإشارة بالسبابة والإبهام في مسافة متوسطة. وفي حالة طلب العناب (مشروب الكركديه) توضع الإصبع على الشفاه.. والألعاب المحببة لهم الشطرنج والدومينو. وهم كثيرو الشجار مع العمال إذا لم يلبوا لهم طلباتهم، ويطلبون تشغيل التليفزيون ويتابعون البرامج التي تذاع بلغة الإشارة...

والمقهى على الأغلب هادئ غير بقية المقاهي وكان يسهر حتى الصباح في الثمانينيات وكذلك محل الحواوشي المجاور وهذا ما جذب المثقفين إليه. ومن رواده بعض مطربي وراقصات الصف الثاني الذين يعملون في ملاهي الأزبكية القريبة من المقهى ومنهم المطرب الشعبي أدهم ممتاز.

والمكان ما زال قائما حتى اليوم لكن تناقص رواده من الخرس لتحولهم إلى مقاه أخرى بشارع البورصة والشوارع المتقاطعة معه، ولم يعد المثقفون والكتاب يرتادونه لأن أغلب مقاهي وسط البلد أصبحت تسهر ففقد المكان ميزته المهمة.

من المواقف الطريفة التي رأيتها به أخيرا أن شابا أخرس كان جالسا يتواصل مع حبيبته عبر شاشة التليفون المحمول المجهز بخاصية الجيل الثالث «G3»

ويشير لها ويبتسم ويرشدها إلى مكانه، ولم تمض لحظات إلا وأتت فتاة جميلة ممسكة بمحمولها في يدها اليمنى وتشير بأصابع يدها اليسرى تخاطب حبيبها حتى وجدته وجلست بجواره، وتركا محموليهما في اللحظة ذاتها وانطلقت أصابعهما في تواصل جميل.

**** مقهى البورصة:** كان يسمى مقهى ماركوني نسبة إلى مخترع الإذاعة ماركوني حيث إن مبناها كان ملاصقا للإذاعة المصرية في الشريفين، وكان مقر جريدة الأهرام القديم فوق المقهى نفسه. ومن روادها السيد بدير وماهر العطار وخضرة محمد خضر.. وقد أصبح الآن ملتقى للممثلين والشعراء والصحافيين الشبان.

**** مقهى الطهاة:** يقع على شارع منصور وهو جزء من محال سوق باب اللوق، ويرجع تاريخ إنشائه إلى عام ١٩٣٥.. وقد تم اختيار موقعه بعناية ليكون في وسط المدينة على بعد بضعة كيلومترات من حي عابدين معقل السرايات الخاصة بالطبقة الأرستقراطية قبل ثورة ١٩٥٢، وعلى نفس المسافة من حي قصر النيل وجاردن ستي. وقد اتخذه الطهاة موقعا لراحتهم وعند بطالتهم، وتكاتفوا ليدخلوا به تليفونا (وهو أول تليفون يدخل مقهى) لكي يطلبهم فيه زبائن الطبقات الراقية ويسهل الوصول إليهم.. واستمر نشاطه بعد الثورة، فرجال العهد الجديد استعانوا بهم أيضا في مطابخهم وأسسوا لذلك جمعية ٢٣ يوليو الخيرية للطهاة.. والمقهى مازال قائما حتى اليوم لكن تدهور جدا ولم يعد يجلس عليه الطهاة.

**** مقهى عتمان:** هو مقهى صغير جدا بشارع محمد محمود، بالقرب من مقر الجامعة الأمريكية بشارع الفلكي. عتمان ليس اسمه فليس له لافتة تدل على اسمه، وسمي عتمان نسبة لمخبز عتمان الذي في مواجهته، ويجلس عليه بعض طلبة الجامعة الأمريكية وبعض المثقفين.

** مقهى الكلاب: هو مقهى صغير في شارع رمسيس وكان يجلس عليه بعض الصحافيين لقربه من النقابة ومجموعة من ممثلي الأدوار الثانوية وبعض المثقفين. والمقهى ليست عليه لافتة دالة على اسمه، وقد ظللت لسنوات أعتقد أن اسم مقهى الكلاب المتداول بيننا سرا هو تشنيعة أطلقه عليه أحد الساخرين من رواده، ثم اكتشفت متأخرا أن هذا المقهى كان يجمع العاملين بمهنة القبض على الكلاب الضالة أو تسميمها حتى لا يعقروا المارة داخل نطاق حي قصر النيل والزمالك، بعد أن انتشر في القاهرة في بداية عام ١٩٥٢ داء سعار الكلب مما شكل خطورة على الناس، وظلت التسمية ملتصقة بالمقهى حتى بعد أن انقرضت هذه المهنة واختفت.

** مقهى فيينا: موقعه بشارع قصر العيني أمام مسرح السلام، وهو مقهى حديث بدايته كانت في أوائل التسعينيات وكان في الأصل محلا مهجورا يقع بين ممر عمارتين، واستغل المشتري المحل واستفاد من ممره وكان في البداية مقهى عاديا إلا أن تردد ممثلي وممثلات مسرح السلام، ثم وجود جريدة الدستور في إصدارها الأول بالقرب من المقهى جعله مفضلا للصحافيين والمثقفين والممثلين وبعض نجوم الغناء الذين لهم بطولات مسرحية على المسرح.. من رواده علي الحجار وأحمد الحلو وانتصار عبد الفتاح ولطفي لبيب وصلاح السعدني ومحمد منير وإبراهيم عيسى وعبد الله كمال وإبراهيم منصور وبلال فضل.

وكانت جريدة الدستور آنذاك تصدر أسبوعيا ويكاد اجتماعها الأسبوعي يكون على المقهى حتى الصباح، مما كان يمنح المقهى دخلا كبيرا ويعطي الصحافيين امتيازا كبيرا من حيث جودة المشاريب وسرعة تلبية الطلبات وتخصيص صبي لهم لجلب أطعمتهم وجرائدهم وكافة ما يطلبون.

في إحدى المرات - في منتصف التسعينيات - ذهبت إلى المقهى صباحا

ووجدت صاحب المقهى في حالة ثورة عارمة لأن عامل النصبة والجرار والمناول تغيبوا عن الحضور ووضعوه في ورطة كبيرة.. فما كان من صاحب المقهى إلا أن اتصل بعمال الوردية الثانية وفوجئ بأنهم لا يردون عليه فأصابته حالة جنونية خصوصا بعد أن أدرك أنهم «يلوون» ذراعه كي يزيد أجورهم.. وأقسم بأن يتصل بشيخ القهوجية ويؤدبهم. أصابني الفضول وسألته بعد أن هدأ قليلا: هو لسه فيه شيخ للقهوجية؟ أجابني: «طبعا بس مش كل أصحاب القهاوي بيتعاملوا معاه.. بالذات اللي داخلين الكار جديد مايعرفوش عنه حاجة أصلا». ثم قال لي بالتفصيل حكاية شيخ القهوجية:

إنهم يختارونه من الكبار ذوي السمعة الحسنة، وهو الذي يرتضونه لفض نزاعاتهم إن ارتضى الطرفان المتنازعان، وإنه في الحالات الطارئة كالورطة التي بداخلها صاحب المقهى الآن عليه أن يلبي حاجة المقهى من الصنايعية في ظرف قياسي وسرعة فائقة.. وكل هذا نظير مبلغ صغير تدفعه المقاهي الداخلة ضمن هذا النظام. وستدهش أيها القارئ عندما تعرف أن الأصول البعيدة لنظام الحرف والطوائف يرجع للعصر الفرعوني! وهذه نبذة موجزة عنه:

**** نظام طوائف الحرف في مصر**: كان أول ظهور له كنظام متين ومرتب في عهد الأيوبيين إذ انتظم أرباب الحرف المختلفة في نقابات خاصة بهم.. وفي عهد المماليك أخذ هذا النظام صفة الثبات والاستقرار.. وقد استمر هذا النظام طيلة فترة الحكم العثماني لأنه يتمشى مع سياساتهم في المحافظة على الحالة التي يجدونها في البلاد المفتوحة قدر المستطاع.

كان الحرفيون ينتظمون في طوائف، وكان داخل كل طائفة تدرج هرمي على رأسه الشيخ يليه في المنصب المعلم، ثم الصانع، ثم التلميذ.. يبدأ السلم الوظيفى في الحرف في القاعدة بالصبي ثم العريف ثم المعلم أو الأسطى، ثم المختار، ثم النقيب، فالشيخ.

١ ـ **الصبي**: يعيش عند المعلم، وله عليه واجب الطاعة والاحترام.. وعلى المعلم نحو الصبي واجب تعليم الحرفة التي يزاولها.. ولكل معلم عدد من الصبيان لا يجوز له أن يتعداه. وتبلغ مدة تمرين الصبي في بعض الأحيان سبع سنين يمضي بعد انقضائها امتحانا ليرتقي إلى مرتبة العريف.. وإذا ترك الصبي معلمه فإنه لا يستطيع الالتحاق بمعلم آخر إلا بعد الرجوع إلى شيخ الطائفة ليبسط له الأسباب التي حملته على مغادرة معلمه الأول، فإذا ثبت له من بيانه أن الانفصال حصل لوقوع مشاجرة بين الاثنين تدخل الشيخ في الخلاف، وأما إذا ثبت له أن السبب مصلحة مالية تدخل الشيخ وتوسط للصبي ليكون في خدمة معلم آخر.

٢ ـ **العريف**: بعد أن يقضي الصبي فترة من الزمن تُقدر ببضع سنين يتعلم خلالها أسرار الحرفة وتقاليدها، يرتقي إلى درجة العرفاء (وهي مرتبة وسط بين الصبيان والرؤساء) تتيح له نصيبا أكبر من العائد وتيسر له اطلاعا أوسع على أسرار الحرفة وفنونها وتقاليدها.. والعريف عامل أجير يعيش في الغالب عند المعلم الذي يتكفل بإيوائه وإطعامه.. ومدة عمل العريف بين ثلاث وخمس سنوات لا يجوز له أن يترك معلمه في أثنائها، وإن فعل لا يجد معلما آخر يقبله.. كما لا يجوز للمعلم أن يطرد العريف قبل انقضاء مدته بدون سبب قوي.

٣ ـ **المعلم أو الأسطى**: هو المرتبة التالية للعريف وهي تدل على بلوغه مهارة كبيرة في حرفته لدرجة أنه أصبح ملمًّا بكل دقائق الحرفة التي يمارسها. وكان لقب المعلم يُعتبر من أرفع الدرجات في نظام الصناع كالنجارين والحدادين.. والأسطى أو المعلم يحق له فتح محل مستقل له ويمكن له الاستعانة بمجموعة من الصبيان والعرفاء.

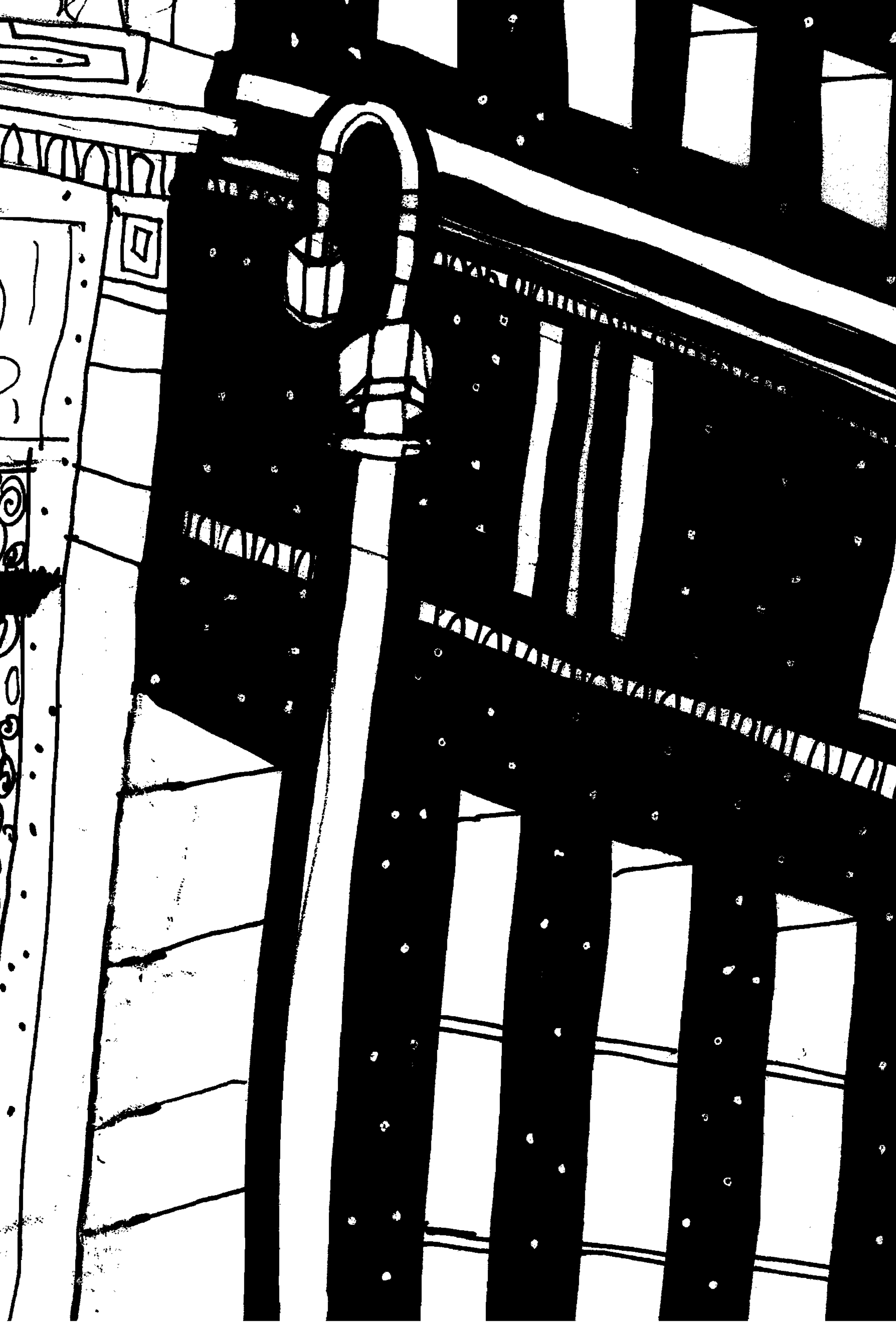
٤ ـ **المختار**: هو منصب بين نقيب الطائفة والمعلم.. فكل طائفة لها شيخ

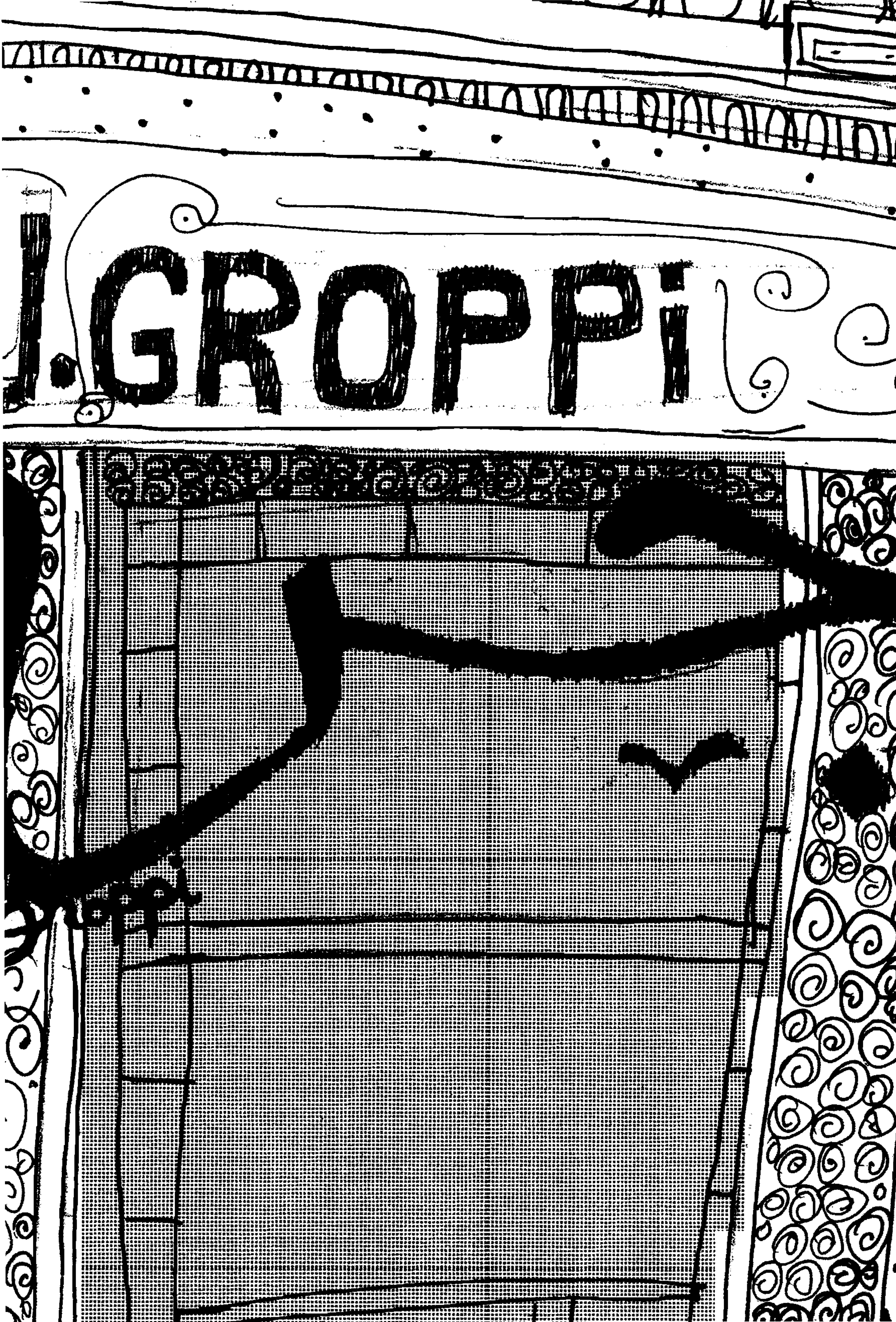
ومختارون ونقباء وأسماؤهم مقيدة في المحافظة والدائرة البلدية.. وكان المختارون يساعدون شيخ الطائفة في إدارتها.. حيث كان الشيخ يرأس مجلسا صغيرا منهم يساعده في إدارتها، لكن القرار النهائي كان في يد الشيخ.. وهناك مهام أخرى للمختارين تتلخص في إحضار الحرفيين الذين تحتاج الدولة إليهم في مشروعاتها.

٥ ـ **النقيب**: هو معاون لشيخ الطائفة، وفي نهاية القرنين الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر كان لشيخ الطائفة مجموعة من المعاونين الذين يتراوح عددهم في المعتاد بين ثلاثة أو أربعة ويُسمى الواحد منهم «نقيبا» بمعنى رئيس.. أي رئيس التنفيذ لأوامر الشيخ، وكان له دور مهم في تصفية التركات (في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، تضاءل دور النقيب واختفى اسمه من وثائق تلك الفترة وحل محله لقب «الوكيل»).

٦ ـ **الشيخ**: يُمثل أعلى مراتب الحرفة.. وهو كبيرها ومديرها وكان يُنتخب من بين أعضاء الحرفة الأكفاء.. ومن المفروض أن يكون من بين أبرع ماهري حرفته.. وأن يكون فاضل الأخلاق، عاملًا ماهرًا محترمًا بين رجال طائفته.. وكان يتمتع بنفوذ واسع المدى وسلطة قضائية على أفراد الطائفة إلى حد أنه كان يوقع العقوبات البدنية، ويأمر بحبس أو جلد من تثبت إدانته في أمر يخالف لوائح الطائفة وتقاليدها.. وهذه السلطة انتُزعت منهم بإنشاء المحاكم الأهلية في عام ١٨٨٣ لأن هذه المحاكم أصبحت هي وحدها المختصة بالفصل في المنازعات.






GROPPi



المقاهي والكافتريات السياحية

** جروبي: هو واحد من أكثر مقاهي القاهرة الحديثة شهرة.. أسسه «جياكومو جروبي» المولود عام ١٨٦٣ في مدينة لوجان السويسرية والمتوفى عام١٩٤٧..

جاء إلى مصر متصعلكا، ثم عمل في مصنع الحلويات والشيكولاتة الذي افتتحه رجل الأعمال الإيطالي «جيانولا» في شارع البواكي بالعتبة. ثم انتقل إلى فرع عائلة «جيانولا» الجديد بالإسكندرية والذي أعد ليكون متخصصا في تقديم الحلويات والشاي.

في عام ١٨٨٢ كان قد استطاع شراء أسهم جيانولا في مصنع القاهرة وفرعها بالإسكندرية الواقع بشارع فرنسا... واستخدم لأول مرة عاملات مصريات، وأنشأ مصنعا للألبان، وقام بتصدير البصل إلى إنجلترا بحلول عام ١٩٠٠، ثم تضخمت أعماله حتى إنه كان يصدر لإنجلترا ١٠٠ ألف كرتونة بيض سنويّا..

وفي عام ١٩٠٢ افتتح أول محلاته باسم «جروبي» في شارع شريف بالإسكندرية وقدم فيه ما اعتبر ساعتها اختراعا جديدا وهو الكريم شانتيه الذي كان قد جلبه معه من معرض باريس الدولي..

في عام ١٩٠٦ باع شركته لرجل فرنسي اسمه أوجست بدرو وتقاعد.. وبدأ بدرو يدير فرع الإسكندرية حتى أصبح الأول بين عدة منافسين من

المحال المشهورة مثل بيست رودس وتريانون وأثنيوس التي كان يديرها كلها يونانيون.

عاد جياكومو بعد أزمة الكساد الكبرى التي حدثت في بداية القرن إلى صناعة الحلويات والشوكولاته، ولكي لا ينافس بدرو انتقل بمشروعه إلى مدينة القاهرة، واشترى مبنى يقع في وسط المدينة يطل على شارع عدلي وعبد الخالق ثروت، حيث سكن فيه مع أسرته وجهز الدور الأرضي وحديقته كصالون للشاي وافتتح أول سلسلة محلات جروبي بالقاهرة في شارع المغرب الذي يعرف حاليا باسم عدلي باشا في ديسمبر ١٩٠٩ وكان لا ينافسه سوى المحل الشهير المعروف باسم ماركيز دي سافين ومحل ماثيو.

وكان مبنى جياكومو لا يبعد كثيرا عن دار الأوبرا الملكية التي كان يلتقي فيها علية القوم، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح جروبي عدلي ملتقى العائلات الأرستقراطية والأجنبية.. وكان هو المكان المفضل لضباط الجيش الإنجليزي خلال فترة الحرب العالمية الأولى. وفي عام ١٩٢٢ أنشأ جروبي في حي بولاق شركة للتخزين المبرد التي كانت تورد ٢٤ ألف لوح ثلج يوميا للمحلات بالقاهرة كما بدأ في إنتاج الشيكولاتة الفاخرة بجانب أنواع أخرى من المربى والعصائر والزبادي.

وفي عام ١٩٢٥ أنشأ جياكومو وابنه أكيلي محلهما الثاني في وسط المدينة الذي يطل على ميدان سليمان باشا (طلعت حرب حاليا) في عمارة جديدة صممها المعماري الإيطالي الشهير «جيوسيب ماذا» وأ. كاستامان.. هو المعماري الذي بناها، وقد احتوت حديقة كبيرة كانت تعزف فيها الفنون الموسيقية. وكان المحل يضم مطعما فاخرا وبارا وقاعة للرقص وحديقة صغيرة ملحقة بالمحل فيها شاشة عرض سينمائية، وبذلك يعتبر جياكومو هو أول من أدخل السينما الصيفية في مصر.

وتم افتتاحه يوم الخميس ١٢ مارس ١٩٢٥. وأقيم حفل أسطوري بمناسبة افتتاح محل جروبي سليمان باشا الذي يجمع بين بيع أرقى أنواع الحلوى

السويسرية واستضافته للرواد كالمقاهي المقامة على الطراز الأوروبي. زار فرع جروبي سليمان باشا مشاهير العالم الذين أعجبوا بتصميمه على طراز «أرت ديكو» وبحليات الموزاييك. وصار هذا المكان ملتقى مفضلا لحفلات الصفوة وكان يحوى مرقصا وقاعة للشاي. وعلى مسرحه قدمت أشهر الفرق العالمية عروضها المثيرة.

وفي عام ١٩٢٦ عاد جياكومو إلى قريته في سويسرا وترك إدارة الأعمال لابنه أكيلي الذي أصبح المورد الأول للحلويات للأسرة المالكة ولأثرياء مصر.

وفي عام ١٩٢٨ عاد أكيلي (ابن جياكومو) من معرض بالولايات المتحدة جالبا معه الآيس كريم وقدم قائمة استثنائية لأنواع عديدة من الآيس كريم، كما افتتح مقهى ألتراسى في مصر الجديدة المطل على شارع الأهرام أمام بالاس أوتيل الذي صار فيما بعد مقر رئاسة الجمهورية.

وفي عام ١٩٣٠ افتتح محل الأمريكين بشارع سليمان باشا لكي يكون ملتقى للأفندية الذي لا تساعدهم إمكاناتهم المالية على دخول جروبي، وبعدها بسنوات قليلة افتتح الفرع الثاني بشارع ٢٦ يوليو.

يقال إن محل جروبي كان أول داعية إلى الديمقراطية في مصر؛ فقد جمع الجميع على حبها والتضحية لها، وجلس فيه الأرستقراطي الشركسي النشأة مع ابن الفلاح الفقير، يتحاوران ويتأثران ويتحمسان لمصر.. وطالما عرف الإنجليز خطر هذا المكان عليهم، فكانوا كثيرًا ما يدهمونه بجنودهم وأسلحتهم للتخويف والاعتقال والقتل في بعض الأحيان.

ويعود النجاح المدوي الذي حققته سلسلة «جروبي» في القاهرة أولًا إلى ابتكارات «جياكومو» الشهية مثل التمر المغطى بالشيكولاته وأنواع الفواكه الأخرى... ثم إلى البعد الفني الذي أضفاه ابنه «أكيللي» على محال جروبي...

وفي مارس من هذا العام (٢٠٠٩) عرضت عائلة «جروبي» عدد ١٦٠ قطعة من مقتنياتها الفنية في متحف «أنتيكوم موزيوم» للآثار والذي يقع مقره في مدينة بازل السويسرية... وأقيم المعرض تحت عنوان «أطايب من القاهرة»، وهو الاسم الذي اختاره الورثة، كما لو أنهم يردون الجميل، رغم اضطرارهم لبيع الشركة عام ١٩٨١ إثر تدهور الأحوال الاقتصادية..

والسيدة أم كلثوم كانت تفضل تناول إفطارها في جروبي، وأسمهان كانت لها «ترابيزة» مفضلة فيه.. وعيزرا وايزمان الذي صار فيما بعد رئيسا لإسرائيل كان يتناول إفطاره يوميا في جروبي طوال فترة وجوده في مصر كجندى يهودي بالجيش الإنجليزي...

وهذا المكان كان مهددا بنسفه من قبل جماعات محظورة مع الجامعة وسكة الحديد، وفي أكتوبر ١٩٥٤ تم إحباط محاولة تفجيره..

وفي عام ١٩٦٠ سقطت شبكة جواسيس تعمل لصالح الموساد الإسرائيلى وهو ما عرف بعملية سمير الإسكندراني الذي أوقع بعشرة جواسيس مهمين كان أحدهم جورج إستامبينو أحد عمال جروبي.. ولا تخلو الأفلام العربية القديمة من حوار لطيف يقول فيه البطل لحبيبته: حاستناكي في جروبي الساعة خمسة.

وما زال هذا المكان قائما حتى الآن بفرعه بطلعت حرب وبالفرع الآخر في شارع عدلي الذي يتميز بحديقة جميلة.. لكن تغير الملاك وتغير الرواد أفقده بعض بريقه لدرجة أن لي صديقة مصرية أرمينية قالت لي إن متعتهم الكبيرة في السبعينيات كانت في الذهاب إلى حروبي لتناول الإفطار والحلوى صباح كل يوم جمعة، وكانوا يتأهبون لذلك بارتداء الملابس الفاخرة والنظيفة كأنهم ذاهبون إلى حفل بالأوبرا.

**** مقهى علي بابا:** تأسس في عام ١٩٥٤ وامتلكه في أول الأمر تاجر يوناني، وعندما توفي في أوائل الستينيات من القرن الماضي باعته زوجته لتاجر

مصري ظل محتفظا بروح المكان على رغم بعض التعديلات التي أجراها في الدور العلوي من المكان. وبيع هذا المكان عام ١٩٩٥ لشركة إيطالية مصرية تدير مطاعم البيتزا والمكرونة اسمها التجاري «سابارو» واستمر نشاطها في حدود العامين، ثم أغلق المكان بعد ذلك حتى الآن. وكان من أهم رواده: نجيب محفوظ ويحيى الطاهر عبد الله وصلاح عناني ويوسف أبو رية وصلاح الراوي وأحمد الخطيب وعلاء كريم وعلي الحجار. وأحمد الحجار، وكانت تقام به ندوات أدبية وسهرات شعرية ومساجلات سياسية ومباريات شطرنج في السبعينيات والثمانينيات.

** **مقهى ريش**: كان له حديقة واسعة تمتد إلى ميدان طلعت حرب الآن، وقد أُقيم على أرض قصر الأمير محمد على توفيق.. وبعد هدم القصر بُنيت على أرضه العمارة القائمة الآن وبها المقهى (عام ١٩٠٨) ومساحة العمارة ٢٥٥٣ م٢.

أول من أسس كافيه ريش رجل أعمال نمساوي هو «بيرنارد ستينبرج» في ٢٦ أكتوبر ١٩١٤ ثم باعه بعد عام لرجل أعمال فرنسي هو «هنري بير» الذي اشتهر بشغفه بالفن والأدب... وهو الذي أطلق عليه اسم «ريش» ليتشابه بهذا الاسم مع أشهر مقاهي باريس التي مازالت قائمة حتى الآن وتسمى «كافيه ريش». ثم استُدعي هنري بير للخدمة العسكرية في الحرب العالمية الأولى فعاد إلى فرنسا فباع المحل لخواجة يوناني كان مديرًا لكازينو في الأزبكية هو «ميشيل بوليتس». وظل بوليتس مالكًا لريش من عام ١٩١٦ حتى عام ١٩٣٢، ثم باعه ليوناني آخر هو مانولاكس. وبعد عشر سنوات أي في عام ١٩٤٢ انتقلت ملكية المكان إلى يوناني ثالث هو «جورج إيتانوس وسيلى»، وفي عام ١٩٦٠ قرر جورج وسيلي العودة إلى اليونان كحال أغلب الأجانب في تلك الفترة، ورأى أن يبيعه بثمن معقول وبشروط ميسرة إلى عامل نوبي كان يعمل بالمكان ويحبه ويحافظ عليه، لكن للأسف رفض العامل هذه الفكرة تماما ليس لأنه لا يملك المال اللازم للشراء، بل لأنه استبعد فكرة أن يكون

مالكا لهذا المكان. وكان هناك أحد القساوسة من أصدقاء جورج وسيلي وفي الوقت نفسه من رواد المكان قد عرف برغبة جورج في بيع محله، فأتى بقريب له كان يعمل موظفا بسكة الحديد ليشتري المقهى، ومن هنا انتقلت الملكية إلى مالك مصري هو عبد الملك خليل.

على مسرح حديقة ريش غنى صالح عبد الحي وزكي مراد والشيـــخ أبو العلا محمد.. وأم كلثوم حيث غنت على مسرح ريش الخميس ٣١ مايو ١٩٢٣، وكانت أسعار التذاكر كالآتي: الكرسي المخصوص ١٥ قرشًا.. والدخول العمومي ١٠ قروش، وأيضا قدمت بها روز اليوسف إحدى مسرحياتها.

في فترة الحكم الملكي كانت مكانًا لتجمع أعضاء مجلس قيادة الثورة.. وفي الستينيات كان المقهى ملتقى للأدباء نجيب محفوظ ويوسف إدريس وأمل دنقل وصلاح جاهين ونجيب سرور وسليمان فياض ويحيى الطاهر عبد الله وفاروق عبد القادر. ومن أهم رواد المكان أيضًا: عباس العقاد وتوفيق الحكيم ورشدي أباظة وإسماعيل يس وصلاح منصور وعبد الرحمن الخميسي وعباس الأسواني والمطرب محمد حمام وبهاء طاهر.

وكانت تعقد به ندوة نجيب محفوظ منذ عام ١٩٦٣ عصر كل يوم جمعة (ندوة نجيب محفوظ الأولى كانت في كازينو الأوبرا، ومع زيادة حضور الندوة فوجئ نجيب بضباط الأمن السياسي يلوحون بقانون منع وجود أكثر من ٥ أشخاص في مكان واحد، فنقل محفوظ ندوته إلى مقهى «سفنكس» ثم مقهى ريش). وكان يبدؤها يوم الجمعة من السادسة إلى الثامنة والنصف.. كما كان المقهى مكانا لتفريخ كثير من المشروعات الأدبية والفكرية.. فقد ولدت فيها فكرة إصدار مجلة «الكاتب المصري» الذي تولى رئاسة تحريرها الدكتور طه حسين، ومجلة الثقافة الجديدة التي رأس تحريرها رمسيس يونان، وجاليري ٦٨.

وللمقهى تاريخ سياسي طويل، فقد وجدت به ماكينة طبع منشورات ثورة

١٩١٩ وهي ماكينة يدوية.. وتشير الوثائق إلى أن مقهى ريش كان بمثابة قاعدة لثوار ١٩١٩ إذ كانوا يلتقون به ويجتمعون في الممر السري الذي يقع أسفل المقهى، والموجود حتى الآن، مع دعاة الثورة والمروجين لها.. وعلى المقهى أيضا.. قرر الجهاز السري لثورة ١٩١٩ أن يغتال صاحب الدولة يوسف وهبه باشا رئيس وزراء مصر وأحد ألد أعداء الثورة.. وقد أُختير قبطي لاغتياله حتى لا يتسبب الحادث في فتنة طائفية.. وكان هذا القبطي هو «عريان يوسف سعد».. ولكن المحاولة فشلت. وله تاريخ أيضا من التظاهرات السياسية فقد خرجت منه عام ١٩٧٢ مظاهرة سياسية كان يقودها الأديب يوسف إدريس عند مقتل الروائي الفلسطيني «غسان كنفاني». وعقب توقيع اتفاقية «كامب ديفيد» اعتصم الكاتب إبراهيم منصور بالمقهى وارتدى قميصا كتب عليه عبارات تشهر بالاتفاقية وبالرئيس السادات، وقبض عليه بداخل المقهى. وكان المقهى أيضا الحقل الذي صال وجال فيه جيل السبعينيات.. المثقف الرافض للأوضاع في مصر.

في أوائل الثمانينيات بعد وفاة مالك المكان ببضع سنوات، أغلق المقهى بعد أن قرر الورثة تغيير صالته الخارجية التي كانت على نمط المقاهي الفرنسية (وهي صالة مفتوحة تطل على شارع طلعت حرب وتتميز بكراسيها الخشبية وطاولاتها الجميلة) إلى علبة معدنية تعزل الرواد عن الشارع. وقد ظل المقهى مغلقا لمدة تقترب من عشر سنوات حتى أعيد افتتاحه هذا العام، وأصبحت جدرانه مزينة بصور كتاب ومثقفين رأيت بأم عيني المعاملة السيئة لهم داخل المقهى إبان حياتهم، وبعد أن كان الأب يرحب بالمثقفين ويجلسهم في المناضد الأولى حتى لو كانت كل طلباتهم لا تتجاوز القهوة والشاي..

أصحابه الحاليون الذين يتشدقون في كل وسائل الإعلام بدور هذا المقهى التاريخي في استقبال المثقفين وكيف استمد المقهى سمعته الطيبة من وجودهم بينهم، هم الذين أغلقوا المقهى في أوائل الثمانينيات كي لا يتمكن



STORIL


ESTORIL

الأديب العالمي نجيب محفوظ من إقامة ندوة يوم الجمعة به.. وأجبروه على عقدها بكازينو قصر النيل.. وكان أديبنا الكبير «متذمرا» جدا من هذه المعاملة ومتأذيا ويذكرها بأسى في أغلب جلساته..

الآن يجلس أحد أصحاب المكان في مقدمة المقهى يفرز الداخلين ويتابعهم كناظر المدرسة، وكل المناضد التي بداخل المكان عليها مفرش كتان إلا منضدة وحيدة خالية من المفرش وهي المسموح بالجلوس حولها وطلب القهوة والشاى.. أما باقي المناضد فلابد أن تطلب الطعام ليسمحوا لك بالجلوس عليها. والأجانب مرحب بهم جدا داخل هذا المكان، لكن المثقفين الذين استثمر الملاك المكان باسمهم يعاملون بإهمال واستخفاف.. هذا ما انتهى إليه هذا المكان الجميل.

**** مطعم وبار «إستوريل»**: عنوانه ١٢ شارع طلعت حرب في مواجهة محل فلفلة لبيع الفول والفلافل، له باب جانبي أيضا على الممر الذي يصل بين شارعي قصر النيل وطلعت حرب.. وهو مكان لطيف وراق.. أطعمته مميزة ومشروباته جيدة.. ولا يزال أصحابه الحاليون يحافظون على جودة الخدمة ودقة المواعيد.. الطلب الأخير في المكان عند الساعة الثانية عشرة ويغلق أبوابه في الثانية عشرة ونصف. وهو ملتقى للإليت والنخبة المثقفة لهدوئه وطابعه المميز، بعض السهارى لا يميلون إليه لأنه يغلق أبوابه مبكرا، والبعض يتخذه محطة قصيرة ثم يتابع سهرته في مكان آخر.

اسمه يرجع إلى مدينة إستوريل البرتغالية، وهي من أشهر مدن البرتغال التي تشتهر بالمنتجعات الشاطئية.. ولها باع طويل أيضا في مجال الألعاب الرياضية.. حيث تقام بها بطولة إستوريل الدورية لكرة التنس التي تبلغ جوائزها ٤٥٠ ألف يورو.. بالإضافة إلى البطولة العالمية لفروسية القفز على الحواجز.. واستضافت أخيرًا بطولة العالم للدراجات النارية للتنافس حول جائزة البرتغال الكبرى.

وسبب تسمية هذا المكان بـ«إستوريل» أن مالكه الأصلي وهو من العائلة

الشهيرة «زنانيري» كان عائدا لتوه من مدينة إستوريل التي قضى فيها رحلة شهر العسل مع زوجته.. وبمجرد عودته اشترى هذا المكان وحوله إلى مطعم وكان ذلك في أوائل عام ١٩٥٩، وظل مالكا له حتى النصف الأول من عام ١٩٦٦ حين اشتراه المحاسب القانوني المصري السوري جميل هلال، وحافظ على طابع المكان الذي أسسه الزنانيري.. وما زال ورثته حتى الآن يوالون الاهتمام والرعاية لهذا المكان.

وفي فترة الستينيات عندما كانت مصر في بؤرة الأحداث العالمية، كان أغلب محرري وموظفي الوكالات الأجنبية التي تتركز بمنطقة وسط البلد يتخذون من إستوريل مقرا يتناولون فيه الطعام ويتبادلون الأخبار.

ومن الطريف أيضا زيارة الممثل الأمريكي العالمي روبرت تايلور (المولود في ٥ أغسطس ١٩١١ والمتوفى في ٦ أغسطس ١٩٦٩)، وهو من أهم الأبطال الرومانسيين في تاريخ السينما العالمية وواحد من أجمل عشاقها.. ومن أشهر أفلامه «كوفاديس» مع إليزابيث تايلور و«فرسان المائدة المستديرة» مع آفا جاردنر.. كما لعب دور «أرمان دوفال» أمام النجمة جريتا جاربو في فيلم مأخوذ عن رواية غادة الكاميليا للكاتب ألكسندر دوماس الابن. زار روبرت تايلور إستوريل في ديسمبر ١٩٦٦في أثناء تصوير فيلم «أبو الهول الزجاجي» للمخرج لويجي سكاتيني وشاركته البطولة النجمة أنيتا أكبرغ، وعرض الفيلم في أمريكا في منتصف عام ١٩٦٧.. وسهر روبرت سهرة الكريسماس في إستوريل، ووقع بخط يده على قائمة الطعام التي كانت تشتمل على الأصناف الآتية: عدة أنواع من الشوربة الساخنة والباردة وفيليه سمك موسى بالصلصة البيضاء وسلطة خضراء بالبيض وديك رومي مشوي على السيخ والحلو جاتوه بالشيكولاته والمارون جلاسيه وسلة فواكه الموسم ثم فنجال من القهوة.. وللعلم كان ثمن كل هذه الأصناف في ديسمبر ١٩٦٦ جنيهين (٢جنيه مصري). يا بلاش..!

ولكي تعرف حجم شعبية الممثل الأمريكي روبرت تايلور آنذاك داخل

الأوساط الفنية المصرية، يكفي أن أقول لك إن حلم الممثل أنور وجدي قبل سطوع موهبته، كان هو الذهاب إلى أمريكا والتمثيل هناك، لأنه كان يعتقد أنه شبيه للممثل روبرت تايلور.. وكذلك رشدي أباظة كان متيما بروبرت تايلور، لدرجة أنه قبل أن يعمل بديلا له في فيلم «وادي الملوك» الذي كان يصور في مصر، وفعلا أدى ثلاثة مشاهد كدوبلير لروبرت تايلور.

**** كافتريا وبار الأمريكين:** ومازال قائما حتى الآن في عمارة التأمين المسماة بالأمريكين في نهاية شارع طلعت حرب. والأمريكين كلمة فرنسية معناها على الطريقة الأمريكية أي اخدم نفسك بنفسك. أنشأه أكيلي جياكومو جروبي في عام ١٩٣٠ ليكون ملتقى لطبقة الأفندية الذين لا تساعدهم ظروفهم المالية على دخول محلات جروبي. تخيل محلين: أحدهما يطل على شارع سليمان باشا وطرازه فرنسي وصالته فاخرة وباره أنيق ومساحته تتجاوز الـ٧٠٠ متر بخلاف الدور العلوي الذي يحتوي على المطابخ والحمامات، وكان مخصصا لطبقة البرولتياريا «الأفندية». والفرع الآخر يطل على شارع ٢٦ يوليو وشارع الأزبكية وقد افتتح عام ١٩٣٦، وكان مخصصا للطبقة الكادحة.. بينما في الستينيات والسبعينيات كانا ملتقى للصفوة والنخبة المصرية من كتاب ومثقفين وكبار الصحافيين والأثرياء الجدد.

المحلان ما زالا موجودين لكن ساءت الخدمة وتدهورت المرافق فأقبل عليهما نمط آخر من الزبائن.

**** كافتريا الأكسلسيور:** وموقعها بشارع طلعت حرب بجوار سينما مترو ولها ناصية على شارع عبد الخالق ثروت وهي محل من أول المحلات التي أدخلت الشاورمة إلى مصر.. مؤسسه ومالكه الأول هو الخواجة اليوناني «جناكليس»، وقد باعه إلى تاجر مصري في أوائل الستينيات. ظل هذا المحل متوهجا ومميزا بأطعمته ومشروباته حتى منتصف الثمانينيات.. وهو ما زال قائما حتى الآن لكن اختلفت نوعية رواده وتغيرت، وهجره المثقفون وحل محلهم العشاق والمحبون.

** **كافتريا الجريون**: Le grillion بالفرنسية تعني مكان الشواء وموقعه بشارع قصر النيل بجوار مسرح قصر النيل.. كان يملكه سفير مصري حتى نهاية الثمانينيات، ثم تحولت الملكية لمستثمر عراقي.. وأُعيد افتتاحه في بداية عام ١٩٩٢ وضُم إلى المطعم منور العمارة وأصبح حديقة أضافت للمكان بعدًا جديدًا. وهو من الأماكن الأثيرة التي تجمع المثقفين والفنانين الآن.

** **كافتريات البن البرازيلي**: هي محال صغيرة على النسق الفرنسي لبيع مشروبات القهوة بأنواعها كافة: (الإكسبريسو، والكابتشينو، والكافيه أوليه، والقهوة بالبندق والمكسرات).. كانت هناك ثلاثة محال منها بوسط البلد.. أولها بشارع طلعت حرب بجوار سينما ميامي وهو محل صغير نوعا ما، وكانت القهوة تقدم فيه على البنك الذي يتصدر المحل والزبائن يجلسون أمام هذا البنك بعرض المكان كالبارات أو يشربونها وهم واقفون.. هذا المحل ما زال موجودا حتى الآن، وأصبحت تتصدر مقدمته فاترينة لبيع اللب والتسالي..

المحل الثاني كان على ناصية شارع ٢٦ يوليو وشارع عرابي ملاصق لفندق جراند أوتيل، وهو أكبر قليلا من محل طلعت حرب وكانت به مناضد وكراسي يجلس عليها الزبائن.. وقد أغلق هذا المحل في منتصف الثمانينيات وتحول إلى محل ملابس حاليا.

المحل الثالث هو الأصل وكان تابعا لشركة برازيلية فرنسية في نهايات القرن التاسع عشر.. وكانت الشركة تمتلك أيضا الفرعين الآخرين قبل أن تبيعهما لمستثمرين يونانيين.. وهو أكبرها على الإطلاق لأنه بمساحة العمارة التي قبالة المعبد اليهودى كلها.. وكانت عليه لافتة باسم «مخازن البن البرازيلي»، لكنه كان يقدم نفس خدمة المحلين الآخرين وبتميز أكثر؛ لأنه كان يستورد البن ويخزنه ويحمصه ويبيعه للمحلات الفاخرة. موقع هذا المحل كان بشارع عدلي بالقرب من جروبي عدلي، ولو شئت الدقة في الممر الذي يطلق عليه ممر «كوداك» لأنه مجاور لمحل كوداك للتصوير الاحترافي والذي أغلق من فترة قريبة، وهو يقع أسفل العمارة التي بها نقابة السينمائيين.. وقد

أغلق هذا المحل في أوائل الثمانينيات ولم يحل محله نشاط آخر. وإلى الآن لو تقصيت مكانه فستجد معدات وماكينات إعداد القهوة لا تزال موجودة لكن الصدأ والأتربة غيرت بعض معالمها، وستجد دائرتين ذهبيتين على زجاجه إحداهما باللغة العربية والأخرى بالفرنسية، وهما جائزة من الخديو توفيق بمناسبة اختيار هذا المحل من أفضل محلات البن بمصر ١٨٩٠.

هذا المحل كان ملتقى الفنانين والمخرجين بسبب موقعه أسفل النقابة بالإضافة إلى الأجانب والأثرياء وكبار الصحافيين. أما المحلان الآخران فكان يفضلهما الصحافيون وشباب السينمائيين وقلة من الكتاب والمثقفين.

** **النادي اليوناني**: وهو نادٍ للجالية اليونانية بالقاهرة.. ويرجع تاريخ إنشائه لأوائل القرن الماضي. له ثلاثة فروع أحدها في جاردن سيتي وترتاده النخبة المصرية من الساسة والفنانين الكبار. والثاني بشارع عماد الدين في عمارة قديمة من عمارات هذا الشارع ورواده قلة من المصريين. والأخير بشارع قصر النيل ويطل على ميدان طلعت حرب في الطابق الذي يعلو محل حروبي، وهو أميزها، وإلى وقت قريب كان ملتقى أثيرا للفنانين التشكيليين والكتاب والمثقفين، وكان المصريون من غير الأعضاء يدفعون رسما بسيطا للدخول.. ظل هذا الرسم يرتفع وتعلو قيمته شيئا فشيئًا حتى تقلصت فرص الدخول.. حتى منتصف السبعينيات كان مقرًا للعجائز اليونانيين وكان المكان رغم كبر مساحته مظلما وكئيبا وليس له إلا ترابيزة للبلياردو حتى تم استقطاب المثقفين والكتاب والفنانين.. وعندما ازدهر المكان بدءوا في حلقة «التطفيش» التي تواجه المثقفين دائما عندما يعمروا أي مكان.. بدءوا في التضييق على الزبائن ورفع الرسوم ومعاملة المثقفين بإهمال.. وتحت دعوى التجديد باعوا الكراسي الخيزران الجميلة التي كانت تحضنك وتجعلك لا تترك المكان بسهولة واستبدلوا بها كراسي حديدية أشبه بكراسي العزاء والجنازات.

الفنادق

** فندق الكوزموبوليتان: موقعه بشارع قصر النيل بعد كافيتريا «لاباس».. افتتح في عام ١٩٢٨ باسم متروبوليتان ثم تغير الاسم إلى الكوزموبوليتان... والذي أنشأه هو السويسري «شارل بهلر» وهو المستثمر الذي وصل إلى القاهرة في ٢١ أكتوبر عام ١٨٨٩.. وفي عام ١٩٠٤ أصبح يمتلك حصة الأغلبية في شركة الفنادق المصرية المحدودة.. وفي عام ١٩١٠ أصبح المالك المسيطر على حصص فندق سميراميس.. وفي عام ١٩٢٥ كان مسيطرًا على معظم الفنادق المهمة في مصر بمجموع ٤٠٠٠ سرير، ومنها مينا هاوس وسان ستيفانو وكونتينينتال.. وبين عامي ١٩٢٧ و١٩٢٩ أنشأ بهلر مبنيين في الزمالك وعمارة بهلر بشارع قصر النيل التي أصبحت الآن ملكًا لشركات التأمين. وضع تصميمها.. وليونا فيليان.. معماري فرنسي من أعماله المجمع السكني التجاري (عمارة بهلر) سنة ١٩٣٤ بشارع قصر النيل والمطلة على ميدان وشارع طلعت حرب.

وهي عمارة فريدة تتكون من ستة مبان شبه منفصلة ولكل منها مدخل خاص وبها نحو ١٣٠ شقة فاخرة والبعض منها مكاتب تجارية. أما الدور الأرضي فقد قسم إلى ٧٢ محلا مستقلا على الطراز الباريسي.. وممر بهلر عبارة عن صورة مصغرة من «رو دي ريفولي» في باريس، وكان مشهورا بمحال الملابس للجنسين من أفضل الماركات العالمية وصالات عرض اللوحات الفنية لكبار الفنانين.. ومن المعروف أن عقود الإيجار التجارية للمكاتب

والمحلات كان بها بنود للمسموح وغير المسموح في واجهة المحلات، من حيث وسائل الترويج والإضاءة وعرض نافذة العرض، وممنوع منعا باتا وضع «يافطة» لعيادة طبية أو تجارية على سور البلكونات، أو وضع جهاز تكييف في شباك، أو إناء به زرع على سور الشرفات ومحظور نهائيا الخروج إلى البلكونة بملابس النوم أو لنشر الغسيل.. وممنوع أيضا عزف البيانو بصوت مرتفع خلال فترة القيلولة من الساعة الثالثة حتى الخامسة ظهرًا. ومن المعروف أن بهلر هو مؤسس فندق الملك داود في القدس عام ١٩٢٩، ولد بهلر في ١٠ يونية ١٨٦٩ بسويسرا وتوفي في ١٢ سبتمبر عام ١٩٣٧ بسويسرا.

**** فندق وندسور:** وعنوانه ١٩ شارع الألفي، وهو مصنف ٣ نجوم.. بُني في مطلع القرن الماضي ليكون بمثابة حمامات للأسرة المالكة في مصر، ثم تحول في وقت لاحق إلى نادٍ للمستثمرين حيث كان مقصدا مهما للضباط البريطانيين على وجه الخصوص.. وصالة ناديه في الطابق الأول كانت تُستخدم مكانا لالتقاء الضباط الأحرار في فترة ما قبل الثورة.. وحتى الآن مازال باره المسمى ببار باريل يحظى بالشعبية والتفضيل من قبَل الأوروبيين.

كان مفضلا للسينمائيين في السبعينيات والثمانينيات، وكانوا يسهرون فيه ليلا بعد مغادرة «لاباس» الذي كانوا يفضلون الوجود به من بعد العصارى.. وكانوا يسمون بعضهم بعضا «عضو نادي لاباس».. أو «عضو نادي وندسور» ومن رواده: محمود حميدة وأحمد عبد العزيز وممدوح عبد العليم ويسري مصطفى وعاطف الطيب وحمدي الوزير والشاعر سيد حجاب ومحمد مصيلحي وكمال سليمان ومحسن حلمي وسعيد الصالح الذي كان يتصدر المنضدة ولايرد على أي سؤال أو استفسار إلا بكلمة «الله كريم» يقولها وهو شارد، وكان ممثلا صغيرا أيامها ولعله كان يقصد بها أنه خلال سنوات قليلة سيصبح ممثلا كبيرا.. ومن الطريف أن هذا الرد أصبح لازمة يقولها البعض هذه الأيام بمناسبة وبدون مناسبة.

**** فندق كونتيننتال:** له واجهة على شارع عدلي وأخرى على ميدان

الأوبرا وهو من ستة أدوار وتاريخ بنائه يرجع إلى النصف الثاني من القرن الـ ١٩.

**** بنسيون ميرامار:** موقعه ٢١ شارع قصر النيل بين الناصية التي بها كافتريا «لاباس» والناصية التي تؤدي إلى فندق «كوزموبوليتان». وهو عبارة عن دور كبير مساحته تسع غرف كان يشغلها في السبعينيات والثمانينيات فنانون ومهتمون بالعمل الفني في بدايتهم، ومنهم أحمد زكي ويسري مصطفى ومحمد خيري وسامح عزمي.. وأقام به بعض الوقت الشاعر أمل دنقل.. وكان رخيصا وموقعه متميزا في قلب الأحداث الثقافية والفنية. وظل ممثل سكندري موهوب يقتسم الغرفة مع أحمد زكي سنوات طويلة، وللأسف بعد انطلاقة أحمد زكي الصاروخية اكتأب وتوقف عن التمثيل ثم هام على وجهه ولم يعد أحد يعرف عنه شيئا..

وبواب هذه العمارة في تلك الفترة كان سكيرا وله دلال على الفنانين لأنه يتحملهم عند تأخيرهم دفع مايدينهم به من ثمن البقالة.. وكان عندما يسكر تماما يسرد فضائح العمارة بالتفصيل ويظل يسب ويلعن فيهم.. وذات يوم أفلت عيار شربه فدلق الجاز في الأسانسير وأشعله، وكانت هذه الحادثة آخر عهده بالعمارة..

والعمارة التي يقع فيها البنسيون كانت مشهورة بإستوديو «بيلا» للتصوير الفوتوغرافي الذي أنشأه مستر بيلا المجري عام ١٨٩٠ وهو من أعرق إستوديوهات مصر. وقد هاجر بيلا عام ١٩٢٥ وباعه إلى فهمي باشا وهبة الذي ما زالت أسرته تمتلكه حتى الآن.. وفي ذلك الإستوديو وقف استعدادا للتصوير الملك فؤاد ومن بعده نجله فاروق وجميع أفراد العائلة المالكة وغالبية الباشاوات ووجهاء الدولة ومشاهير المجتمع والفنانين. ومن أشهر أعمال هذا الإستوديو بخلاف تصويره الفوتوغرافي لأغلب الأفلام المصرية القديمة أنه قام بتصوير قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وجنازة جمال عبد الناصر ومعظم الأحداث السياسية والفنية بمصر التي شغلت العالم في القرن الماضي.

**** فندق وروف الأوديون:** موقعه بشارع معروف ملاصق لسينما أوديون، كان ملتقى للسينمائيين والمثقفين بداية من النصف الثاني من الثمانينيات، ومنهم المخرج أحمد فؤاد وعلي الحجار وسيد خميس وسامي السيوي والمنتج اللبناني طنوس والشاعران إبراهيم عبد الفتاح وإبراهيم داود، ومن الكتاب العرب سيف الرحبي وظبية خميس. وله صالة صيفية وأخرى شتوية. اهتم أصحابه في أول الأمر بالمثقفين والفنانين، لكن كعادة رجال الأعمال عندما تستقر أمورهم، بدءوا في إهمال روادهم وفي نفس الوقت تم افتتاح أماكن أخرى بديلة حلت محله.

**** فندق الكارلتون:** موقعه بشارع ٢٦ يوليو في مواجهة سينما ريفولي ودار القضاء العالي.. نشط في نهايات الثمانينيات لاستقبال المثقفين والفنانين في «الروف» بالدور الثامن بصالته الشتوية والصيفية.. باره المميز بالدور الأرضي بار تاريخي في حقبة الستينيات وكان يفضله المترجم فاروق عبد الوهاب والكاتب المسرحي الرائع «ميخائيل رومان» الذي كتب رائعته «مصرع جيفارا» داخل هذا البار الذي كان يديره البارمان اليوناني الشهير بوسط البلد «سبيرو» الذي كان له معجبون ومريدون يتنقلون خلفه في كل البارات التي يعهد إليه بادارتها.. بعد تدني الخدمة بفندق وروف أوديون. خبا في منتصف التسعينيات.. لكنه عاد هذه السنوات الأخيرة واتخذه الكتاب والمثقفون الشباب ملتقى لهم.

المطاعم

**** مطعم علي حسن الحاتي**: تأسس عام ١٩٣٠، وهو أول مطعم باع للجمهور اللحم المشوي على الفحم في القاهرة.. وعلي حسن كان في أول أمره جزارًا وافتتح مكانًا للشواء بجوار سينما مترو بول خلف شيكوريل.. وبعد ذلك قدم اللحم مشويًا مع سلطة الطحينة والسلطة الخضراء، وتجاوز ذلك إلى تقديم مختلف الطعام الشرقي لرواده..

وهذا المطعم شبيه بالقصر، وهو مكون من ثلاثة طوابق، بمدخله صالة لتقديم الطعام، ودور للعائلات والطابق الآخر روف.. وديكورات المحل من الأرابيسك والمرايات بلجيكية أصلية.. ومن أشهر زبائنه من السياسيين: الملك فاروق والأعضاء الكبار في حزب الوفد وأسرة جمال عبد الناصر والرئيس معمر القذافي.. ومن الفنانين محمود المليجي وتحية كاريوكا وفرقة الثلاثي المسرحية..

وقد تم تصوير عدد من الأفلام السينمائية في المطعم.. مثل المشهد الذي جمع بين شيرين سيف النصر وعادل إمام في فيلم «النوم في العسل»، والمشهد الذي جمع بين ليلى علوي ومحمود عبد العزيز في فيلم «ليلة البيبي دول»، بالإضافة إلى عدد كبير من المسلسلات الدينية..

ومن المؤسف أن الجزء الأسفل منه تحول الآن (في أغسطس ٢٠٠٩) إلى

مقهى تبعًا للموضة السائدة هذه الأيام من تحويل كل المحلات والخرائب بوسط البلد إلى مقاه.. وأخشى ما أخشاه أن يربح هذه المقهى أرباحا تفوق أرباح بيع الكباب فتتحول باقي أدوار المحل إلى مقاهٍ أيضا.

وهناك مطعم آخر باسم الحاتي، وكان اسمه من قبل مطعم «خميس» على اسم الرجل الذي افتتحه عام ١٩٥٢ وظل يمتلكه ١٠ سنوات.. وكان يقدم لرواده خلال هذه الفترة الخمور مع العشاء، ويوفر السهرات التي تجمع بين الرجال والنساء.. واشترى هذا المطعم أحمد علي حسن الحاتي، وقام بتطويره وإدخال المأكولات الشرقية. وهذا المطعم يقع في شارع ٢٦ يوليو.. وهو مكون من طابقين، الأرضي صالة عادية وجدرانها من الأخشاب المشغولة باليد.. ويتردد على هذا المطعم أيضا كثير من المشاهير سياسيين ونجوم رياضة وفن وأفرادا من العائلات الملكية العربية.

**** محل الحواوشي بالتوفيقية**... ويعود أصل الكلمة إلى قرية «الحواويش» بمحافظة سوهاج، وهي بلد أنور الحواوشي الذي افتتح محل جزارة عام ١٩٣٥ بالعتبة.. وكان أنور يدرس في جامعة الأزهر وبعد عودته من الجامعة كان يقوم بوضع اللحم المفروم داخل رغيف بلدي ويدخله الفرن.. ثم أضاف إليه الكبدة والبوفتيك وتناوله كطعام للغداء.. وذات مرة دعا الشيخ المراغي والشيخ الجمال لتناول الغداء معه في المحل.. وأعجبا جدًّا بهذا الرغيف، وبدآ يترددان على المحل.. ثم جلبا أصدقاءهما وأطلقوا اسم الحواوشي عليه نسبة لأنور الحواوشي..

وبعد إغلاق محل العتبة تم افتتاح محل الحواوشي بالتوفيقية عام ١٩٤٨.. ومازال هذا المحل يقدم أفضل رغيف حواوشي في مصر.. ولا يعرف الخلطة السرية ونسبتها المختلفة من اللحوم والبصل والفلفل والبهارات إلا أصحاب المحل.. حتى الصنايعية الذين يعملون لديهم لا يعرفون سر هذه النسب..

ومن أشهر رواد هذا المكان يوسف وهبي وأنور وجدي وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ وتحية كاريوكا ونجوى فؤاد.. ومما يذكر أيضا أن جروبي كان يشتري لحومه في السبعينيات من هذا المحل.

** **مطعم ألفي بك**: بشارع محمد الألفي واسمه على اسم الشارع، وأسسه الحاج عبد القوي عبد ربه عام ١٩٣٨ وهو من محافظة المنوفية.. وواجهة المحل مصنوعة من الخشب والزجاج بطراز شرقي قديم... وكانت أم كلثوم تحضر إليه ومعها بعض الملحنين وأحمد رامي يوم السبت من كل أسبوع وتجلس إلى اليسار.. وفي الركن الأيمن كان يجلس محمود المليجي.. ومن زبائنه أيضا سعاد مكاوي وإسماعيل ياسين ومحمود شكوكو..

وفي فترة الاحتلال الإنجليزي لمصر كان اليهود الذين يمتلكون محالَّ في وسط البلد مثل صيدناوي وشيكوريل وسمعان وداوود وأسرهم كانوا يأتون كثيرا لتناول الطعام بداخل المحل، وكان يعلق على باب المحل العلم البريطاني بجوار العلم المصري بأوامر من البلدية.

** **مطعم آخر ساعة**: بشارع محمد الألفي مقابل مطعم ألفي بك وقد أسسه الحاج محفوظ محمد عبد الرحمن الكرابيجي عام ١٩٦٧، وهو من أشهر مطاعم الفول والطعمية بمصر واشتهر بتقديم العدس.. ومن مشاهير رواده جمال عبد الناصر وسبق أن زاره الملك حسين وبعض الأمراء السعوديين ومحمود الخطيب وحسن شحاته وحسام حسن.

** **مطعم التابعي**: موقعه بشارع عرابي وهو من أشهر مطاعم الفول والطعمية قاطبةً لأن محله فُتح منذ أكثر من ١٠٠ عام ولقب بملك الفول في مصر لابتكاره نكهات مختلفة له.. ومن أشهر رواده أم كلثوم وعاطف صدقي وأسامة الباز ومحمد عبدالوهاب.

**** محل ومطعم زد**: مازال قائما حتى الآن في قلب ميدان التحرير، وكان في الأصل اسمه مطعم كلاردج وهو على اسم فندق شهير بإنجلترا.. اشتراه اليوناني «يني كاراسافسي» وأسماه زد واحتفظ بنسق المطعم السابق.. وفي أوائل الستينيات هاجر ابنه الأكبر إلى قبرص وحدثت حادثة مأساوية لابنه الثاني ماريو حيث توفي في حادثه أتوبيس.. وبعد وفاة ابنه هاجر الأب فورًا إلى اليونان وباع محله بأبخس الأسعار.

**** مطعم آرتين**: كان يقدم أحلى أكل بيتي تستطيع أكله في العالم من الأكلات المصرية الشهيرة والطواجن المعروفة.. ويقع في نهاية شارع قصر النيل وعبد الخالق ثروت باتجاه ميدان الأوبرا، وصاحبه أرمني كما يدل على ذلك اسمه، وكان يجلس على مقعدين أو أريكة ضخمة كأنه إعلان لافت لجودة مطعمه. وقد أُغلق في التسعينيات وحاول عمال المحل إقامة محل آخر بنفس الاسم ونفس السمات في عمارة الإيموبيليا وقد صمدوا لمدة سنتين ثم أُغلق المحل نهائيا.

**** مطعم الأوديون**: بجوار سينما أوديون وصاحبته يونانية وهو محل صغير جدا مساحته ٤ م لكنه كان يقدم أكلًا بيتيا متميزا وقد أُغلق في الثمانينيات.

**** مطعم السوق**: وهو في قلب سوق باب اللوق، والمحل صغير جدا لا يتحمل أكثر من ٤ مناضد، لكن مطبخه رائع وطباخه متمكن.. والأجيال الجديدة من المثقفين والمثقفات تسميه مطعم «خالتي» دلالة على أكله البيتي الحميم.. فبعد وفاة الأم لن تجد مذاقا للطعام يجذبك بقدر طعام الخالة. يعيبه فقط أنه بقلب السوق وأنت مضطر في ذهابك إليه إلى أن تمر على كل باعة اللحوم والفسيخ والخضر بخلاف القاذورات التي تمر عليها، وعليك أن تحتمل كل هذه الروائح. أغلب الأجانب المقيمين بوسط البلد يتعاملون معه إما بالأكل داخل المحل وإما بالطلب «ديلفري» لأنه رخيص ومتميز.

**** مطعم عضيم**: موقعه بشارع البستان أمام مكتبة كامل الكيلاني وهو أكبر من مطعم السوق وأقدم، ويقدم أيضا الأكلات المصرية البيتية، وصاحبه من طباخي قصر عابدين أيام الملك فاروق.. وهو نصير الفقراء، فطعامه رخيص جدا حتى الآن، ويعيبه فقط أنه أدخل نشاط بيع الفول والطعمية والباذنجان مما أثر بالسلب على جودة مطبخه.







البارات والكباريهات

**** البيروكيه**.. مرقص وبار.. كان شهيرا جدًّا بالرقصات الغربية وموقعه بفندق ناسيونال بطلعت حرب الذي هُدم في أوائل الثمانينيات وتحولت أرضه إلى جراج ثم أُعيد بناؤه مولًا تجاريًّا ضخمًا باسم مول طلعت حرب التجاري الآن.

**** بار الأنجلو**.. وكان معروفًا بشرابه المعتق وحسن أدب خدامه، وكان صغيرًا وله دور علوي أصغر قليلا.. ومن رواده الشيخ عبد العزيز البشري والاقتصادي أحمد نجيب والفنان سليمان نجيب والشاعر كامل الشناوي والدكتور الجراح علي باشا إبراهيم وتوفيق الدقن وعبد السلام محمد.. تدهور حاله في منتصف الثمانينيات ثم أغلق في فبراير ٢٠٠٩، وأصبح الآن مخزنا تابعا لشركة مصر لإدارة الأصول العقارية.

**** بار جامايكا**.. يقع على شارع البنك الأهلي المتفرع من شارع شريف ومازال قائمًا حتى الآن.. وصاحبته قديما الفنانة زوزو ماضي.. وجامايكا بلد من بلدان أمريكا الشمالية تقع جنوب غرب هاييتي وكان يسكنها هنود الأرواك حتى اكتشفها كولمبس عام ١٤٩٤ وأباد منهم كثيرين. وهي تشتهر بموسيقاها ورقصها كسائر دول أمريكا الشمالية هاواي وتاهيتي التي تسمت باسمها بارات كثيرة بالقاهرة والإسكندرية.. والمغني العالمي الكبير «بوب مارلي من سكان جامايكا، ومن أهم أسباب نجاحه بساطة كلماته وأهمية الرسالة التي تحملها والتي تحث على التمرد على الظلم ومحاربة الفقر وطلب العدالة

والحرية والسلام. أما بار جامايكا الذي نحن بصدد الحديث عنه فقد حدث أن أُغلق فترة من الزمن لخروجه على الآداب وكان هناك «مونولوج» شهير للسيد ماندولين في تلك الفترة (نهاية الستينيات) يستهله بالآتي «كافتريا زوزو ماضي قفلوها» على إيقاع لحن هندي شهير (أغنية سانجام).

** **بار الكاب دور..** Cap d'or الرأس الذهبى بالفرنسية وهي تدل على مكان جغرافي أو جائزة بنفس هذا الاسم، وهو بار يشبه بار الشيخ علي بالإسكندرية (بحري) في نموذج البار والصالة والحديقة.. ومساحته تقريبا ٢٥٠ م٢ ويقع بشارع عبد الخالق ثروت. والباب الرئيسي يُفتح على شارع جانبي وكان حتى منتصف الثمانينيات يقف أمام بابه الجانبي بائع للعصافير ويضع علبة صفيح فوق منضدة خشبية صغيرة يقلي فوقها العصافير التي يبيعها بالدستة لزوم المزة.. هذا البار ما زال موجودا حتى اليوم، ومن الضروري معاينته لأنه يعيدك إلى قاهرة الثلاثينيات المفقودة.

** **بار ستيلا..** بابه الرئيسي في شارع طلعت حرب، وله باب جانبي في شارع هدى شعراوي وهو المستخدم حاليا.. افتتح هذا المكان في النصف الأول من عام ١٩٥٥، كمخزن أو مستودع للبيرة. وفي منتصف السبعينيات تحول إلى بار، لذا يطلق عليه بعض المثقفين حتى الآن اسم «المستودع أو المخزن»، وصاحبه يوناني الجنسية.. ومازالت ابنته اليونانية المصرية «إيريني» تديره حتى اليوم.. وهو بار صغير يشبه إلى حد كبير البارات الصغيرة في دول حوض المتوسط. وهو ليس بارا شعبيا لوجوده في ذلك المكان الأرستقراطي (في الخمسينيات) وحميميته تجذب المثقفين والكتاب والفنانين والأجانب المقيمين بوسط البلد، لذا زبائنه تشكل خليطا كوزموبوليتانيا جميلا.. على مقاعده كان يجلس الشاعر الكبير أمل دنقل يتلو قصائده لمعجبيه، ونجيب سرور كان يقرأ ديوانه الممنوع من الطبع حتى الآن بداخل هذا المكان، والقاص البديع يحيى الطاهر عبدالله كان يتلو قصصه غيبا بإيقاع جميل، والمطرب محمد حمام كان يشجي ليل هذا المكان بشدوه الرائع. وعلى رغم صغر مساحة هذا المكان فإن كل حصوة صغيرة فيه سمعت ورأت كثيرًا مما لم يروه التاريخ.

**** كوبانا بالاس**.. في ميدان مصطفى كامل.. وكان عبارة عن كباريه صغير وبه بار.. وفي الخمسينيات كانت هناك فرقة كوبية لها فقرة ثابتة بهذا المكان.. ومن هذا المكان أيضًا اشتهر المغني النوبي علي كوبانا والذي تسمى على اسم المكان الذي معناه قصر الرجل الكوبي، وللأسف لم يعد هذا المكان موجودا الآن.

**** محل «بامبو»**.. بشارع طلعت حرب أمام الأمريكين.. وهو محل من دورين وكان في الستينيات يُعتبر مركزًا لتجمع الإيطاليين.. راقصين ومغنين حيث يتناولون الغداء قبل أن يؤدوا بروفات رقصاتهم وأغانيهم التي سيؤدونها في روف فندق الكونتينيتال. وتغير نشاطه الآن.

**** بلو نايل بار**.. وموقعه بشارع عبد الخالق ثروت بالجهة الأخرى المقابلة لبار الكاب دور.. وكان ملتقى للمثقفين والوزراء السابقين لحكومة الثورة.. وقد أُغلق في بداية السبعينيات.

**** كافيتريا وبار «روي»**.. بشارع طلعت حرب وقد أُغلق في منتصف الثمانينيات وكان مطعمًا وبارًا متميزًا وبه مسرح صغير وصاحبه يوناني ـ تحول الآن إلى محل للفاست فودز باسم ماكدونالدز.

**** مرقص وبار: «مولان روج»**، ومعناه باللغة الفرنسية الطاحونة الحمراء..موقعه بأول شارع طلعت حرب من جهة التحرير وله باب جانبي على شارع البستان الذي يبدأ بمعهد جوته من جهة التحرير.. كان مكانا جميلا ومرقصا وبارا للنخبة في منتصف الأربعينيات والسنوات التي تليها، حتى أغلق في نهاية الستينيات.. تحول الآن إلى مركز للخطوط الكويتية... اسمه ينتسب إلى ملهى «مولان روج» الباريسي الذي أنشأه جوزيف أولير في عام ١٨٨٩، وهو من أعرق ملاهي باريس ويتميز بوجود طاحونة حمراء على سطحه، وكان يسهر به فنانون وشعراء كبار أمثال فولتير ورامبو وبودلير والرسام ماتييس، وكذلك الرسام تولوز لوتريك الذي جعل من هذا الملهى مصدرا لإلهامه، ورسم مئات اللوحات التي تتناول راقصيه وراقصاته

وعروضه المهمة، وقد أصبحت هذه اللوحات الآن من كلاسيكيات الفن التشكيلي المعاصر..

**** بار بايرون لبيع المشروبات الكحولية..** مكانه في شارع التحرير بالقرب من ميدان التحرير بجوار فطاطري التحرير.. افتتح في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي لصاحبه الخواجة يني، وهو بقال يوناني.. نحيف جدا ومثقف يقرأ باللغات الثلاث الإنجليزية والفرنسية واليونانية ويعرف اللهجة العامية.. وكان المحل إلى جانب بيع مواد البقالة به بار صغير و٤ مناضد بالداخل يقدم فيه الخمور.. واسم المحل على اسم الشاعر الإنجليزي العظيم الملقب بشاعر الرومانسية لورد بايرون الذي أيد حرب استقلال اليونان ضد تركيا، وتطوع للمحاربة بجانب اليونانيين.. وكان يني يعشقه ويعشق أشعاره ويتلوها بشكل يومي أمام رواد باره.. وبغد صدور قوانين يوليو الاشتراكية في الستينيات باع المحل وعاد إلى موطنه.. المحل اسمه الآن محل بايرون لبيع المشروبات الكحولية.







جماعة الفنانين والكتاب



الأماكن الثقافية

**** دار الأدباء**.. ومقرها ١٠٤ شارع قصر العيني في مقابل مجلس الشورى.. كانت في الأصل منزلًا لعبد الرحمن باشا فهمي أحد زعماء ثورة ١٩١٩.. وكانت بها المطبعة السرية للثورة.. وهي فيللا تتكون من دورين وبدروم (كان المبنى يضم مطعمًا وبارًا وصالة لاستقبال كبار الشخصيات الثقافية العالمية التي تزور مصر في حقبة الستينيات).. به المكتب الدائم للكتاب الإفريقيين ومقر نادي القلم الدولي وجمعية الأدباء ورابطة الزجالين وجمعية الشاشة الصغيرة واتحاد الكتاب العرب.. وقد أسس المكان الكاتب يوسف السباعي في أوائل الستينيات.. ومن المعروف أن المؤتمر التأسيسي للمكتب الدائم للكتاب الإفريقيين والآسيويين عُقد بطشقند عام ١٩٦٤.

**** أتيلييه القاهرة**... تأسست جماعة «الأتيلييه» للكتاب والفنانين والمعروفة في الوسط الثقافي المصري والعربي والعالمي باسم أتيلييه القاهرة يوم (١٤) مارس ١٩٥٣م، وكان أعضاؤها المؤسسون حينذاك هم: الفنان المصور محمد ناجي (أول رئيس لأتيلييه القاهرة بعد إنشاء أتيلييه الإسكندرية وتأسيسه عام ١٩٣٥)، والفنان المصور راغب عياد، والفنان والمؤرخ التشكيلي وأستاذ تاريخ الفن محمد صدقي الجباخنجي، وماريا بالما (الملحقة الثقافية للسفارة الإيطالية بالقاهرة حينذاك)، وجبريل بقطر وجان موسكاتيللي والمهندس دياكو ميدس والناقد الفني آتيين ماربيل وبورشار سميكة والفنان

عصمت عاصم وجنفيف جورشو وميشيل زغيب وديفيد هول (مدير المعهد البريطاني بالقاهرة) وألبرتو باسكوال وروبير بلوم.

وكانت أهداف تلك الجماعة وأغراضها هي تشجيع الفنون الجميلة بكل أشكالها وأساليبها واتجاهاتها الفنية، وكذلك الآداب بفروعها الثقافية والإبداعية المتعددة، وكذلك إقامة المعارض المتنوعة وتنظيم الندوات والمحاضرات والحفلات الموسيقية.

ويقع مقر الجمعية في شارع كريم الدولة المتفرع من شارع الإنتكخانة بمبنى المدرسة السويسرية (من ميدان طلعت حرب).. وقد أصبح المبنى كله تشغله الجمعية بعد تصفية المدرسة، وبه أقدم قاعة للعرض في القاهرة مستمرة في أداء مهمتها حتى الآن، فكل القاعات التي أُنشئت والسابقة عليها أُغلقت وتوقفت عن تقديم خدماتها الفنية والثقافية للفنانين والأدباء.

وقد أقام كثير من فناني مصر وبعض الدول العربية والعالم المشاهير معارضهم الخاصة الفنية بكثير من الفنون المختلفة والمتعددة في فنون التصوير الزيتي والنحت والرسم والجرافيك والكولاج وكذلك التصوير الفوتوغرافي وحصريًّا بعض معارض الأعمال المركبة والفيديو آرت وخلافه حتى تواكب التطور الحادث في العالم، وكذلك استضافة كثير من الأدباء متعددي الفنون الأدبية من مصر وبعض الدول العربية لإلقاء ومناقشة وعرض فنونهم الإبداعية البلاغية.

وأتيلييه القاهرة به الآن أربع قاعات: القاعة العلوية الكبرى باسم «قاعة محمد ناجي»، والقاعة السفلية الكبرى باسم «قاعة راتب صديق» وهما ضمن كوكبة ممن رأسوا الجمعية والذين لهم بصمة واضحة على المسيرة الفنية والثقافية والتنظيمية والعلمية للأتيلييه.

أما القاعة العلوية الصغرى فهي باسم «قاعة تحية حليم» وهي مخصصة للفنانين الشبان وعرض تجاربهم. والقاعة السفلية الصغرى باسم «قاعة إنجي

أفلاطون» وهي أيضا مخصصة للتجارب الفنية المتميزة، وكلتاهما من أهم الفنانات المصريات في حركة الفن المصري المعاصر ومن جيل الأعضاء القدامى الذين قدموا للجمعية أعمالًا فنية وإنسانية خالدة.

**** جمعية نقاد وكتاب السينما**.. ومقرها ٣٦ شارع شريف. تم تأسيس اتحاد نقاد السينما المصريين في ١٤ يونيو عام ١٩٧٢ وكذلك انتخاب مجلس إدارة مؤقت للاتحاد مكوَّن من أحمد كامل مرسي رئيسا وسامي السلاموني نائبا للرئيس وفتحي فرج سكرتيرا ويوسف شريف رزق الله أمينا للصندوق، وعضوية أحمد رأفت بهجت وسمير فريد وأمير العمري وفاروق عبد العزيز، وذلك بغرض توحيد كلمتهم وجهودهم وبلورة صيغة من العمل المشترك للمساهمة في دفع وتطوير السينما والنقد السينمائي في مصر والعالم العربي.

ومن المعروف أن النقاد والسينمائيين قد كونوا جماعة السينما الجديدة عام ١٩٦٨، ومؤسسوها هم فتحي فرج وسامي السلاموني وصبحي شفيق وسمير فريد.. وهي أول جمعية تجمع شباب السينمائيين.. والنقاد وتستهدف التعبير عن فكر المثقفين السينمائيين، كما أنتجت هذه الجماعة في عام ١٩٧١ فيلمين روائيين طويلين لمخرجين جديدين يخرجان لأول مرة وهما فيلم «أغنية على الممر» إخراج علي عبد الخالق وفيلم «ظلال على الجانب الآخر» للفلسطيني غالب شعث.

وجدير بالذكر أن جمعية النقاد لها فضل كبير على أجيال متعاقبة من المثقفين والمهتمين بالسينما بفضل جهدهم المتميز في نقد الأفلام المعروضة بالسوق المصري والأفلام الأجنبية خاصة غير الأمريكية (والتي كنا نقرأ عنها باستمرار من خلال النشرة الدورية التي كانت الجمعية تصدرها ومن خلال رؤيتنا لهذه الأفلام، والتي بذلوا جهدا عظيما في إحضارها) في قاعتهم وحلقات النقاش التي كانت تلي العروض المهمة والتي كانت تعرفنا على سينمات العالم

المختلفة فضلا عن السائد بالسوق. والجمعية ما تزال مستمرة في دورها حتى الآن برغم تقلصه لوجودنا في عصر السماوات المفتوحة حاليا.

**** جمعية محبي الفنون الجميلة**: مقرها شارع أحمد باشا بجاردن سيتي. تأسست في عام ١٩٢٤ بمبادرة من الأمير يوسف كمال ومحمود خليل الذي تولى رئاستها عام ١٩٢٥.. (ومن المعروف أيضا أن محمود خليل تولى أيضا رئاسة مجلس الشيوخ في الفترة من ١٩٣٩-١٩٤٠)، وأهم نشاطات هذه الجمعية إقامة الصالون السنوي للفنون الجميلة. وبها أيضا الجمعية المصرية للنقد الأدبي التي أسسها عز الدين إسماعيل عام ١٩٨٧.. ونشاط الجمعيتين لا يزال مستمرا حتى الآن.

**** المركز الكاثوليكي المصري للسينما**.. مقره ٩ شارع عدلي، الطابق الثالث. وقد تأسس في يونيو ١٩٤٩.. وحصل على عضوية المركز الكاثوليكي الدولي للسينما في سبتمبر ١٩٤٩ وعندما تم الإعلان عن تأسيسه كان إنتاج السينما المصرية قد بلغ ثلاثمائة وتسعين فيلما، وقد وصل إنتاج السينما المصرية الآن إلى ما يقرب من ثلاثة آلاف ومائتي فيلم، والمؤسسون هم المؤرخ والناقد السينمائي فريد المزاوي والأب بطرس فرانزيدس والأب أرمينيو روتكاري.

وقد كان المقر الرئيس للمركز في أول أمره في بدروم كنيسة القديس يوسف للآباء الفرنسيسكان ٢ شارع بنك مصر المتفرع من شارع محمد فريد حتى إبريل ١٩٥٢ عندما انتقل إلى المقر الحالي. وفي عام ١٩٥٧ تم تأسيس قاعة النيل «للآباء الفرنسيسكان» بمقر كنيسة القديس يوسف وتجهيزها للعروض السينمائية، وأصبحت جزءا من منشآت المركز الكاثوليكي المصري.

ولهذا المركز دور كبير في التوثيق للسينما المصرية وأفلامها الروائية بداية من عام ١٩٢٧ حتى الآن، والتوثيق كذلك للأفلام الأجنبية التي عرضت بمصر منذ عام ١٩٤٩، وذلك من خلال ملفات تحتوي على كل المعلومات

الخاصة بالفيلم وأبطاله والمواد الدعائية المصاحبة لإنتاجه.. كما أن للمركز أيضا مكتبة علمية ضخمة في مختلف العلوم والفنون السينمائية، وهو جهد خدمي كبير قدمه هذا المركز للسينما المصرية، وأتمنى أن يحصل على جائزة تليق بما قدمه من دعم لهذا الفن الفريد.. ولا أرى أي ملاحظات بخصوص أدائه فيما عدا التقييم الأخلاقي للأفلام والذي كان يصدره في النشرة الأسبوعية.



المراجع والمصادر

موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام ـ عبد الرحمن زكي.

كتيب قصر عابدين ـ وزارة الثقافة.

أسماء ومسميات من مصر القاهرة ـ محمد كمال السيد.

موسوعة أعلام مصر في القرن ال٢٠.

الموسوعة العربية الميسرة.

القاهرة الخديوية ـ سهير زكي حواس.

هذا الرجل من مصر ـ لمعي المطيعي.

شوارع لها تاريخ ـ عباس الطرابيلي ـ الدار المصرية اللبنانية.

خبايا القاهرة قديما وحديثا ـ أحمد محفوظ ـ الناشر العربي.

حرائق الكلام في مقاهي القاهرة ـ أحمد عبد الواحد.

فضائل المدن ـ إعداد د. هشام نشابة ـ كتاب في جريدة ٢٠٠٩.

أول مخبر هاو في التاريخ... المصدر: أصوات من مصر القديمة «مقتطفات من كتابات الدولة الوسطى» تأليف: ر. ب. باركنسون. ترجمة: بدر الرفاعي. الناشر: الجمعية المصرية للدراسات الحضارية ـ سنابل الكتاب.

كتاب «سيرة ذاتية لمنظمة شيوعية» كتاب الهلال ـ محمود الورداني ـ يوليو ٢٠٠٧.

طوائف الحرف في مدينة القاهرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (١٨٤١ ـ ١٨٩٠) ـ د نبيل السيد الطوخي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

خمسون عاما من الثقافة السينمائية ـ ناجي فوزي ـ المركز الكاثوليكي المصري للسينما.

Cairo, The Glory Years by Samir W. Raafat

اجتهادات شخصية



عن المؤلف

الاسم: مكاوي سعيد محمد فايد

العنوان الإليكتروني: mekkawisaid@gmail.com

الأعمال الأدبية

١ ـ الركض وراء الضوء	مجموعة قصص ١٩٨١	دار النديم
٢ ـ فئران السفينة	رواية ١٩٩١ خمس طبعات	سعاد الصباح
٣ـ حالة رومانسية	مجموعة قصص ١٩٩٢	نشر خاص
٤ـ راكبة المقعد الخلفى	مجموعة قصص ٢٠٠١	هيئة الكتاب
٥ ـ تغريدة البجعة	رواية ٢٠٠٧ تسع طبعات	الدار للنشر والتوزيع
٦ ـ تغريدة البجعة	رواية ٢٠٠٨ طبعة أولى	دار الآداب ـ بيروت
٧ ـ سري الصغير	مجموعة قصص ٢٠٠٨	كتاب الأخبار

الكتابة للأطفال

١ ـ في مجلات ماجد وبلبل وقطر الندى وكتب الهلال للأولاد والبنات.

٢ ـ روايات أطفال «كوكب النفايات» و«صديقي فرتكوش».

٣ ـ مسرحية «سارق الحضارات» للأطفال.

الجوائز الأدبية

١ ـ الجائزة الأولى للرواية ـ مسابقة سعاد الصباح للإبداع العربي ـ عام ١٩٩١.

٢ ـ القائمة القصيرة لجائزة بوكر الدولية للرواية العربية ـ عام ٢٠٠٧.

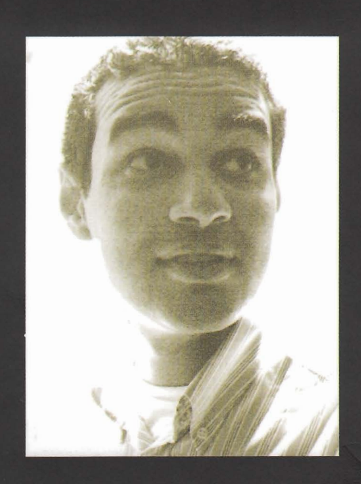
٣ ـ جائزة الدولة التشجيعية في الرواية ـ عام ٢٠٠٨.

٤ ـ جائزة أفضل مجموعة قصصية ـ اتحاد كتاب مصر ٢٠٠٩.

ترجمت بعض أعماله إلى اللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية والسلوفينية.

يكتب أيضا السيناريو الوثائقي والتسجيلي والروائي وحصل على أربع جوائز ذهبية من مهرجان الإذاعة والتليفزيون العربي وجوائز فضية وبرونزية من عدة مهرجانات دولية.





عمرو الكفراوي رسام ومصمم لأغلفة الكتب، قام بتصميم العديد من الكتب لدور نشر مصرية وعربية كما حصل علي عدة جوائز في صالون الشباب بمصر أهمها جائزة جمعية نقاد الفن التشكيلي عام ٢٠٠٥، والجائزة الأولى للصالون عام ٢٠٠٩.

شارك الكفراوي في العديد من المعارض الفردية والجماعية بمصر وخارجها أهمها: «نقاط سوداء» بجاليري «أرت اللوا» مصر، «عشرة وجوه» بمركز «فاريرا للفنون» بإسبانيا، «بجانب البحر» بجاليري «دوجف للفن المعاصر» بولندا، «الفن المصري المعاصر» كوبا، معرض «صالون الشباب» بمركز «دارة الفنون» الأردن، «الحضور الخفي» بمتحف «سماعخانه» مصر.

مقتنيات وسط البلد

مكاوي سعيد



هذا كتاب ذو نكهة خاصة، يحمل معه وجهين مختلفين يكمل كل منهما الاخر، هنا ينتقي لنا «مكاوي سعيد» - بعين الروائي - وجوهًا وأماكن من وسط القاهرة، من بين جنبات تلك الشوارع المعدودة التي تشكّل فيها جزء هام من تاريخ مصر الحديثة؛ حيث كانت ولا تزال ملتقى المثقفين والفنانين المصريين، يمارسون فيها الفن والسياسة والكلام والصعلكة، من «وسط البلد»، حيث تتداخل حياة هؤلاء المثقفين وما لهم من طموحات لا محدودة وجنون مدهش، بحياة ملايين المارة اليوميين من جميع أنحاء مصر والعالم. سنقرأ عن ٤١ شخصية من ذوي الوجوه المألوفة في جلسات المثقفين أو على أطرافها، بعض هذه الشخصيات كان موهوبًا وفضل الصعلكة على الموهبة، وبعضهم تكسرت طموحاته بيده أو بيد غيره فانطوى على نفسه أو أصابه الجنون أو مات أو ابتعد، وبعضهم آثر السكينة وظل يغرف من حكمة الحياة الصافية.

وفي الناحية الأخرى يحكي عن مقاهٍ ومطاعم وبارات ومنتديات ثقافية نشطت في «وسط البلد» في منتصف السبعينيات وأوائل الثمانينيات، تلك الأماكن التي منها ما يزال قائمًا يحتفظ ببريقه، ومنها ما انسحب تمامًا من الصورة بعد أن أزاحته محلات الأحذية أو الوجبات السريعة، ومنها ما تدهور حاله، وإن ظل محتفظًا باسمه ومكانه.. هنا يرصد «مكاوي سعيد» تاريخ هذه الأماكن، والحكايات التي دارت وتدور فيها وحولها. سنقرأ عن جروبي، وريش، والنادي اليوناني، وأسترا، وعلي بابا، وقهوة الحرية، وستلا، وإستوريل.. والكثير غيرها.

كما أنجز الفنان عمرو الكفراوي عددًا من اللوحات الموازية لتلك النصوص والتي عبرت كثيرًا عن روح هذا العالم الثري الذي أمتعنا به «مكاوي سعيد».

دار الشروق
www.shorouk.com


6 221102 026154